سلمان العودة

إشراقات قرآنية

حزب المُفَصَّل

الجزء الأول

من « سورة الحجرات » إلى « سورة الحديد »

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(١)

إشراقات قرآنية

« حزب المُفَصَّل »

سلمـان العـودة

ⓒ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج١) من «سورة الحجرات» إلى «سورة الحديد»

٣٩٦ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨ -٣ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٥ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ٨ -٣ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.youtube.com/user/DrSalmanTv

www.islamtoday.net/salman/

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـ«مؤسسة الإسلام اليوم»، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملاً أو مجزءًا أو تسجيله بأية وسيلة، إلا بموافقة الناشر خطيًّا.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بعدُ:

فإن المتأمِّل في القرآن الكريم يجد سياق آياته في غالبها مما يسهل فهمه على الناس: الشاب والشيخ، والمتعلِّم والأُمِّي، والذَّكي وغير الذَّكي.

وفي الوقت ذاته يجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلَّا الخواص؛ فالعامِّيُّ يفهم ما يحتاجه، والمتخصِّص يجد ما يغنيه ويشبع تطلُّعَه.

وكلما مر القارئ على آية أو سورة تجدَّد له بالتأمُّل والتدبُّر من الأسرار واللَّطائف ما لم يكن لديه من قبل.

وكلما مر جيل وحدثت للناس معارف جديدة لم يكونوا يعلمونها من قبل، وجدت أن القرآن يستوعبها؛ لجهة عدم وجود ما يخالفها، أو كون بعض الإشارات تدل عليها.

ومنهج القرآن في ذلك إرشادي، يقوم على دعوة الناس إلى المعرفة والاكتشاف والضرب في الكون وإعمال العقول والانتفاع بخبرات الأمم، ولا يصلح أن يتحوَّل ذلك إلى الإغراق في ربط منجزات العلم التفصيلية بنصوص الكتاب.

وإنني لأشعر بانشراحٍ وأُنسٍ عند الوقوف مع الآيات وتدبُّر معانيها، وتكرار النظر فيها؛ **ولذلك أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم تنبيهات ينبغي مراعاتها عند تدبُّر القرآن والتأمُّل في معانيه:**

الأول: إذا وقفت أمام آية من آيات الكتاب الكريم، وخفي عليك إعجازها وبلاغتها وأسرارها، فإياك أن يذهب بك الظن إلى أن هذه الآية ليس فيها أسرار، ولكن ربما يكون عجزُ العقل حالَ دون إدراك هذه الآية وأسرارها، وربما يكون تكرار القراءة أو سماعها من قارئ حسن الصوت سببًا في قدح زِناد التدبُّر.

الثاني: أن الله تعالى جعل في القرآن ألوانًا من الأسرار، منها ما يتعلق باللغة، ومنها ما يتعلق بالتشريع، ومنها ما يكون إعجازًا علميًّا، ومنها ما يكون إعجازًا تاريخيًّا، أو أخلاقيًّا..

والله تعالى قد وزَّع المواهب بين الخلق، فمِن الناس مَن يطرب لجوانب البلاغة والإعجاز اللفظي، ويستنبطها وتروق له؛ ولذلك يشعر بتجاوب مع هذا النوع من الإعجاز، ومنهم مَن تكون اهتماماته علمية بحتة، فهو يبحث عنها، ومنهم مَن تكون ميوله روحانية، فيأنس حين يجد الله في القرآن يخاطب عباده ويعرِّفهم بنفسه مباشرة، ويخاطب رسله وأنبياءه، ويكشف للخلق حياتهم وسرَّهم ومصيرهم.

والله قد جعل القرآن منهلًا يَرِدُه الخلقُ كلُّهم فيَسَعُهم، وكل إنسان يجد فيه بغيته وطلبته إذا كانت طِلْبَةَ حق؛ ولذلك فالواردات والخواطر الصحيحة على الذهن، لا بد أن تكون أصولها متضمنة في القرآن الكريم.

والقرآن ليس كتاب جيل فحسب، بل هو كتاب الأمة كلها والتاريخ كله، فلم يحتو على معلومات موغلة في الغرابة ولو كانت صحيحة؛ لئلا تكون فتنة لمَن لم يكتشفها، ولا تزال كشوف العلم ومستجداته تزيد القارئ فيه فهمًا وبصيرة وغوصًا على أسراره بما لم يقع لأجيال سبقت.

والإنسان يُؤتى من قِبَل ضعف قواه ومَلَكاته وقدراته؛ ولذا كان كمال العلم البشري دعوة إلى الإيمان بالله، وكان الأئمة يعتنون بالتدبر والفهم والغوص على أسرار القرآن.

وقلما تجد عالمًا مشهورًا إلَّا وصنَّف في التفسير، وبعض ذلك نقل وتكرار، أو جمع مرشَّح أو غير مرشَّح.

وبعضهم يعتني بجانب لا يعتني به غيره، كما تجد البلاغة والإعجاز اللُّغوي في «الكشاف» للزَّمخشري، وكُتب عبد القاهر الجُرْجاني، و«التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

ومنهم مَن يهتم بالأحكام الفقهية، ويطيل النفس في آياتها، كالقرطبي، وابن العربي، والشنقيطي.

ومنهم مَن يهتم بالإشارات الدقيقة الروحانية والصوفية، وهذه منها قدر طيب انتفع به علماء كثيرون، كابن تيمية وابن القيم، وقدر هو محل تردد، ومنها ما هو تحريف للكَلِم عن مواضعه.

واهتم المعاصرون بالإعجاز العلمي، وسبق إليه الأستاذ فريد وجدي، ثم طنطاوي جوهري، ثم د. مصطفى محمود، و د. زغلول النجار، والشيخ عبد المجيد الزنداني، و د. عبد الله المصلح، وغيرهم، ومنهم مَن تعاطاه بنَفَس معتدل، وحصل من آخرين تكلُّف في إقحام بعض المعاني، وربطها بالقرآن الكريم.

الثالث: أن من المعاني اللَّطيفة ما يدركه مَن يتكلم العربية وهي لغته، بخلاف مَن تعلَّمها وتكلَّمها، فإنه يفوته كثير من صور التدبر؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي

مبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومن شكر نعمة الله هذه أن يُقْبِل صاحب اللغة العربية على القرآن الكريم، ويستدرك هذه المعاني اللَّطيفة التي قد تفوت على غيره.

كلما فتحتُ المصحف، وشاهدتُ الحرف العربي، تجدَّد شعوري بالنعمة والاصطفاء بكون اللغة العربية لغتي الأصلية.

الرابع: من ألطاف القرآن الكريم ما يقع في النفوس وتُشرق به القلوب ويُعْجِز الألسنةَ الإفصاحُ عن معانيه، حتى يكون القارئ حين استقبال هذه الموجات العالية من الإيمان والمشاهدة غير راغب في تدوينها أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يقطع حبل تسلسلها واتصالها، ولأن اللغة لا تستوعبها؛ ولذا قال النِّفَّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»(١). وباليقين وقع للأنبياء ثم الصحابة ثم أكابر المحققين والمؤمنين الراسخين ومَن دونهم من ذلك ما لا يخطر على بال.

ولذا فالقرآن هو أعظم أدلة الوجود والوحدانية والإيمان، وعلى الداعية والمحاور والمدافع عن حقائق التوحيد أن يعمِّق صلته به؛ إذ ليس الإيمان معنًى عقليًّا صرفًا كالمسائل الرياضية، بل هو حجة عقلية وضرورة قلبية وحياتية ومعرفية قد يضعفها الجدل فيها، إِلَّا ما دعت إليه الحاجة؛ لتثبيت إيمان أو إقامة حجة أو رد شبهة عارضة.

ولا يزال المتأمِّل في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يتلقَّى أنواعًا من المعاني العظيمة التي تُشرق لها النفس وتحيا وتطمئن.

ولذا رأيتُ أن أتلقَّى هذه الإشراقات، مستعينًا في ذلك بجهد السابقين من علماء الأمة في تفاسيرهم المشهورة المعتمدة.

ورأيتُ البداءة بـ«جزء عم»؛ فإن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خُوطبت به البشرية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقضاياه هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

---

(١) ينظر: «المواقف والمخاطبات» للنِّفَّري (ص٥١).

كما أني رأيتُ أغلب المفسرين إذا وصلوا إلى هذا الجزء، وهو آخر جزء في القرآن، لا يكون عطاؤهم كما كان عند ما شرعوا في التفسير من أول جزء.

وقد طُبع في جزءين منذ أربع سنوات، وقد أعدتُ النظر فيه مرة أخرى، بالاختصار والمراجعة.

ثم تابعت الأجزاء من بعده صُعُدًا: «**جزء تبارك**»، ثم «**جزء قد سمع**»، وهكذا حتى نهاية «**المُفَصَّل**»..

وقد كانت البداءة بهذه الإشراقات في دروس ألقيتُها، وكان للإلقاء والتفاعل مزيته، ثم أعدتُ كتابتها واجتمعت عليها، وكان للتأمُّل والاستغراق مزيته الأخرى.

ثم ها هو الجهد بين يديك، سائلًا الله أن يسلكني وإياك في سِلْك أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن هداهم الله بهذا القرآن للتي هي أقوم وأنالهم به كريم البُشرى بأن لهم أجرًا كبيرًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر وسائل الاتصال؛ لتوصيل أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًّا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

سلمان العودة

١ ربيع الثاني ١٤٣٧هـ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

* **سورة الفاتحة**[1] سورة عظيمة، يقرؤها المسلم في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات؛ لقوله ﷺ- كما في «الصحيحين» من حديث عُبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[2].

وقد ذكر الشرَّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته[3]، فدل هذا على عظيم شأنها، وجليل قدرها، وأنه ينبغي تأمل معانيها، فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين جميع سور القرآن.

* **تسمية السورة:**

لها أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها[4]:

«**سورة الفاتحة**»: فقد سمَّاها النبيُّ ﷺ: «**فاتحة الكتاب**»، كما في حديث عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المتقدِّم؛ وذلك لأنها أول ما يُقرأ من القرآن، فهي أول سورة مكتوبة

---

(١) هذه السورة لكثرة قراءة المسلم لها في صلواته، وحاجته إلى معرفة معانيها؛ كانت البداءة بتفسيرها، كما فعل بعض العلماء، ومنهم: الشيخ عبد الله كنُّون رَحِمَهُٱللَّهُ في «تفسير سور المفصل»، والشيخ محمد الأشقر رَحِمَهُٱللَّهُ في «تفسير العشر الأخير»، والشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره لـ«جزء عم».

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٣) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٢/ ٣٧٠)، و«إرشاد الساري» (٢/ ٨٥)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٦٩- ١٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (ص١٢٨- ١٢٩)، و«الإتقان» (١/ ١٨٧- ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سمَّاها النبيُّ ﷺ: «**فاتحة الكتاب**»[1].

وسمَّاها النبيُّ ﷺ أيضًا: «**أم القرآن**»، فقال: «**أمُّ القرآن هي السَّبْعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ**»[2]؛ لأن معاني القرآن ترجع إلى مضمونها؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

وتُسمَّى: «**السَّبْع المَثاني**»، كما في الحديث المتقدِّم؛ وذلك لأنها سبع آيات تُقرأ مرة بعد مرة[3]، وسُمِّيت بـ«**المَثاني**»؛ لأنها شاملة لمجملات المعاني المفصَّلة فيما سواها.

و«**القرآن العظيم**»، فقد سمَّاها بذلك النبيُّ ﷺ، فقال: «**هي السَّبْعُ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُهُ**»[4]. وكما في الحديث المتقدِّم أيضًا.

وتُسمَّى: «**سورة الحمد**»[5]؛ لأنها بدأت بحمد الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

و«**الصلاة**»، كما في الحديث القدسي: «**قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سألَ؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. قال اللهُ تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾. قال اللهُ تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. قال: مجَّدني عبدي- وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي- فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي،**

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص193)، و«تفسير مقاتل» (1/ 33)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 5)، و«تفسير الطبري» (1/ 105)، و«تفسير القرطبي» (1/ 112)، والمصادر الآتية.

(2) أخرجه البخاري (4704) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(3) ينظر: «الكشاف» (2/ 587)، و«روح المعاني» (7/ 321)، و«التحرير والتنوير» (14/ 80)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) أخرجه البخاري (4474) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(5) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (1/ 45)، و«معاني القرآن» للنحاس (1/ 47)، و«سنن الدارقطني» (4/ 310)، و«تفسير الثعلبي» (1/ 126)، و«تفسير الرازي» (1/ 156)، و«تفسير القرطبي» (1/ 112)، و«تفسير الخازن» (1/ 15).

ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

فسمَّاها: «الصلاة»، إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتُّل إلى الله بأعظم مطلوب، وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فسُمِّيت السورة ببعض أجزائها، وبعض معانيها، وهو الدعاء.

والدعاء في اللغة يسمى: صلاة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادْعُ لهم[2].

وقد قال الأَعْشَى[3]:

تقولُ بنتي وقد قَرَّبْتُ مُرتحِلًا: ... يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثل الذي صلَّيْتِ فاغتمضي ... نومًا فإن لجنب المرء مُضْجَعًا

يعني: لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي.

أو سُمِّيت بذلك؛ لأنه لا تصح الصلاة إلَّا بها[4].

ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلَّا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام وينطق بالشهادتين يحفظ «سورة الفاتحة» قبل غيرها؛ لكي تصح صلاته، ولو أنه اقتصر عليها في الصلاة لكفته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب[5].

* **عدد آياتها:** سبع آيات بلا خلاف[6]، ومَن لم يعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ آية،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٥٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٠- ٤٩١) «ص ل ا»، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٥/ ٤٩٩)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٤٣٧) «ص ل و».

(٣) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٠١).

(٤) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٥) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١١- ١٦٠)، و«المدونة» (١/ ١٦٣)، و«المجموع» (٣/ ٣٤٩)، و«المغني» (١/ ٢٩١- ٣٣٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٧٦).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٠٥)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص١٣٩)، والمصادر الآتية.

فقد عدَّ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية(١).

* **وهي مكية** على قول الأكثرين، وهو مروي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحسن، وأبي العالية، وقتادة.

وقيل: مدنية. وهو قول أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزُّهري.

ورُوي القولان عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وقيل: نزلت مرتين، مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيت: مثاني.

وقيل: نزل نصفها بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة. قال ابن كثير: «وهو غريبٌ جدًّا»(٢).

والأظهر ما رجَّحه كثير من الأئمة أنها مكية؛ لأن الله تعالى مَنَّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]. والمراد منها: فاتحة الكتاب، و«سورة الحجر» مكية بالإجماع(٣).

ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام صلاةٌ بغير ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»(٤). وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء.

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٢٧٨- ٢٧٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٥)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص١٣٩)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٠)، و«زاد المسير» (١/ ١٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، و«روح المعاني» (١/ ٣٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٦٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١/ ١٦٦)، (١١/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٣/ ١٤٥)، و«روح المعاني» (٧/ ٢٤٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم قريبًا.

* ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾:

اختلف أهل العلم هل «البسملة» آية من «سورة الفاتحة»، أم آية من القرآن، أم آية من كل سورة؟[1].

وكل سورة في القرآن تبدأ بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إلا «سورة التوبة».

* وفي هذه السورة خاصة قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③﴾، فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفيها ذكر خمسةٍ من أسمائه الحسنى، وهي: «الله»، «الرَّب»، «الرَّحمن»، «الرَّحيم»، «المَلِك».

* **الله:** وهو الاسم الأعظم، على قول بعضهم، وهو أكثر الأسماء ترددًا في القرآن والسنة، وعلى ألسنة المخلوقين بمختلف لغاتهم وألسنتهم، وهو الذي تُنسب الأسماء الأخرى إليه، فيقال: الله المَلِك، الله الخالق، الله العليم... ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يتسمَّ به أحد قط، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ⑥⑤﴾ [مريم: ٦٥].

الله الذي تألهه القلوب، أي: تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتأنس بذكره، وكان ﷺ يقول في دعائه: «**وأسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك..**»[2].

ومن معانيه: أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علمًا، ولا تدرك له من الكُنْه والحقيقة إلا ما بيَّن سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا تعلم كيفية ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في

---

(١) ينظر: «التمهيد» (٢/ ٢٢٨)، (٢٠/ ٢١٥)، و«الاستذكار» (١/ ٤٥٧- ٤٦٢)، و«المغني» (١/ ٣٤٤- ٣٤٥)، و«المجموع» (٣/ ٣٣٤- ٣٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥- ٤٤٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ١٦٥- ١٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩- ٣٠)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جل وعلا؟! فالعقل يرتد كَلِيلًا حَسِيرًا عن إدراك ذاته تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول ﷺ: «**فأستأذنُ على ربي، فيُؤذنُ لي، ويُلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُهُ بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا..**»(١).

فأخبر أن الله يعلِّمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معانيه: أنه الإله المعبود المتفرِّد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ويقول: الله أكبر.

أطلق هذا الاسم العَلَم الذي هو أصل لكل الأسماء الأخرى؛ إظهارًا للاعتقاد أنه لا معبود بحقٍّ إلا هو: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾(٢) [الحج: ٦٢].

* **الرَّب**: فهو ربُّ العالمين، ربُّ كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره، وهو متولِّي أمورهم وحياتهم وأرزاقهم، المتفضِّل عليهم(٣).

* **الرَّحمن**: واسمه سبحانه: «الله» و«الرحمن» من الأسماء الخاصة به، لا يشاركه فيهما غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

أما الأسماء الأخرى، فيُسمَّى أو يُوصف بها غير الله، كالرَّحيم، والسَّميع، والبَصير، كما قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٤٣- ٥٣).

(٣) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٣٢).

بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

والاسم يدل على صفة الرحمة لله سبحانه، وعظمتها وتقديمها، حتى ورد في «الصحيح» أن اللهَ خلقَ مائة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، وادخر باقيها ليوم الحساب(١).

وجعل كتابه رحمة، وأرسل رسوله رحمة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبدأ كتابه العزيز بهذا الاسم تأكيدًا على استشعار الرحمة في العبادة وفي التعليم وفي الدعوة وفي الدعاء، وأن مَن خرج منها إلى أن يكون مغضوبًا عليه، فبسبب إمعانه في الغي وإعراضه عن الله.

* **الرَّحيم:** وهو مثل «الرحمن» في أصل الاشتقاق، واختلفوا في الفرق بينهما:

فقيل: «الرحمن»: رحمة عامة بجميع الخلق، و«الرحيم»: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل: إن اسم «الرحمن» بالنظر إلى وجود الصفة، وأما «الرحيم» فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق، يعني: حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه ابن القيم(٢)، فالله هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

والأقرب أن «الرحمن» على وزن فَعْلان، صيغة مبالغة، تدل على الامتلاء والتناهي في التحقق بالصفة وعظمتها، وأما «الرحيم» فهي بصيغة فَعِيل التي تدل على التكرار، وأن هذه صفة دائمة، وليس هذا الاختيار ببعيد عما قبله(٣).

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢)، و«كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين» لابن طولون الصالحي.

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٢٤)، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٢٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٣٨)، و«الكشاف» (١/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٠٥)، و«روح المعاني» (١/ ٦٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٧٣)، و«معارج القبول» (١/ ٦٧- ٦٨)، و«زهرة التفاسير» (١/ ٥٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٥٥- ٦٤).

وهاهنا ينبغي أن نتأمل سرًّا من أسرار تكرار هذين الاسمين، فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ أو يدخل أو يخرج أو يأكل أو يخطب أو يتكلم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد ورد: «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»**- وفي رواية: بـ«**الحمد لله**»- **فهو أَبْتَرُ، أو أَقْطَعُ، أو أَجْذَمُ**»[1]. والمعنى: ناقص البركة[2].

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلم يقل أحد من الناس قط: بسم الله المنتقم الجبار، أو: بسم الله العزيز الحكيم، مع أن هذا حق، وفي هذا إشارة إلى قوله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[3].

على الإنسان أَلَّا يقنط من رحمة الله مهما أسرف على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من صفات الكافرين، فينبغي للمؤمن أن يتشبَّث أبدًا بطلب رحمته جل وعلا، وأن يعلِّم الناسَ الثقة برحمته سبحانه.

وكثيرًا ما كان النبيُّ ﷺ يعلِّم أصحابه الرجاء فيما عند الله، وأن تكون ثقتهم بالله وبرحمته أعظم من ثقتهم بعملهم؛ فإن العمل قد يداخله الرِّياء أو العُجْب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله ﷺ، فيُرَدُّ على صاحبه، وقال ﷺ: «**لن يُدخِلَ**

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٨٧١٢)، و«سنن أبي داود» (٤٨٤٠)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٩٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٤٢٧- ٤٢٨)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٧- ٢٢)، و«إرواء الغليل» (١- ٢).

(٢) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٢٦٣)، و«شرح البخاري» للسفيري (١/ ٦٨)، و«فيض القدير» (٥/ ١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أحدًا عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ منه بفضل ورحمة**»[1].

ينبغي أن يُدْعَى الناس- والعصاة بخاصة- إلى الله، بتذكيرهم برحمته، مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]. فقدَّم المغفرة والرحمة على العذاب، وجعلها صفة له، بينما عبَّر في الآية الأخرى عن عذابه بأنه أليم، ولم يصف نفسه بالمعذِّب أو الباطش أو المعاقِب.

وبعض الدُّعاة يفيضون في الحديث عن الوعيد والتشديد والتخويف والترهيب، إلى درجة تُحدِث أثرًا عكسيًّا، وهو تقنيط العصاة من رَوْح الله ورحمته، فيتملَّكهم اليأس، ويفقدون الأمل، فيتشبثون بما هم عليه من المعاصي، ويستغرقون فيها!

أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فأسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سور القرآن الكريم، حتى إن الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية يبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». فينبغي أن يُعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائمًا بأن يتعلقوا بالله، الرحمن، الرحيم.

وأصول الأسماء الحسنى هي: «الله»، و«الرَّب»، و«الرَّحمن»، فاسم «الله» متضمِّن لصفات الألوهية، واسم «الرَّب» متضمِّن لصفات الربوبية، واسم «الرَّحمن» متضمِّن لصفات الجود والبر والإحسان.

فالربوبية من الله لعباده، والتأليه منهم إليه، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عباده، فبرحمته أرسل رسله، وأنزل كتبه، وبها رزق عباده وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: مقدمة «مدارج السالكين».

* **المالك:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾:

أي: يوم يُدان الناس بعملهم، ويجازون به خيرًا أو شرًّا[(١)]، فبعدما اعترف لله قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ زاد الاعتراف قوة وثباتًا بأن أثنى على الله بصفاته وأسمائه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وفي قراءة سَبْعية[(٢)]: ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالقصر بلا مد[(٣)]؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

وقد استفتح السورة بالحمد، وهو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما المدح، فهو: الثناء عليه بصفات الجلال والجمال والكمال[(٤)].

فالحمد: ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلانًا حمد فلانًا. فمعناه أنه شكره على إحسان قدَّمه إليه، لكن إذا قيل: مدحه. فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدَّمه، بل قد يكون مدحه ببلاغته وفصاحته، أو بجماله، أو بقوته، أو بإحسانه لقوم آخرين.

وعليه، فالمدح أعم من الحمد؛ لشموله الثناء بصفات الجمال والجلال والكمال مطلقًا؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل.

وعبَّر ابن القيم عن ذلك، فقال: «الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخبارًا مجرَّدًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان مجرَّدًا عن الحب والإرادة، فهو المدح، وأما الحمد، فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٥٩)، (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٧).

(٢) أي: من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٤٩- ١٥٠)، و«السبعة في القراءات» (ص١٠٤)، و«حجة القراءات» (ص٧٧)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٢٧١)، و«معجم القراءات» (١/ ٨- ١٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٦)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٣٤٩)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٥٣)، و«الكشاف» (١/ ٨)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٣- ١٣٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٥٥).

(٥) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

والحمد يتضمن الاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛ وقد يعبد الإنسان ربه عبادة المُدل المُعْجَب؛ فلا يُقبل منه؛ لأن الإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذُّل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذُّل والانكسار؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكورة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، تقول العرب: طريق معبَّد، أي: مذلَّل تطؤه الأقدام(١)؛ **فمن أعظم معاني العبادة**: الذُّل له سبحانه.

كان النبي ﷺ كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه، فكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ، وعلانيَتَهُ وسِرَّهُ**»(٢).

حتى قول: «اللهمَّ اغفرْ لي». فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

ونقيض الاعتراف: الإنكار والجحود؛ فالذنب الذي كفر به إبليس هو الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعوه ويحلف به، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، ويعرف البعث: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، ولكن ذنبه الجحود والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تبرَّأ من هذا كله، وكأن أول ما تدل عليه الكلمة: أن العبد وهو واقف يقول: أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل، مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضِّل، فهذا فيه معنى الحمد، إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه، ودنياه.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٤٣)، و«تاج العروس» (٨/ ٣٤٠) «ع ب د».

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

في هذه الآية أعظم المعاني؛ وهو الإقرار بالعبودية، وهو أصل التوحيد، الذي بُعث به الرسل: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

والشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك الذي بُليت به الأمم؛ لأن الاعتراف بالله خالقًا ورازقًا أمر تقر به الفطر والنفوس، وإن كان يحتاج إلى ترسيخ وتذكير؛ لأنه يستلزم الإيمان بالألوهية وصرف العبادة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: تقديم الضمير إشارة إلى التخصيص؛ يعني: لا نعبد إِلَّا إياك، ففيها حصر وقصر(١).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة بمَن سواه، فلا نطلب إلا عونك؛ ولا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك، فمن الناس مَن يستعين بغير الله، ومنهم مَن يستعين بالله وبغيره(٢).

وهذه الآية التي بين الله وبين عبده، فمن العبد الدعاء والعبودية، ومن الله العون والقوة، حتى على العبادة، إذ ليس للعبد قدرة على تحول أو فعل إلا إذا استمد من ربه واعتصم به، ولهذا كان من قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾:

من معانيها:

١- ثبِّتنا حتى لا ننحرف أو نزيغ؛ لأن الإنسانَ يكون اليوم مهتديًا، وغدًا من الضالين، أي: ثبِّتنا على الصراط المستقيم.

٢- قوِّ هدايتنا؛ فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم مَن يبلغ درجة الصِّدِّيقيَّة، ومنهم مَن يكون في أدنى درجات الإسلام، وبحسب ذلك تكون

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (١/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (١/ ٣٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٩٤)، و«روح المعاني» (١/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٨٦).

منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراطًا في الدنيا، وصراطًا في الآخرة، والأمن على الصراط الأخروي، هو بقدر الاستقامة على الصراط الدنيوي.

والصراط الدنيوي هو: طريق الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ [الفتح: ٢]، وهو بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

وصراط الآخرة هو: الجسر المنصوب على جهنم، وهو دحض مزلَّة، يمشي الناسُ فيه بقدر أعمالهم: فمنهم مَن يمرُّ كطَرْف العين، ومنهم مَن يمرُّ كالبرق، ومنهم مَن يمرُّ كالرِّيح، ومنهم مَن يمرُّ كالطَّير، ومنهم مَن يمرُّ كأجاويد الخيل والرِّكاب، ومنهم مَن يمشي تارة ويعثر أخرى(١).

وعليه فالمعنى: زِدْ إيماننا وعلِّمنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤﴾ [طه: ١١٤]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزامًا بالصراط المستقيم، ازداد علمه، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ وكقوله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝١٣﴾ [الكهف: ١٣].

وقد كتب الإمام الهروي «منازل السائرين إلى الحقِّ المبين»، ثم شرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، وهو تفصيل لمنازل الناس ومقاماتهم في سلوكهم إلى رب العالمين، فأعظم الهداية هي الهداية إلى الله، وحسن فهم أسمائه وصفاته والقرب منه، ودوام المناجاة، والسلامة من الجهل به، أو الغفلة عنه، أو نسبة ما لا يليق به إليه.

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١١٢٠٠)، و«صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣، ١٩٥)، و«رؤية الله» للدارقطني.

٣- جَدِّد هدايتنا؛ إذ إن معنى الصراط المستقيم: أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه.

وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أُمر به في ذلك الوقت وما نُهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله سبحانه في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم(١).

وبصفة عامة، فالعبد يحتاج إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر:

- من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها.
- وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها؛ ليزداد هدىً.
- وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي.
- وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها.
- وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية.
- وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها.. إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فلما كان العبد محتاجًا إلى هذا كله، فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعدِّدة في اليوم والليلة(٢).

ولتحقيق الهداية لا بد من:

١- معرفة الموقف الصحيح، وماذا يريد الله ورسوله منه في هذه المسألة، وما هو الصواب والأصح له في هذه القضية.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧).

(٢) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص١٤٤- ١٤٥).

٢- العمل وفق هذه الرؤية، ولا عمل دون وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى ذلك.

فحين يتلو العبد هذا الدعاء، فهو ينادي ربه قائلًا: يا ربنا، دُلَّنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه، والذي دللتنا عليه وعلَّمتنا إياه.

وسر الانحراف يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين: العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، وهما:

١- **الجهل**: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير، ولكن يجهل الطريقة لتحصيله، فيسلك طرقًا غير موصِّلة، ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من إنسان يسير بسرعة هائلة نحو هدفه، فيكتشف في نهاية المطاف أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس، وأنه كان يسرع ويمعن في البعد عن ذلك الهدف!

وكم من المسلمين مَن يجتهد ويتعب في أعمال غير مشروعة، وهو يظن أنه ممن يُحسنون صنعًا، وذلك بسبب قلة العلم، فهو يسأل ربه ألَّا يبقى في ضلال الجهل متخبِّطًا على غير بصيرة.

٢- **الهوى**: فقد يرتفع الجهل ويكون الإنسان عالمًا، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل، فيترك الواجب أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحكم؛ لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

* ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾:

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له؛ لأن القرآن مثاني، يُعاد معناه مرة بعد أخرى[1].

ونسب الصراط للذين حازوا الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٢)، و«الكشاف» (٢/ ٥٨٧)، (٤/ ١٢٣)، و«تفسير ابن عرفة» (٣/ ٣٨٨)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٠)، و«روح المعاني» (٧/ ٣٢١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، (٢٣/ ٣٨٦).

والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، فهم الذين سلكوه ولزموه وماتوا عليه، ومَن سلكه من بعدهم فقد تأسَّى بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: والمغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحقَّ وتركوه، قال الله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [المائدة: ٦٠]، ومنهم اليهود الذين عرفوا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، كما في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالونَ»(١).

ولكن الغضب ليس محصورًا في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال ﷺ: «مَن حلف على يمينِ صبرٍ(٢)؛ يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لقي اللهَ وهو عليه غضبانُ»(٣).

وفي قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، قال: «إن اللهَ قد رضي عنك، وسَخِطَ على صاحبيكَ»(٤).

فالمغضوب عليهم لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، بسبب الهوى، فهم يعلمون ولا يعملون.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١١٣٥)، وأحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣م، ٢٩٥٤)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٥٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٨١)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٩٨) (٢٣٦). وينظر: «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٦٦٨- ٦٦٩)، و«فتح الباري» (٨/ ١٥٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٢٦٣).

(٢) يمين الصبر: التي يحبس الحالف نفسه عليها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٥٦، ٧١٨٣، ٧٤٤٥)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقدَّم الله تعالى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن مَن كان ضلاله بسبب الجهل، فإنه يرتفع بالعلم، وأما إن كان بسبب الهوى، فإنه لا يكاد ينزع عن ضلال.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن مَن لا يعمل بعلمه، حتى قال ﷺ في حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلقى في النار، فتَنْدَلِقُ أَقْتابُهُ في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أيْ فلانُ، ما شأْنُكَ؟! أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١].

فهو عالم يعرف المعروف والمنكر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من العذاب[٢].

أما الضالون: فهم الذين تركوا الحقَّ عن جهل وضلال، وربما طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار والتعصب، ومنهم كثير من النصارى الذين كذَّبوا عن جهل وضلال.

ومع أن المثل يُضرب بأهل الكتاب، إلا أنه كما قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**نِعْمَ الإخوةُ لكم بنو إسرائيل، إنْ كانت لكم كلُّ حُلْوَة، ولهم كلُّ مُرَّةٍ، والله لتَسْلُكُنَّ طريقَهم قدر الشِّراك**»[٣].

فلا يحسن أن يكون سَوق المثل صارفًا عن النظر في هذه الأمة، علماءَ وحكامًا ودعاةً وعامةً، أين أصبنا وأين أخطأنا، وأين هُدينا وأين ضللنا، أما تزكية النفس باللسان والإمعان في الحال التي عليها الإنسان دون بصيرة ولا مراجعة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) ينظر التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلف (١٢٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠)، والمروزي في «السنة» (٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٣٧) (١٠١٢)، والحاكم (٢/ ٣١٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٠)، (٤/ ١٧٩).

ولا تقوى، فليست من خصال المهتدين.

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الصف: ٩].

الثاني: طريق المغضوب عليهم، مَن يعرفون الحق ولا يعملون به.

الثالث: طريق الضالين الذين يعملون بغير علم، ولهذا قال سفيان بن عُيينة: «مَن فسد من علمائنا، ففيه شبهٌ من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبهٌ من النصارى»[١].

ونحن في كل قراءة للفاتحة نسأل الله أن يسلك بنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجيرنا من طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، وفي كل مرة يحدث لنا تدبُّر جديد، يناسب الحال التي نحن عليها وما يطرأ من تحولات، ولكل حال هداية تختلف عن غيرها، وما يزال الحي متنقِّلًا بين الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والشباب والشيخوخة.. وفي كل مرة هو يسأل ربه الهداية الملائمة لحاله.

ooo

(١) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٩٧)، (١٣/ ١٠٠)، (١٦/ ٥٦٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٨٢١)، (١٩/ ٤٢).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

* «سورة الحُجُرات»: هي أول «حزب المُفَصَّل»، وقيل: أوله: «سورة ﴿قٓ﴾» - في عشرة أقوال - إلى نهاية «سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾»(١).

* وسُمِّي: مُفَصَّلًا؛ لكثرة الفصل بين سُوره بالبسملة، وقيل: لقصر أعداد سُوره من الآي، وقيل: لقلة المنسوخ فيه(٢).

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «سورة الحُجُرات»(٣). وهي لحُجُرات أزواج النبي ﷺ.

* **عدد آياتها:** ثماني عشرة آية عند جميعهم(٤).

* **وهي مدنية** عند جميع العلماء، سوى قولٍ شاذٍّ لا يُعتدُّ به(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٢- ٣٩٣)، و«فتح الباري»(٢/ ٢٤٩، ٢٥٩)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٤٥)، و«الإتقان» (١/ ٢٢١)، و«تفسير سور المفصَّل» لعبد الله كَنُّون، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «شرح صحيح البخارى» لابن بطال (٢/ ٣٩٣)، و«المفهم» (٢/ ٤٥٥)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ١٠٦- ١٠٧)، و«التوضيح» لابن الملقن (٢٤/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (٢/ ٢٥٩)، و«تاج العروس» (٣٠/ ١٦٧- ١٦٨) «ف ص ل»، و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح (ص١٤٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢١٣).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٠)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٥٨١)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٥).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤١)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٥)، و«الإتقان» (١/ ٤٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٤)، والمصادر السابقة.

وهي سورة نبؤها عجيب، وموضوعها: تهذيب الأخلاق، وترسيخ الفضائل والقيم، بدءًا بالأخلاق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع الرسول ﷺ، ثم أخلاق المسلمين مع أنفسهم، ثم مع أعدائهم وخصومهم، ثم تكريس المبدأ العام في المساواة والتكافؤ، وأنه ليس بين الناس فرق إلا بالتقوى(١).

وهي تعكس طبيعة المجتمع النبوي في مرحلته الأخيرة؛ حيث التمايز الواضح بين الصحابة السابقين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، من الذين هذَّبهم الإيمان ورسخ في قلوبهم، وأرادوا اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وبين مجموعات أخرى من العرب هم حُدثاء عهد بإسلام، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ لأنهم دخلوا رغبة ورهبة حين رأَوْا أمر الإسلام قد استتبَّ واستوثق.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾:

تكرَّر الخطاب بوصف الإيمان خمس مرات في السورة، في حين أن النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ورد مرة واحدة، ومثل هذا الخطاب نادر في سورة مدنية، والغالب أن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في القرآن المكي؛ لأنه خطاب عام، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في القرآن المدني(٢).

بدأ تعالى باستثارة إيمانهم الذي هو أعظم أعمالهم وأفضلها، وهو الذي تُبنى عليه الشرائع والأحكام والأوامر: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: لا تقترحوا على الله ورسوله أمرًا تسبقون به ما يأتي من الله تعالى، أو من رسوله ﷺ، فالمقصود بالتقديم أو التقدُّم هنا: الاستعجال(٣).

---

(١) كما في قوله ﷺ: «ألَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتقوى». وسيأتي تخريجه آخر السورة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٣/ ١٥٥١)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٥)، و«الكشاف» (١/ ٨٩)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير مقاتل» (١/ ٤٥٩)، (٤/ ٨٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤١- ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢١٨)، والمصادر السابقة والآتية.

وقيل: إن الآية نزلت في الذين يذبحون الأُضحية قبل صلاة العيد[1].

وقيل: نزلت في الذين يصومون يوم الشَّكِّ قبل رمضان، أن لا يصوموا قبل أن يصوم نبيهم[2].

فهذا نموذج للتقديم، والواجب على المؤمنين ألَّا يسابقوا هَدْي الرسول ﷺ، أو يأتوا بشيء لم يأت به، ولو على سبيل الاحتياط، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[3]؛ لأن الزيادة والنقص كلاهما خطأ.

وفي قراءة بفتح التاء والدال: ﴿لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[4]، وهي تحمل المعنى ذاته[5].

وقيل: نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما- وهو الأشهر من أسباب النزول- أنه قدم رَكْبُ بني تَمِيم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بنَ مَعْبد. وقال عمرُ: بل أَمِّر الأَقْرعَ بنَ حابس. فقال أبو بكر: ما أردتَ إلَّا خلافي! قال عمرُ: ما أردتُ خلافكَ. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾[6].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٢)، و«الإتقان» (٢/ ٤٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣٧)، و«معاني القرآن» للأزهري (٣/ ٢٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص٤١٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٥)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص٥٦٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٧٥).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٢)، والمصادر السابقة.

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٦٧، ٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٩١).

فقد نهاهم عن الاقتراح قبل أن يسألوا، وإلا فإن المشورة قائمة، والنبيُّ ﷺ كان يستشير أصحابه؛ حتى قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيتُ أحدًا قطُّ كان أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ»(١).

وقد استشارهم ﷺ يوم بدر وأُحد والخندق وغيرها(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: فهذا الأدب من كمال التقوى، والسورة اعتنت بالتقوى، ودارت عليها موضوعاتها؛ ومجمل الأوامر والنواهي في السورة إنما هي على سبيل الأخلاق، دون الجزم بحلال أو حرام، فإذا كان قلب الإنسان تقيًّا فالغالب أنه يُميِّز بين الخطأ والصواب، بخلاف ما إذا كان مغلَّفًا أو فاجرًا، فإنه قد يقدم على أشياء واضحة المنع، وقد يتأوَّل، ويلتمس العذر لنفسه!

ولأن معظم ما تقدَّموا به كان أقوالًا ومقترحات لفظية قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع أقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم مقاصدكم ونياتكم.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾:

قد يكون هذا نهيًا عما حدث من أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كما في الحديث

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (٧/ ١٠٠)، وفي «المسند» (ص٢٧٧)، وعبد الرزاق (٩٧٢٠)، وأحمد (١٨٩٢٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٩٣)، والطبري (٢١/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٠١)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والبيهقي (٧/ ٧٣)، (٩/ ٣٦٦)، (١٠/ ١٨٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٩١).

وفي إسناده انقطاع، وأصله في «صحيح البخاري» (٢٧١١، ٤١٨٠)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٣٣- ٢٣٥)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٣٤)، (١٣/ ٣٤٠).

وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٧٦٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٧٨٧)، و«صحيح البخاري» (٤٧٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣)، و«تفسير الطبري» (٦/ ١٨٨- ١٩٠)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٤٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٨٠١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٤٠- ٢٤٣)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٨١)، و«الدر المنثور» (٤/ ٨٧- ٨٩)، و«مرويات غزوة الخندق» (ص٢٠٠- ٢٠٣)، و«مع المصطفى ﷺ» للمؤلِّف (ص٦٣- ٧٠).

السابق[١]- فالمقصود: رفع الصوت فوق ما يُحتاج إليه أو أكثر مما جرت به العادة، والنبيُّ ﷺ كان لا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة، ففي ذلك نهي عن المبالغة في رفع الصوت مما لا حاجة إليه، أما إذا كان ثَمَّ حاجة، مثل رفع المؤذِّن صوته بالأذان، أو الخطيب، أو المُبلِّغ، أو ما أشبه ذلك، فهذا غير داخل في النهي، وهو نهي عن حالة خاصة بحضرة النبي ﷺ.

ويدخل في النهي: كثرة الكلام بحضرة النبي ﷺ، دون مراعاة حاجاته وأوقات راحته ونومه، فهو بشر يحتاج إلى أن يخلو للعبادة، وإلى أن يخلو بأهله، وإلى أن يخلو للراحة، وكل أحد لا يرى إلا قضاء حاجته، ولذا أُمروا أن يتصدَّقوا قبل مناجاته، كما سيأتي في «سورة المجادلة»[٢].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يقتصرون على القدر الضروري من الصوت ومن الكلام، حتى إن عمرَ رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية كان إذا حدَّثَ النبيَّ ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار[٣]، لم يُسْمِعْهُ حتى يستفهمه[٤]، ورُوي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يفعل هذا أيضًا[٥].

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تخاطبوه بالأسلوب

---

(١) وفي بعض رواياته: «فأنزلَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...﴾».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة المجادلة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

(٣) أي: كصاحب السِّرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، يعني: كالمناجي سرًّا.

(٤) كما في «صحيح البخاري»، وهو حديث تماري أبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدِّم، وينظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٩٠- ٥٩١).

(٥) أخرجه الحارث (٩٥٧- بغية)، والبزار (٥٦)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٦٨)، وابن عدي (٢/ ٨٠٣)، والحاكم (٣/ ٧٤) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٣٧٩)، وفي «شعب الإيمان» (١٤٣١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ قال أبو بكر: «والذي بعثك بالحقِّ، لا أكلِّمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٢٦- ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٥- ٣٦٦)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (٣/ ١١٩١- ١١٩٣).

الذي يخاطب به بعضُكم بعضًا، كما قال سبحانه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ويدخل في النهي: مناداته باسمه المجرد: يا محمد، ويدخل فيه الجفاء ورفع الصوت.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: حبوط العمل: ذهابه[1]؛ وذلك أن العرب تقول للناقة إذا أكلت النباتات السُمية ثم انتفخ بطنها وماتت: «حَبِطَتْ الناقةَ»[2].

ويشهد لهذا المعنى: قوله ﷺ: «إنَّ كلَّ ما يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقتلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ، أَكَلَتْ، حتى إذا امتلأَتْ خاصرَتَاها استقبلتِ الشمسَ، ثَلَطَتْ أو بَالَتْ، ثم اجترَّتْ، فعادت فأَكَلَتْ»[3].

وفيه تخويف لمَن عمل صالحًا أن يقع في موبقات أو كبائر تحبط عمله، وهذا الأمر قد يقع شيئًا فشيئًا دون أن يشعر بذلك صاحبه، فهي حالة غفلة ترين على القلب ثم تتطوَّر وتكبر حتى تُحبط العمل[4].

وقد ذكر البخاري قصة ثابت بن قيس بن شَمَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان خطيب الرسول ﷺ بالمدينة، وكان جهوري الصوت، فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ جلس ثابت في بيته، وقال: أنا من أهل

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٤).

(٢) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٠٣)، و«لسان العرب» (١/ ٥٨)، و«تاج العروس» (١٩/ ١٩٢) «ح ب ط».

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٥، ٢٨٤٢)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) قال النووي: «معناه: أن نبات الرَّبيع وخَضِره يقتل حَبَطًا بالتُّخَمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة، فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الرَّبيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم مَن يستكثر منه ويستغرق فيه، غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم مَن يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرًا، وإن أخذ كثيرًا فرَّقه في وجوهه، كما تَثْلِطُهُ الدابة، فهذا لا يضره». ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٤٢)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٤٧- ٢٤٨).

النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذ، فقال: «**يا أبا عَمرو، ما شأنُ ثابت؟ اشْتكَى؟**». قال سعدٌ: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوَى. قال: فأتاه سعدٌ، فذكرَ له قولَ رسول الله ﷺ، فقال ثابتٌ: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**»[1].

هذا حال القلوب المرهفة التي تتفقَّد إيمانها، وتخاف عليه الحبوط، بمجرد سماعها تحذيرًا ليس فيه تصريحٌ بحبوط إيمان أحدٍ بشخصه، ولو غيرهم سمعه لقال: إن المقصود بذلك غيري، وكيف أكون أنا المقصود وقد عملتُ كذا وكذا... ثم يسترسل في استذكار أعماله التي يراها صالحة!

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾:

ثناءٌ على أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإشادة بموقفهما واستجابتهما السريعة بغض أصواتهما بحضرة رسول الله ﷺ[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ أي: اختبر الله قلوبهم- وهو أعلم- فوجدها صالحة مستعدَّة مؤهَّلة، فغرس فيها التقوى واليقظة والحياة[3].

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾: فالمغفرة هي: الصفح عن الذنوب والأخطاء، وأما الأجر العظيم فهو: الثواب، فكفَّر الله تعالى عنهم سيئاتهم، وتقبَّل منهم حسناتهم وضاعفها لهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٣، ٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٨٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٣- ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٥)، والمصادر السابقة.

﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾[1] [الزمر: ٣٥].

وقد صار ما أمرت به الآية الكريمة خُلُقًا عند المسلمين في غضِّ الصوت عند رسول الله ﷺ، وعدم الصَّخَب أو رفع الصوت بحضرته، حتى بعد وفاته ﷺ عند قبره، كما في «صحيح البخاري» أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجد رجلين يرفعان أصواتَهما في مسجد رسول الله ﷺ، فدعاهما، فقال: «مَن أين أنتما؟». قالا: من أهل الطائف. قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!»[2]. فعذرهما؛ لأنهما غريبين عن المدينة.

وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ، وكان الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إمام دار الهجرة لا يرضى لأحد أن يرفع صوته في مسجده ﷺ[3].

ويُؤخذ من هذا أن على المسلم أن يستحضر هذا الأدب الرَّفيع إذا كان قريبًا من الحجرة النبوية، أما زجر الناس ودفعهم بالأيدي- ولو على سبيل الإنكار- وما أشبه ذلك، فهذا لا يليق بمثل هذا المقام، وينبغي ألَّا يقف في مثل هذا المقام إلا المؤهَّل علمًا وخُلُقًا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾:

لعل نزول الآية كان بسبب وفد بني تَمِيم حين قدموا إلى المدينة النبوية، قيل: كانوا تسعين أو ثمانين رجلًا، ومعهم: عُيينة بن حِصن، والأَقْرع بن حابس، وقيس ابن عاصم، والقَعْقاع بن مَعْبد، ومعهم سادة وأئمة، وكانت فئة منهم محدودة ذات جفاء وغلظة بطبيعتها؛ لأنها عاشت في الصحراء، ولم تتعلَّم آداب الإسلام، فأحدثوا قدرًا من الفوضى في المدينة، ودخلوا المسجد، ثم قال قائلهم: اخرُجْ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٢٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٥)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٥)، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ٤١)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٨)، و«إمتاع الأسماع» (١٤/ ٦١٦)، و«الخصائص الكبرى» (٢/ ٤٤٥)، و«سبل الهدى والرشاد» (١١/ ٤٣٩).

إلينا يا محمدُ، فإن مدحَنا زَينٌ وذمَّنا شَيْنٌ. فخرج ﷺ، وقال: «إنما ذلكم الله»[(١)].

يعني أنهم عظَّموا أنفسهم بهذه المقالة بما لا يليق بالبشر[(٢)].

والحُجُرات المذكورة جمع: حجرة، وهي بيوت أزواج النبي ﷺ، وكانت تسع حُجُرات متلاصقة صغيرة متواضعة.

ودخل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الحُجُرات، فكان يلمس سقفها بيده[(٣)]، وكانت موجودة إلى العهد الأُموي، وأمر الوليد بهدمها، فلم يُرَ في المدينة أكثر باكيًا من يومئذٍ، وقال الناس: يا ليت الوليد ترك هذه الحُجُرات؛ حتى يعلم الناس كيف كان يعيش رسولُ الله ﷺ وأزواجه[(٤)].

وهنا مأخذ لطيف، وهو أن الأماكن المقدَّسة كلما كانت أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن التكلُّف في العمران والمواد والبُسط والأثاث وسواه؛ كان أدعى إلى إحياء القيم الروحانية، فهي ليست مدنًا اقتصادية تفتخر بالتشييد والمعمار والزخرفة والشموخ، بل مواضع للخشوع والسكون والقرب من الله؛ ولذا ورد

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٩١، ٢٧٢٠٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٧٨)، والطبري (٢١/ ٣٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨)، والضياء (٤/ ٣٢١) (١٥٠٠- ١٥٠٣) من حديث الأَقرع بن حابس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه نادى رسولَ الله ﷺ من رواء الحجرات، فقال: يا رسولَ الله. فلم يجبه رسولُ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، ألَا إن حمدي زَيْنٌ، وإن ذمِّي شَيْنٌ.

وأخرج الترمذي (٣٢٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٥١)، والرُّوياني (٣٠٧)، والطبري (٢١/ ٣٤٥) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قام رجلٌ... نحوه.

(٢) وقيل في سبب نزول الآية أقوال أخرى. ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٨٧- ٣٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢٥).

(٣) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٤٣١)، و«الأدب المفرد» (٤٥٠)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٧)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (٢٤٥)، و«شعب الإيمان» (١٠٢٤٩).

(٤) ينظر: «الروض الأنف» (٤/ ٢٧١)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٥٧)، و«خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» (٢/ ١٣٠).

النهي عن تشييد المساجد وزخرفتها(١).

لقد كانت حُجراته ﷺ ضيقة صغيرة؛ وكان ﷺ إذا صلَّى في حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي أمامه إلى قبلته، وأراد السجود غمزها، فقبضت رجليها، فسجد ﷺ في موضع رجليها، فإذا قام بسطت رجليها، ولم يكن عندهم مصابيح ولا سرج آنذاك لترى هي حال النبي ﷺ(٢).

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثر ذلك الوفد الذي قدم للنبي ﷺ، ولم يقل: «كلهم»، مع أنه لو قال لم يكن هذا مجافيًا للحال، إذ إن الحكم للغالب، ولكنه بيَّن أنه حكم غالب لا مطلق؛ إذ فيهم العقلاء، ولا يتحمَّل أحدٌ وزر غيره، كما أن عادة الناس أنهم لا ينادون أجمعين، وإنما ينادي بعضُهم.

والمقصود هنا هو العقل التأديبي، عقل الأدب وعقل التهذيب والذوق، ولعله قريب مما يسميه العلماء اليوم بـ«الذكاء الاجتماعي»، أو «الذكاء العاطفي» الذي يعني نجاح الإنسان في علاقته بالآخرين.

وبعض الناس قد يكون عبقريًّا، ولكنه يفتقد هذا النوع من الذَّكاء، فيخسر الناس، وكلما مدَّ حبل الوصال بأحد انقطع عند أول توتر وسوء فهم!

* ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾:

لو أنهم صبروا دون أن ينادوك وانتظروا خروجك إلى الصلاة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا في تحصيل ما جاؤوا من أجله؛ فإن من المجرَّب أنك حين تُكره إنسانًا على شيء أو تخاطبه وهو مشغول الذهن أو مكدود الخاطر، فإنك لا تحصل على مرادك.

---

(١) كما عند أبي داود (٤٤٨)، وأبي يعلى (٢٤٥٤، ٢٦٨٨، ٢٦٨٩)، وابن حبان (١٦١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٠- ١٣٠٠٣)، وأبي نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣١٣)، والبيهقي (٢/ ٦١٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «ما أُمرتُ بتشييد المساجد».

وصححه جماعة، واختلف في وصله وإرساله. ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٣/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ولابن حجر (١/ ٥٤٠)، و«كتاب الصلاة من شرح بلوغ المرام» (ح٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، ومسلم (٥١٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد ورد في بعض الروايات أن هؤلاء الذين نادوا الرسولَ ﷺ قد جاؤوا لإطلاق بعض أسراهم، فأطلقَ النبيُّ ﷺ بعضَهم ولم يُطلق الآخرين، فلو أنهم صبروا لربما أُطلق الجميع، ولكنهم استعجلوا[1].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خاتمة عظيمة؛ لأن المقام مقام أخلاق وتربية وتقوى، وليس مقام نكاية ولا وصم أو تعيير أو إلصاق عارٍ لا يزول، بل هو درس في التوقير ومعرفة أقدار الكبار، وتربية الأمة العربية حديثة الإيمان على معاني الأدب والاحترام والتقدير وفهم مراتب الناس.

وفي هذا تربية للمسلمين على سرعة الرجوع إلى الله، والاعتراف بالذنب، وحثٌّ على تقوية إيمانهم، والترقِّي في مدارج الكمال.

كما أن فيها تنبيهًا للمؤمنين السابقين أن يتعاملوا مع هؤلاء بالصبر؛ لأن بعضهم ربما تأخذه عليهم حَمِيَّة أو غضب، حيث رفعوا أصواتهم، فالرحمة هي أولى ما يُقدَّم في الدعوة، وقد قدَّمها الله تعالى على العلم في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾:

روى أحمد، وغيره عن الحارث بن ضرار الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه، وأقررتُ به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررتُ بها، وقلتُ: يا رسولَ الله، أَرْجِعُ إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمَن استجابَ لي جمعتُ زكاته، فيرسلُ إليَّ رسولُ الله ﷺ رسولًا لِإِبَّانِ كذا وكذا[2] ليأتيكَ ما جمعتُ من الزكاة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٠).

(٢) إبَّان الشيء: وقته.

فلما جمع الحارثُ الزكاةَ ممن استجابَ له، وبلغَ الإِبَّانَ الذي أراد رسولُ الله ﷺ أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ، فلم يأته، فظنَّ الحارثُ أنه قد حدثَ فيه سَخْطَةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله، فدعا بسَرَواتِ قومه[1]، فقال لهم: إن رسولَ الله ﷺ كان وقَّتَ لي وقتًا يُرسل إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْفُ، ولا أَرَى حبسَ رسوله إِلَّا من سَخْطَةٍ كانت، فانْطِلِقُوا فنأتيَ رسولَ الله ﷺ.

وبعثَ رسولُ الله ﷺ الوليدَ بنَ عُقبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحارث ليقبضَ ما كان عنده مما جمعَ من الزكاة، فلما أن سارَ الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريق، فَرِقَ، فرجعَ، فأتى رسولَ الله ﷺ، وقال: يا رسولَ الله، إن الحارثَ منعني الزكاةَ، وأرادَ قتلي. فضربَ رسولُ الله ﷺ البعثَ إلى الحارث، فأقبلَ الحارثُ بأصحابه إذ استقبلَ البعثَ وفصلَ من المدينة، لقيهم الحارثُ، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسولَ الله ﷺ كان بعثَ إليك الوليدَ بن عُقبةَ، فزعم أنك منعته الزكاةَ، وأردتَ قتلَه. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحقِّ، ما رأيتُه بتَّةً، ولا أتاني. فلما دخل الحارثُ على رسول الله ﷺ، قال: «منعتَ الزكاةَ، وأردتَ قتلَ رسولي؟!». قال: لا، والذي بعثك بالحقِّ، ما رأيتُه، ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبسَ عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ، خشيتُ أن تكونَ كانت سَخْطَةً من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2].

وهل الفاسق هو الوليد بن عُقبة؟ معظم الروايات ترجِّح لذلك، وحكاه

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٤٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧١).

بعضهم إجماعًا، ولا يصح، والأسانيد ليست قوية على طريقة المحدِّثين، وكلمة ﴿فَاسِقٌۢ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم، ويدخل فيها ما كان سببًا للنزول دخولًا أوليًّا، والله أعلم[١].

ويحتمل أن يكون التوجيه للوليد بن عُقبة بأن لا يقبل خبرًا من أحد غير متحقِّق، إذ ربما قال له قائل: إن هؤلاء القوم يعدُّون لك العُدَّة. وفي سبب نزول هذه الآية أقوال أخرى[٢].

والمقصود هنا: مَن ظاهره عدم العدالة، وهو ضد: الصادق[٣].

وعلى المسلم أن يتمهَّل قبل أن ينقل الأخبار، خاصة عندما يتعلَّق الخبر بشيء مهم، وفي الحديث: «كفى بالمَرء كذبًا أن يحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٩)، وابن أبي عاصم (٢٣٥٣)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٦٨) (٤٥٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٩٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٧٨٣) (٢٠٨١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٣٩١).

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٣٢- ٣٣٤)، و«الإصابة» (٢/ ٣٦٣)، (١١/ ٣٤٠)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٥٤٥- ٥٤٩)، و«لباب النقول» (ص١٨٠)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ٩١٧- ٩١٩)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٢٧٢- ٢٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٠٨٨).

(٢) ينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب»، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٣)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٠٠)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢)، وابن حبان (٣٠)، والحاكم (١/ ١١٢)، وفي «المدخل إلى الصحيح» (ص١٠٨)، والبيهقي في «الآداب» (٢٩٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٣١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ورُوي مرسلًا. أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٤٩)، ومسلم في «مقدمة صحيحه»، وأبو داود، والبزار (٨٢٠١).

ورجَّح المرسل غير واحد. ينظر: «غرر الفوائد المجموعة» للرشيد العطار (ص٣٠٩- ٣١١)، و«الإلزامات والتتبع» للدارقطني (ص١٣٠)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٣١٧)، (١٠/ ٢٧٥- ٢٧٦)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان» (ص٤١)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ٢٧٢)، و«الأذكار» (ص٥٨٣)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٠٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٢٥)، و«أحاديث ومرويات في الميزان» لمحمد عمرو عبد اللطيف (ص٣٨- ٥٣- حديث الفينة).

والشائعات تكثر ويتكرر سماعها، حتى يميل المرء بطبعه إلى تصديقها أو اعتقاد أن لها أصلًا، ومع توافر وسائل الاتصال يسهل التناقل جدًّا، ويصبح باستطاعة أي شخص يملك حسابًا في وسائل التواصل الاجتماعي أن ينال خصمه بالإيذاء والافتراء عليه بأغاليط وأكاذيب، يصدِّقها السُّذَّج، ويروِّجها المُغْرِضون[1].

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: وفي قراءة: ﴿فَتَثَبَّتُوٓاْ﴾، وكلاهما قراءة سَبْعية[2]، والمعنى: التحقق من صدق الأخبار قبل نقلها واعتمادها[3].

وهذه هي الطريقة الصحيحة لنشر الوعي الإعلامي الممحَّص، وحصار الشائعات، وحفظ الأعراض، وإسكات الأشرار المُغْرضين، وحين يشيع هذا الأدب الجميل يتوارى المُغرِضون والمروِّجون والأفَّاكون؛ حرصًا على سمعتهم، وخوفًا من افتضاحهم.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي: لئلا تُصيبوا[4].

﴿قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: تنسبوا خبرًا لقوم بغير علم ودون تحقيق وتوثيق[5].

﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ بعدما تنكشف الحقيقة، ويُعلم أن الخبر لم يكن صحيحًا، والمؤمن يقع منه الخطأ ثم يندم عليه، فـ«الندم توبة»[6]، وهو

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة التغابن»: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾.

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٢٣٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٥١، ٣٧٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٧٩).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص١٢٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٣/ ١٧٣- ١٧٤)، و«حجة القراءات» (ص٢٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٩٦)، والمصادر السابقة.

(٦) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الطيالسي (٣٨٠)، وأحمد (٣٥٦٨، ٤٠١٢)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وابن حبان (٦١٢، ٦١٤)، والحاكم (٤/ ٢٤٣).

علامة إيمان، ويقظة ضمير، ومراجعة ومحاسبة للنفس، والندم ينبغي ألَّا يفضي إلى اليأس.

* ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾:

تذكير لهم بهذه النعمة العظيمة، نعمة وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، يعلِّمهم، ويؤدِّبهم، ويدعو لهم، ويصلِّي بهم، ويستغفر لهم.

وهو تذكير ينطوي على الإشارة اللَّطيفة إلى اقتراب أجله؛ فقد نزلت الآية في السنة التاسعة من الهجرة، وبقي النبيُّ ﷺ بعدها نحو سنة.

وهي تشبه من هذا الوجه «سورة النصر»: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾، وما فهمه منها عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وفي الآية تذكير بأن الوحي موجود، وأن بعض ما تقترحونه قد يتحول إلى واجب أو إلزام[2]، ولذلك قال ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أعظمُ المسلمينَ في المسلمينَ جُرْمًا: مَن سألَ عن أمر لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ على الناس من أجل مسألَتِهِ**»[3]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فلا تستعجلوا باقتراح الأقوال، وتذكَّروا ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: **العَنَت**: المشقة والصعوبة[4]، وقد يُطلق على الإثم[5]، فلو أطاعكم ﷺ في كثير من الأمور لأعْنتكم، ومن صفته أنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النصر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٦١)، و«تاج العروس» (٥/ ١٢) «ع ن ت»، والمصادر الآتية.

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٦٩٩٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤).

مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

والناس تتفاوت طاقتهم، ويختلف احتمالهم، فرفع الله المشقة والعَنَت، وراعت الشريعة الضعفاء، فكان التيسير ورفع الحرج من مقاصد التشريع، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٧٧]، فلو أطاعكم في كثير من الأمور التي تتمنَّونها أو تقترحونها بسبب عجلتكم أو حماسكم أو عجزكم عن فهم طبائع الناس وأعذارهم؛ لوقع لكم بذلك العَنَت.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ بفضله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: دعاكم إلى حبِّه وأغراكم به ببيان آثاره العظيمة في الدنيا من الحياة الطيبة، وفي الآخرة من الجنة والرضوان(١)، ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأصبحتم تحبون الإيمان، كما قال ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهُما، ومَن أحبَّ عبدًا لا يحبُّهُ إلَّا لله عَزَّ وَجَلَّ، ومَن يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ منه، كما يكرهُ أن يُلْقَى في النار»(٢).

وأكثر الناس لا يقع لهم الإيمان دفعة واحدة، بل هو غرس ينمو ويثمر مع الوقت ومع السقي والتعاهد والحماية من عوامل الذُّبول والموت.

والتدرج مهم للترقِّي الصحيح الذي لا يخضع لردود الأفعال والعواطف المؤقتة، والشبهات مع مرور الأيام تنجلي، والطاعات تسهل على العبد؛ لأنه تعوَّد عليها، كالصلوات الخمس، والصوم، حتى لو أخل بها لشعر بنقص؛ لأنها أصبحت جزءًا من حياته، فحبَّب اللهُ سبحانه الإيمان للمؤمنين، وهذا عطاء عظيم أن تكون نفس المرء تحب الخير والطاعة وتكره الشر والمعصية، ولو توفَّر هذا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في المؤمن العاكف على معصية لسهل انتقاله عنها وإفلاته منها.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: وهذه ثلاثة أشياء متداخلة؛ الكفر والفُسوق والعصيان، وهي تجتمع في الفعل الواحد، فيكون كفرًا وفُسوقًا ومعصية، كما هو واضح، ولكن حين تجتمع الألفاظ الثلاثة في سياق واحد- كما هنا- فلا بد أن يكون لكل لفظ معنى خاص به:

فالمقصود بالكفر: الخروج من الإسلام، والفسوق: ارتكاب الكبائر، من الكذب والسرقة والزِّنا والفواحش التي يصبح المرء فاسقًا إذا أصرَّ عليها ولم يتب منها، وأما العصيان: فلعله ما دون ذلك من الصغائر[(١)].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وحبَّب إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، فصاروا هم الراشدين، وكأن الرُّشد صار صفة راسخة في أشخاصهم وسلوكهم وأدبهم، وهذا اللفظ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع بلفظه، فكانت أهميته من ندرته[(٢)].

* ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾:

فهذه الخصائص التي أورثتهم الرُّشد هي فضل الله تعالى تفضَّل عليهم بها، وهي نعمة تستوجب الشكر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يعلم ما انطوت عليه قلوبهم من القابلية والتأهُّل للتقوى، فرزقهم ذلك[(٣)]، وإن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ أطيبها وخيرها، فاختاره للنبوة، ونظر في قلوب الناس، فوجد قلوب أصحابه

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٢٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٧١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٠١)، والمصادر السابقة.

أقرب القلوب إلى الطاعة والحقِّ، فاختارهم لصحبته، وصاروا هم أتباعه ووزراءه وورثة شريعته ونقلة وحيه والخلفاء من بعده[1].

* ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾:

قصة هذا الآية- كما في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ. فانطلقَ إليه، وركب حمارًا، وانطلقَ المسلمونَ، وهي أرضٌ سَبَخَةٌ، فلما أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليك عني، فوالله، لقد آذاني نَتْنُ حمارك. فقال رجلٌ من الأنصار: والله، لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. فغضبَ لعبد الله رجلٌ من قومه، فغضبَ لكل واحد منهما أصحابُه، فكان بينهم ضرب بالجَريد وبالأيدي وبالنِّعال.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا...﴾[2].

وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا هو سبب النزول[3].

والحق أن القصة متقدِّمة في أول الهجرة، والسورة متأخرة، إلا أن تكون هذه الآية نزلت قديمًا، وأمر النبي ﷺ بوضعها في موضعها في السورة.

والأقرب أن الآية نزلت في خلافات وقعت بين الأَوْس والخَزْرج، وكان بينهم

---

(١) كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الطيالسي (٢٤٣)، وأحمد (٣٦٠٠)، والبزار (١٧٠٢)، والآجري في «الشريعة» (١١٤٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٢٢).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «الفروسية» لابن القيم (ص٢٩٨- ٢٩٩)، و«العلل المتناهية» (١/ ٢٨٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٥٣٢، ٥٣٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٩١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ١٥٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٢- ٣٩٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٥)، والمصادر السابقة والآتية.

ثارات في الجاهلية، وكانت تثور حتى يتضاربوا بالعصي والحجارة وغيرها[1].

والطائفة هي: الجماعة القليلة[2]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، أي: مجموعة قليلة[3]، فهذه إشارة إلى تقليل العدد.

ووصفهم بالإيمان وإن اقتتلوا واختلفوا فيما بينهم، فهذا لا ينفي صفة الإيمان عنهم، فضلًا عن الإسلام؛ وأن المرء يظل مسلمًا حتى لو ارتكب بعض المعاصي والذنوب أو الكبائر، إلا أن يشرك بربه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾: وهذا يؤكِّد أن الاقتتال حدث في دائرة محدودة قليلة العدد، ولذا أمر جمهورَ المسلمين وعامتهم بالسَّعْي في الصلح بينهم، وليس في الانضمام إليهم وتكثير عددهم.

ومن معنى الصلح: أن يذهب أفراد القبيلة إلى المجموعة المنتسبة إليهم فيسكِّنوهم ويحذِّروهم ويمنعوهم من المضي إلى العناد والقتال، ويحذِّروهم من مغبته؛ لئلا يظنوا أنهم يمثِّلون القبيلة بفعلهم، ومن هنا يتعيَّن وجود رؤوس وأعيان ووجهاء مهمتهم الإصلاح.

وفي زماننا ينبغي أن تقوم مؤسَّسات مختصَّة لرأب الصَّدْع بين المختلفين، وبخاصة ذوي القُربى، فالمهمة الأولى هي الصلح، بوسائط الصلح وأدواته من الحوار والاحترام والصبر، ومع الصبر يتحقق الإصلاح بإذن الله، خاصة مع وجود الصدق في الصلح، قال الله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٠)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٤)، و«فتح الباري» (٥/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٨)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (٢/ ٩٢٠- ٩٢٤)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣/ ٢٧٨- ٢٨٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٩٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٣١- ٥٣٢)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٢٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٧٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩١٢)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٤١٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٤٩).

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ بأن رفضت الصلح أو نقضته بعد تمامه، أو اعتدت على الطائفة الأخرى(١).

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: الفرقة الباغية التي باشرت البغي، ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو الصلح، ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ ورجعت عن بغيها ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾: فذكر الصلح أولًا، ثم أعاده بعد بغي إحداهما على الأخرى وقرنه بالعدل؛ إشارة إلى أن الإصلاح بعد البغي يلزم منه ضمان كل طائفة ما أتلفت على الأخرى، وأن يحكم في ذلك بالعدل والقسط والميزان، وذكر العدل يعني أن بغي إحدى الطائفتين ثم رجوعها لا يعني أن تُظلم ويُجار عليها بحجة ما جرى منها، ما دامت فاءت إلى الحق وقبلت الصلح(٢).

وكل بلد بحاجة إلى الصلح العادل، خاصة البلدان المكونة من قبائل متنوعة وطوائف دينية أو مذهبية أو تيارات فكرية، فتحتاج إلى المصالحة فيما بينها؛ وأدًا لنوازع الطائفية والحروب الأهلية.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: فليس الأمر بالعدل محصورًا في طائفتين من المؤمنين اقتتلوا، وإنما أمرنا بالإقساط مطلقًا، فعلى المسلم أن يكون مُقْسِطًا؛ قال النبي ﷺ: «**إن المُقسِطينَ عند الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن عَزَّوَجَلَّ- وكلتا يديه يمينٌ-: الذين يَعْدِلُونَ في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»(٣).

وفي الآية دعوة إلى العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض؛ حتى العدل بين الأولاد: «**فاتَّقُوا اللهَ، واعْدِلُوا بين أولادكم**»(٤). وبعض الناس لا يبالي أن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٥٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٠١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٦، ٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُعطي أبناءه الذكور ما لا يُعطي عشر معشاره لبناته، ولا شك أن هذا من الجَوْر المحرَّم، وهو من كبائر الذنوب.

والعدل قيمة مطلقة، لا استثناء فيها، وليس في العدل صورة تُذَم، لذا يجب العدل حتى مع الأعداء والمخالفين، فبالعدل قامت السماوات والأرض.

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: توكيد وتكريس لمعنى الإخوة الإيمانية؛ ليعم كلَّ مَن تحقَّق له وصف الإيمان، سواءً كان عربيًّا أو أعجميًّا، أو تقيًّا أو مقصِّرًا، كما تشير إليه السورة لاحقًا.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾، وفي قراءة: ﴿إِخْوَتِكُمْ ۚ﴾[1]. أي: بين الفريقين[2]، والمعنى عام، حتى لو كانت الخصومة بين اثنين من الناس، أو بين إخوة أشقاء أو أصدقاء، فالمطلوب السعي في الإصلاح بينهم، وتضييق الفجوة والقطيعة[3].

ومن اللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، فذكر واو الجماعة، ثم قال ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، ولم يقل: «فأصلحوا بينهم».

والسر في ذلك: أن الجميع يباشرون القتال، أما الصلح فلا يتم بين آحاد الأفراد، وإنما يتم بين الطائفتين من خلال القادة والزعماء الذين يديرون عملية الصلح[4].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٠٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ٨٣).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٠٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٧٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٢٠).

(٤) ينظر: «النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام» (٤/ ١٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٦)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٢٣)، والمصادر السابقة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾: بسبب رغبتكم في الصلح، وتغليب أمر الإيمان الذي يجمع قلوبكم ويقوِّي شوكتكم على عصبية القبيلة والحزب والطائفة والمنطقة.

إن هذه الآيات الكريمات أصل في التعامل مع الخلافات السياسية التي ينجم عنها صراع عسكري بين دولتين أو جماعتين من المسلمين، وضرورة تدخل الأمة المسلمة، لا بنصرة فريق على آخر لمجرد المصالح والأجندات الخاصة، بل لحماية السِّلْم الاجتماعي والاستقرار والأمن، وقطع دابر الحروب والنزاعات بين الأقاليم والقبائل والأحزاب، وتوحيد وجهتها صوب المصالح العامة للوطن، **وهي تنطوي على ثلاث دعوات:**

الأولى: الإصلاح، وهو أساس التدخل بين المتقاتلين بالحجة والإقناع، ومعرفة رؤية كل فريق، وإزالة اللَّبْس، وضمان حسن النية بينهما.

الثانية: قتال الفئة الباغية، لا بقصد إبادتها وإفنائها وقطع دابرها، بل لكف بغيها فحسب.

الثالثة: الإصلاح بالعدل بعد فيئة الفئة الباغية والقِسْط وتضامن الحقوق بينهما.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾:

السُّخْرية هي: الازدراء والتنقص لأحد، إما بماله أو بشكله أو بعشيرته أو بقبيلته أو بلونه أو بجنسه(١).

والقوم هنا هم الرجال، كما قال الشاعر(٢):

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص١٧).

وما أدري وسَوفَ إخالُ أَدري أَقَــومٌ آلُ حِـصْـنٍ أم نِـسـاءُ؟

واللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿لَايَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾، والعادة أن السُّخرية تكون من فرد واحد، في حين أن الاستعمال القرآني فيه الإشارة إلى أن السُّخرية ظاهرة اجتماعية مرتبطة بالأجناس والأقوام والشعوب والأمم، وليس مجرد الأفراد!

فجاء الإسلام بهذه القيم الجديدة المعبِّرة عن العدالة واحترام الإنسان بغض النظر عن جنسه ولونه.

ويدخل في النهي: ما تتوارثه الأجيال عن ازدراء أهل بلد ووصمهم بالتحقير، وهو شعور متبادل غالبًا، فعوضًا عن تبادل التقدير والتكريم والاحترام بين شعوب العرب والمسلمين والعالم يتناقل الأحفاد عن الأجداد مشاعر التنقص والسُّخرية والوصم بالعيب كالبخل أو الجبن أو رداءة العرض أو رداءة الأصل أو النفاق أو غيره!

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾: و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله واجبة[1]، أي: سيكون المسخور منه خيرًا من الساخر، أما بالنسبة للتاريخ فهذا مؤكَّد، أي مَن نزلت فيهم هذه الآيات فإنهم حُدثاء عهد بإسلام سخروا من السابقين الأولين؛ لأنهم فقراء أو ضعفاء أو غير عرب، حتى إنهم كانوا يأنفون من التعامل معهم، وهذا يجعل المسلم يحذر من مغبة السُّخرية بالآخرين، خاصة الضعفاء من العمال والخدم وغيرهم.

مـا بيننا عــربٌ ولا عجمٌ مـهـلًا يـد التقوى هـي العُليا
خَلُّوا خيوطَ العنكبوت لمَن هـم كـالـذبـاب تـطـايـروا عميا

وكذلك في الموقف المنهي عنه، فالساخر آثم بسُخريته، والمسخور منه مأجور بصمته وتركه لهذه المعصية، ومأجور إن علم وصبر وآثر ما عند الله، وهو

---

(١) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١١٢)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٣٠)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٨)، و«الإتقان» (٢/ ٢٤١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٦٢٥).

بهذا خير من الساخر.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾: والنساء يدخلن في مسمى القوم في الأصل، ولكن لما ذكرهن على سبيل التخصيص صار الظاهر عدم دخولهن، لإفرادهن بالذكر[١].

وقد ورد أن بعض أمهات المؤمنين سخرت من صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: إنها يهودية[٢].

وورد في رواية أخرى وصف إحدى أزواج النبي ﷺ لضرتها بأنها قصيرة[٣]!

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: فلمز أخيك المسلم هو لمز لنفسك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾[٤] [الهمزة: ١].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٨- ١٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٦).

(٢) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغَ صفيةَ أن حفصةَ قالت: بنتُ يهوديٍّ. فبكت، فدخلَ عليها النبيُّ ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يُبْكيكِ؟». فقالت: قالت لي حفصةُ: إني بنتُ يهوديٍّ. فقال النبيُّ ﷺ: «إنك لابنةُ نبيٍّ، وإن عمَّك لنبيٌّ، وإنك لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليك؟». ثم قال: «اتقي الله يا حفصةُ».

أخرجه أحمد (١٢٣٩٢)، وعبد بن حميد (١٢٤٨)، والترمذي (٣٨٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٧)، وابن حبان (٧٢١١)، والضياء (٥/ ١٧٢- ١٧٥) (١٧٩٣- ١٧٩٦).

وأخرج أحمد (٢٥٠٠٢)، وأبو داود (٤٦٠٢)، وابن ماجه (١٩٧٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نحوه، وفيه أن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي مَن قالت ذلك. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠٥).

(٣) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبيِّ ﷺ: حَسْبُكَ من صفيةَ كذا وكذا، تعني: قصيرة. فقال ﷺ: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمَزَجَتْه». أي: لو خُلِطت بماء البحر لغيَّرته وأفسدته.

أخرجه أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣/ ١١٣)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢٠٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٣٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٥٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٤٧).

وفي الهَمْز واللَّمْز كلام كثير للمفسرين والشراح وعلماء اللغة[١]، خلاصته أنه التعبير عن التنقص والازدراء لشخص، إما بكلمات صريحة، أو كلمات خفيَّة، أو بالإشارة بالعين أو باللِّسان واليد.

وهو منهي عنه، سواء كان في وجهه، أو في غيبته، أو لكونه لا يعرف اللغة؛ فليس من المروءة والأخلاق أن ترسل لسانك بالسُّخْرية ممن لا يفهم لغتك.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾: التنابز: هو التعيير، كما قال الأول[٢]:

أُكَنِّيه حين أُناديه لأُكْرِمَهُ ... ولا أُلَقِّبُهُ، والسَّوْأةُ اللَّقبا

واللَّقب هو ما أَشْعَر بمدح أو ذم، فإن أَشْعَر بمدح فلا إشكال فيه، كاللَّقب بوصف يدل على الشجاعة والكرم ونحو ذلك، وإن أَشْعَر بتنقص فلا يجوز، وكانوا في المدينة يفعلون ذلك أول الإسلام، ولما جاء النبيُّ ﷺ كان كل واحد له اسمان أو ثلاثة، فربما دعاه النبيُّ ﷺ باسم فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يكره أن يُدْعَى به. فنزلت الآية[٣].

واليوم صار التنابز بالألقاب شعارًا إعلاميًّا، وتهمًا جاهزة، وتصنيفًا عشوائيًّا، ولمزًا بالانتساب إلى مذهب أو جماعة أو تيار بعلم وبغير علم، واستدعى هذا ولوج العامة والدَّهْماء فيه دون بصيرة، وتحوَّل إلى وشاية وتحريض وحرمان من حقوق الانتساب للوطن أو للمجموعة.. ولا شيء يداوي هذا كتوجيه القرآن بتجنب السُّخرية والغمز والهمز وسوء الظن.

وورد عن جماعة من السلف كعطاء ابن أبي رباح أنه قال في الآية: هي أن يقول الإنسان: يا كافر، يا فاجر، يا فاسق[٤].

---

(١) وللفرق بين الهَمْز واللَّمز ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٢) ينظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص٨٠٥)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٩/ ١٤٠) منسوبًا إلى بعض الفزاريين.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٤٩)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٧٦)، والمصادر السابقة والآتية.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: فأسوأ ما يكون الأمر حينما تكون الألقاب تنقصًا يُقصد به الحط من قدر أحد، أو إقصاء أحد، أو الحُكم عليه بفسوق أو كفر أو فجور أو كذب، ويجتمع الشر كله حينما يجتمع مع التنابز تكفير وسوء ظن وجهل، فهي ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

فيحذرنا من أن نقع في مثل التنابز بالألقاب والازدراء، فنصبح مستحقِّين للفسوق بسببه بعدما مَنَّ تعالى علينا بالإيمان؛ لذا استهل الآية بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وختمها بـ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ أي: فأنتم مؤمنون بالله ورسوله، فحاذروا أن يتحوَّل وصف الإيمان إلى وصف الفسوق بسبب السخرية والتنابز[(١)].

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: دعاهم إلى التوبة؛ مما يدل على أنه كانت تقع من بعضهم هذه الزلات، وتوعَّد مَن لم يتب بأنه من الظالمين؛ فهو ظالم لنفسه بالمعصية، وظالم لغيره بالتعيير[(٢)].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾:

هذا النداء الخامس في السورة العظيمة بوصف الإيمان، و﴿ٱلظَّنِّ﴾ هو: التوقع المبني على غير حجة ولا يقين ولا معرفة ولا أدلة[(٣)]، وقال النبيُّ ﷺ: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسُوا، ولا تحسَّسُوا**»[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٣٩)، و«النهاية» (٣/ ١٦٣)، و«لسان العرب» (٣/ ٢٧٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٥٩٤)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٣٦٥) «ظ ن ن».

(٤) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأمر بالاجتناب هو نهي عن الظَّنِّ وعن اتباع الظَّنِّ أو الحديث عنه أو تحقيقه لغير موجب، وقد نهى عن كثير منه، ولم ينه عنه مطلقًا؛ مما يدل على أن بعض الظَّنِّ لا يُجتنب، بل قد يكون واجبًا، مثل حسن الظَّنِّ بالله سبحانه، والظَّنِّ الحسن بالمؤمنين، فهذا ظَنٌّ، لكنه لا يُجتنب؛ لأنه ظَنٌّ حسن.

وفي الشريعة أبواب كثيرة يُؤخذ فيها بغلبة الظَّنِّ، ويُؤخذ فيها بالأدلة الظنيَّة، فهذا مما يُعمل به؛ فإن اليقين القاطع في كثير من مسائل الحياة مما لا يتيسر، ولا يزال الناس تعرض لهم الاحتمالات والترددات، ولو لم يبن شيء إلا على يقين لفسدت الحياة وتوتَّرت العلاقات؛ ولذا يُعمل بالظن الغالب في سائر التعاملات، ما لم يعارضه ما هو أقوى منه، وقد يُؤخذ بالظَّنِّ في حالات، تسهيلًا على العباد، وتحقيقًا للمصالح.

وثمة ظَنٌّ محرم، وهو ظَنُّ السوء المبني على غير دليل.

وثمة ظَنٌّ ينبغي التوقف فيه والتأنِّي، وهو ما كان مبنيًّا على أدلة ضعيفة.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾: أمر تعالى باجتناب كثير من الظَّنِّ؛ سدًّا لذريعة سوء الظَّنِّ المحذور هنا، وجاء التعليل بأن ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ولم يقل بأن كثيرًا من الظَّنِّ إثمٌ، وهذا يدل على أن بعض الظَّنِّ المنهي عنه يوافق الواقع، ومع هذا نهى عنه؛ سدًّا لذريعة الفساد والتسرع والاتهام بغير بينة(١).

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾: والتجسُّس هو ثمرة الظَّنِّ السوء، فالغالب أن المرء إذا ظَنَّ بدأ يتجسَّس، ولذلك جاء في الحديث- إن صح-: «**إذا ظننْتَ فلا تُحقِّق**»(٢). أي:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٥٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٢)، والمحاملي في «أماليه» (٣٤٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٢٧)، وأبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» (١٥٥، ٢٤٢) من حديث حارثة بن النعمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «أنيس الساري في تخريج فتح الباري» (١/ ٣٠٠- ٣٠٢).

لا تبحث لتأكيد ظنك.

إنها دعوة للأفراد، وللقيادات والحكومات أن تحفظ أعراض الناس وأسرارهم وعوراتهم وخاصة حياتهم، ولا تُنتهك تحت ذرائع الاتهام الناجم عن سوء ظن، أو تفسير فاسد لموقف أو سلوك، كما روى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ أنه قال له: «إنك إن اتَّبعْتَ عوراتِ الناس أفسدْتَهُمْ، أو كِدْتَ أن تُفْسِدَهُم»(١).

وحكومات العالم اليوم وشركاته صنعت أجهزة تحصي على الناس تحركاتهم وهمهماتهم وكلامهم، وهؤلاء المخبرون الباحثون عن الأسرار ينشأ في نفوسهم سوء الظَّنِّ بالناس، وتتحوَّل العلاقة إلى علاقة موتورة مبناها على الدسائس والنمائم والوساوس، وتصبح سببًا في التوتر وسوء العلاقة.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: والغيبة ثمرة من ظَنِّ السوء في الغالب، والنبيُّ ﷺ قال: «أتدرونَ ما الغيبةُ؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «ذكرُكَ أخاكَ بما يكرهُ». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه مَا تقولُ، فقد اغتبتهُ، وإن لم يكنْ فيه فقد بهتَّهُ»(٢).

وهي من أسوأ آفات اللِّسان، واعتياد المرء عليها يجعل مجلسه لا يطيب إلا بها، ويجرِّئ جلسائه عليها، وقد يخرجها مخرَج الملاحظة والنقد البريء، أو يقدِّم لها ثناءً أجوفَ غير ذي معنى، أو يُبهم اسم المذموم، ولكنه يحدِّده بما يعلم السامعون جميعًا بمقصوده.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: فهذا تبشيع للفعل، فمَن الذي يحب أن يُؤتى له بلحم أخيه من أمه وأبيه ميتًا فيأكل لحمه؟

وفي المثال توظيف للخيال للتنفير من الذنب، فهذا لحم يقدَّم لك وأنت جائع تنظر وتهم وتتناول منه، فإذا قيل لك: إنه لحم غير مذكًّى كرهته. ولو قيل:

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨)، وأبو يعلى (٧٣٨٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٢٦)، وابن حبان (٥٧٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٧٩) (٨٩٠)، والبيهقي (٨/ ٥٧٨)، وفي «شعب الإيمان» (٩٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هو لحم آدمي. لكان أشد كرهًا، فكيف إن كان لحم أخيك الميت؟

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بمجرد ما سمعتم هذا الوصف كرهتم الأكل، وكرهتم المثل والصورة التي تتخيَّلونها، فهذه هي حقيقة الغيبة[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأن الغيبة والتنابز بالألقاب وسوء الظَّنِّ والتجسُّس نقيض التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمَن تاب وأناب وكفَّ نفسه عن هذه المنهيات المذكورة في الآية، وحتى حين يكون المؤمن مبتلًى بخطيئة يتوب منها ثم يعود إليها فهو يتذكَّر أن الله ﴿تَوَّابٌ﴾ أي: كثير التوبة على العاصين، وهي صيغة مبالغة من: «تائب»، فالمكلَّف خطَّاء، أي: كثير الخطأ، والله ﴿تَوَّابٌ﴾ أي: كثير التَّوْب، واسع المغفرة، وهو ﴿رَحِيمٌ﴾، فالعفو أحب إليه من المؤاخذة[٢].

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾:

انتقل الخطاب من مناداة المؤمنين إلى مناداة الناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وهو خطاب مدني متصل بما سلف، فالله يخاطب الناس كلهم- بما فيهم المؤمنين- بالتذكير بأجمل الخُلُق؛ تأكيدًا على قيمة الفضل بالعمل والتقوى، وليس بالنَّسَب أو الشكل أو المظهر أو غيره، كما قيل[٣]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٠٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ٥٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٥)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٥٠)، و«تذكرة الخواص» لسبط ابن الجوزي (ص٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٢)، و«نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» لجمال الدين الحبيشي الوصابي (ص٧١) منسوبًا إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُنسب أيضًا إلى الشافعي وغيره. ينظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ١٥٧)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» لأبي بكر البقاعي (٦/ ١٢٧).

النَّاسُ من جِهَةِ التَّمثيلِ أَكْفاءُ ... أَبُـوهُـمُ آدمٌ والأمُّ حَـوَّاءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مُشاكِلَةٌ ... وأَعْظُمٌ خُلِقَتْ فيهمْ وأعضاءُ
فإنْ يَكُنْ لهم من أَصْلِهِمْ حَسَبٌ ... يُـفـاخِـرُونَ به فالطينُ والماءُ
ما الفضلُ إلَّا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدَى لمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وقَدْرُ كُلِّ امرئٍ ما كان يُحْسِنُهُ ... وللرجال على الأفعال أسماءُ
وضِدُّ كُلِّ امرئٍ ما كان يَجْهَلُهُ ... والجاهلونَ لأهلِ العلم أعداءُ

ويمكن أن يكون المقصود بالذكر والأنثى: الأم والأب، فكل إنسان له أم وأب، خُلق من التقائهما من ماء الرجل وبُويضة المرأة.

ويمكن أن يكون المقصود: آدم وحواء؛ فهما الأصل الأول للناس، والمعنيان متداخلان[1].

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾: المقصود بالشعوب: غير العرب، وبالقبائل: العرب، أو الشعوب بالمعنى الأوسع، فتستوعب القبائل وغيرها، والقبائل تتفرع إلى بطون وأفخاذ[2].

والجَعْل معناه: أن الله تعالى ألهم الناس ذلك، وليس موجودًا في أصل خلقتهم، فالناس سواسية، كما ألهمهم تنظيم الأسبوع ثم الشهر ثم السنة، من أجل انتظام أمر الحياة، فهذه الأشياء جعلها بحكمته من أجل التواصل والتعارف وصلة الأرحام والتعاون الذي يساعد على انتظام الحياة والعلاقات وانضباطها وسهولتها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣١٢)، والمصادر السابقة.

هي في الأصل معان إيجابية حوَّلها بعض الناس إلى عنصرية وسب وشتم ومفاخرة ومباهاة وتوارث أحقاد قديمة ومعان مرذولة، ونسوا الأصل الواحد، وفي الحديث: «الناسُ بنو آدمَ، وآدمُ من تراب»[١]. وقال ﷺ في حَجَّة الوداع: «يا أيها الناسُ، أَلَا إن ربَّكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، أَلَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتقوى»[٢].

فالفضل هو بالتقوى، وليس بسلسلة النسب والآباء والأجداد.

والتعارف عند كثير من المفسرين معناه أن يعرف بعضُهم بعضًا في النَّسب[٣]، وهو معنى صحيح أولوي.

ويدخل في التعارف: أن تتواصلوا فيما بينكم بالمعروف والبِرِّ والإقساط، فتصل القريب وغير القريب، مع كون القريب أولى؛ فتأخذ بالمعروف وتُعطي بالمعروف، فالمعنى: لتتبادلوا وتتعاطوا المعروف بينكم، ويكون هو أساس علاقة بعضكم ببعض.

ومن معاني التعارف: تبادل المعرفة والعلم، ولذلك كان العلماء خليطًا من العرب والموالي والفرس والعجم وغيرهم، وكان أصحاب النبي ﷺ فيهم: سلمان الفارسي، وبلال الحبشي.. وكان هؤلاء أفضل من كثير من العرب الذين تأخر إسلامهم، أو كان في إسلامهم نقص وفتور وضعف.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٣٦، ١٠٧٨١)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥، ٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان (٣٨٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٩، ٢٨٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، والحارث (٥١- بغية) من حديث رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أيضًا (٢١٤٠٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦١).

إن الحرب على العنصرية المتغلغلة في أعماق النفس وأعماق الثقافة ليست سهلة، ولا تزال في الناس إلى يوم القيامة، وهي تحتاج إلى أن نتعاهد أنفسنا منها، ونتسامى عن نظر العصبية المبنية على غير عمل الإنسان وسلوكه.

وهذه الآية دليل على عدم اعتبار كفاءة النسب في الزواج، كما قال ابن كثير[(١)]، والقول بعدم اعتبار الكفاءة هو مذهب جماعة من العلماء، كأبي الحسن الكَرْخي، وسفيان الثَّوْري، والحسن البصري، وابن حزم الظاهري، وهو رواية عن الإمام أحمد، وهو قول عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم[(٢)].

والمؤسف أن موضوع الكفاءة في النكاح صار سببًا للصراع وسفك الدماء وتفرقة الأسر بعد اجتماعها!

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: فالكرم بالتقوى، وليس بالنسب والحسب والجاه، والمقصود به الشرف والرِّفعة، فأتقى الناس هو أكرمهم[(٣)].

والسورة كلها تدور حول التقوى، أن يكون في قلب الإنسان تقوى الله، بحيث لا يرتكب المحرمات، ولا يترك الواجبات، وإذا حدث منه خطأ أسرع بالتوبة، ولم يُصِرَّ على الذنب وهو يعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: يعلم مَن يستحق الكرامة، ويعلم أهل التقوى وأهل المغفرة.

* ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

نزلت هذه الآية في الأعراب الذين أتوا المدينة من بني أَسَد بن خُزيمة،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (٢/ ٣١٧)، و«المبسوط» (٥/ ٢١)، و«التمهيد» (١٩/ ١٦٢- ١٦٨)، و«مغني المحتاج» (٣/ ١٦٥)، و«المغني» (٩/ ٣٨٧)، و«المحلى» (١٠/ ٢٤)، و«الإنصاف» (٨/ ١٠٨)، و«فتح الباري» (٩/ ١٣٢)، و«سبل السلام» (٣/ ١٠٠٧)، و«السيل الجرار» (٢/ ٢٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٥).

بعد أن أصابهم القَحْط والجفاف، فقدموا المدينة برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأغلوا الأسعار، وملؤوا الأسماع بالكلام الذي لا ترشد إليه الآداب ولا تقبله الأذواق، وكانوا يمنُّون بإسلامهم على الرسول ﷺ؛ ويقولون: آمنا بك من دون قتال، والناس لم يؤمنوا لك حتى قاتلوك، ونحن أتيناك بأنفسنا وأهلينا. وهم حدثاء عهد بإسلام، ولم يأتوا المدينة إلا بعدما استقر أمر الرسالة ودانت العرب وعرف الكافة أن الدائرة على الكافرين والمعاندين(١).

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ فهو عليم بما في نفوسكم.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾: لم يقل: «ولكن أسلمتم»؛ لأن الله لا يريد أن يشهد لهم بالإسلام، وإنما يريد أن يلقِّنهم ما كان واجبًا عليهم أن يقولوه؛ لأن الإسلام الظاهري حدث حيث أنهم استسلموا والتزموا بالواجبات الشرعية الظاهرة كالصلاة ونحوها، ولكن لم يتحقَّق الإيمان في قلوبهم(٢).

فالإيمان درجتان: الأولى: وجود أصل الإيمان، أي أن يؤمن بأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة، ويؤمن بأركان الإيمان الستة(٣)، ولا إيمان إلا بهذا؛ لأنه لو صلَّى وصام وهو لا يؤمن بالله أو لا يؤمن بشيء من أركان الإيمان الستة، فلا ينفعه صومه ولا صلاته.

الثانية: مقام الإيمان الذي هو فوق الإسلام ودون الإحسان، أن يكون الإيمان قد خالط قلبه، وصار لديه تقوى ويقظة ونشاط للخير وانكفاف عن الشر، وهذا المقصود هنا- والله أعلم- فنفى عنهم هذه الدرجة، وأمرهم أن يتحدَّثوا عن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٢)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٣)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٨٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٢)، والمصادر السابقة.

(٣) وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه.

أنفسهم بما هو دونها، وهو الإسلام.

والمؤمن الصادق المحسن المتَّقي لا يدَّعي هذا الادِّعاء، فلا يقول: «أنا مؤمن تقي محسن»، لأنه يخاف على نفسه، ولكن قد يقول: «أنا مؤمن» على معنى الاعتراف بالأركان الستة.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: وهو هنا جاء بلفظ أرجى من الأول؛ فقد نفى عنهم الإيمان، ردًّا على دعواهم، ثم زاد الأمر بيانًا بأن المقصود أن الإيمان لم يصل بعدُ إلى قلوبهم فيحرِّكها لتصبح نقية تقية خاشعة، واستعمل أداة النفي «لمَّا» المعبِّرة عن قُرب احتمال الشيء، فهي أحسن من «لَمْ» وأرجى، وكأن اللفظ يقول: لمَّا يحدث هذا، ولكنه قارب، ففيه تحفيز لهم وتشجيع على الخير، والترقِّي في معارج الفضل(١).

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالأعمال الظاهرة، ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم شيئًا، فأعمالكم محفوظة، وهي تزكِّي إيمانكم(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وهذا مناسب للمقام؛ لأن عندهم ما عندهم من الخطأ والتقصير، ففيها إغراء بمغفرة الله ورحمته لمَن تاب وصحَّح المسار.

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾:

خطاب للأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ بالله؛ لتأكيد أنهم لم يؤمنوا بعدُ.

و﴿إِنَّمَا﴾ تدل على الحصر، فـ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صحيحًا ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يقع في إيمانهم ريب،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٩)، و«الإتقان» (٢/ ٢٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، والمصادر السابقة.

ولا شكٌّ، ولا تردُّد، في حين أنكم أنتم وقع من بعضكم الإيمان الذي خالطه ضعف وشك(1).

ولعل في هذه إشارة إلى فضلاء السابقين من الأنصار والمهاجرين الذين يقع عادة من بعض حُدثاء الإسلام استصغار منهم، فهو يزكِّيهم ويُثني عليهم، ويدعو هؤلاء الداخلين الجُدد إلى التأسِّي بهم والاقتباس بالحب والمجالسة والتعلم منهم، دون استنكاف أو تعال أو تكبر.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: في حين أنكم لم تجاهدوا بأموالكم، وإنما أتيتم لتطلبوا الأموال، وتقولوا: نحن جياع، فأطعمنا، وعُراة، فاكسنا، وقد كانوا جاؤوا إلى المدينة لهذا السبب وبهذه النية، بخلاف أولئك الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وجاهدوا، وهاجروا(2).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: فهذا ثناء على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفيه إغراء بالصدق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وتذكير بأن الأمر متعلِّق بالقيم والمبادئ، وليس مجرد سباق بين القبائل، أو انتهاز للفرص، أو طلب للعاجل، فالمسألة مسألة تضحية وبذل، رجاء ثواب الله وفضله، وليست مكسبًا عاجلًا زهيدًا.

* ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦﴾:

فهو يعلم خبايا نفوسكم، وحقائق تصرفاتكم ونواياكم.

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٩).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٤).

وهذا من العتب الشديد عليهم، فكيف تظنون أنكم تعلِّمون الله بدينكم؟ وهو أعلم بما في النفوس، والدِّين ليس ادِّعاءً أجوف، ولا تفاخرًا، وإنما حقيقته إيمان وإخبات ونفع للعباد.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهم كانوا بحاجة إلى مثل هذا المعنى؛ لأنه قلَّما تخطر معاني مراقبة الله لهم وعلمه بما في قلوبهم ونفوسهم؛ لأنهم حُدثاء عهد بإسلام، فاحتاج الأمر إلى أن يُذكِّرهم بأن الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

ولعل الآية تشبه قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]. والمراد بها النفي، فإذا نفاه الله تعالى فهو غير موجود، وإن ادَّعَوْ وجوده، ولذا فهو يقول: هل أنتم تعلمون شيئًا لا يعلمه الله، حيث ينفيه وأنتم تثبتونه(١)؟!

* ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾:

نزلت هذه الآيات في قوم من الأعراب، قيل: من بني أَسَد، وليس مهمًّا تحديد مَن هم، إنما المهم المعنى؛ إذ يستنكر عليهم القرآن إظهارهم المنَّة على الرسول ﷺ بأنهم لم يحاربوه كما حاربه غيرهم، ودخلوا في دينه طوعًا، ويلقِّن رسولَه ﷺ أن يقول لهم: لا تمنُّوا بإسلامكم عليَّ، بل المنَّة عليكم لله ولرسوله.

وذَكَر المنَّة بالإيمان والهداية إليه؛ لأنه لا يشعر بالفضل والمنة إلا المؤمنون الصادقون الذين خالط الإيمان شغاف قلوبهم، أما مَن أظهر الإسلام فحسب فربما استثقل التكاليف وتبرَّم بها ولم يشعر بالمنَّة، ووضع القيد تشكيكًا في أصل الدعوى.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٠).

* وختم بتأكيد علمه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾:

فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية.

ختمت السورة الكريمة التي احتشد فيها الكثير من الآداب والأخلاق في الأقوال والأعمال مع الله سبحانه، ومع رسوله ﷺ، ومع المؤمنين في حال السِّلْم والحرب، وحال الأخوَّة والاختلاف، ثم الانتقال أيضًا إلى الطبيعة الإنسانية وبني آدم والعلاقة بينهم، وكيف يجب أن تكون، وختم السورة بالحديث عن هؤلاء الأعراب وعن الناس جميعًا، ومنَّة الله تعالى عليهم بالإيمان، وأنه لا أحد يَمُنَّ على الله تعالى بإيمانه[1].

ooo

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩٦- ٣٩٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٥٠)، وفتح القدير (٥/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٩).

سُورَةُ قٓ

* «سورة ﴿قٓ﴾»: هي أول «حزب المُفَصَّل» - فيما صحَّحه ابن كثير، وغيره - وقيل: أوله: «سورة الحُجُرات»، وقيل غير ذلك، كما تقدم في «سورة الحُجُرات».

* **تسمية السورة:**

تسمَّى: «سورة ﴿قٓ﴾»، أو: «سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾»(١).

وبذلك سمَّاها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٢)، ولا يُعرف لها اسم غيره.

وذكر السيوطي في «الإتقان» أنها تسمَّى: «سورة الباسقات»(٣).

وهو حزب في القرآن الكريم كان الصحابة يقرؤونه في ليلة، وقد سُئل بعض الصحابة - كما في حديث أَوْس بن أَوْس، وهو أَوْس بن حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كيف كنتم تُحزِّبون القرآن؟ أي: تقسمونه وتقرؤونه، فقال: «نُحَزِّبُهُ: ثلاثَ سُوَرٍ، وخمسَ سُوَرٍ، وسبعَ سُوَرٍ، وتسعَ سُوَرٍ، وإحدى عشرةَ سورةً، وثلاثَ عشرةَ سورةً، وحزبَ المُفَصَّل من ﴿قٓ﴾ حتى يَخْتِمَ»(٤).

«ثلاث سُور» يعني: البقرة، وآل عمران، والنِّساء.

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٣٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٤٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٠)، و«المستدرك» (٢/ ٤٦٤)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٤٥٧، ٤٥٨، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٩١)، وما سيأتي في «سورة القمر».

(٣) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٢٠٤)، وابن أبي شيبة (٨٥٨٣)، وأحمد (١٦١٦٦، ١٩٠٢١)، وأبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٥٧٨)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٣٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٨٨).

و«**خمس سُور**» يعني: المائدة، والأَنْعام، والأَعْراف، والأَنْفال، والتوبة.

و«**سبع سُور**» يعني: يُونس، وهُود، ويُوسف، والرَّعد، وإبراهيم، والحِجْر، والنَّحل.

و«**تسع سُور**» يعني: الإِسْراء، والكَهْف، ومريم، و﴿طه﴾، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنُّور، والفرقان.

و«**إحدى عشرة سُورةً**» يعني: الشُّعراء، والنَّمل، والقَصَص، والعَنْكبوت، والرُّوم، ولُقْمان، والسَّجْدة، والأَحْزاب، وسبأ، وفاطر، و﴿يسٓ﴾.

و«**ثلاث عشرة سُورةً**» يعني: الصَّافات، و﴿صٓ﴾، والزُّمُر، وغافر، وفُصِّلت، والشُّورى، والزُّخرف، والدُّخَان، والجاثية، والأَحْقاف، ومحمد، والفتح، والحُجُرات.

و«**المُفَصَّل**» من «سورة ﴿قٓ﴾» إلى «سورة الناس»، على الخلاف السابق ذكره.

فهذا التحزيب الذي كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعتمدونه لمَن أراد أن يختم القرآن في سبعة أيام(١).

* **عدد آياتها:** خمس وأربعون باتفاق علماء العَدِّ(٢).

* **وهي مكيَّة** بالإجماع، كما ذكره غير واحد(٣).

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن آية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] نزلت بالمدينة، وكانت ردًّا على ادِّعاء اليهود الذين قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت. تعالى الله عن ذلك.

والصحيح أن الآية، وإن كانت واردة في المعنى ذاته، إلا أنها مكيَّة، وحكايات اليهود وأخبارهم ليست مقصورة على المدينة؛ إذ كانوا يتردَّدون على مكة،

---

(١) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٤٧)، و«معجم علوم القرآن» (ص١٣- ١٤).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩).

(٣) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٤).

ويختلطون بالعرب، ربما سمعوا منهم مثل هذه المقالات الفاسدة[1].

* ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾:

﴿قٓۚ﴾: حرف واحد ينطق بالمَدِّ، وهو اسم للحرف العربي المعروف.

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ يجوز أن تكون ﴿قٓ﴾ من القرآن، أو ﴿قٓ﴾ من قدير، أو ﴿قٓ﴾ اسم للسورة، أو ﴿قٓ﴾ اسم من أسماء الله، أو ﴿قٓ﴾ حرف من الحروف التي يتكون منها القرآن، على حسب الأقوال المختلفة[2].

ومن الخطأ ما ذكره بعضهم أن ﴿قٓ﴾ جبل محيط بالأرض، والأرض متصلة به[3]. فهذا مما لم يرد في كتاب ولا سُنَّة، ولا ثبت بأثر صحيح، كما أنه غلط مجافٍ للواقع.

ومن الخطأ الكبير أن تُقَدَّم معلومات مغلوطة عن الكون أو الفلك أو الإنسان، وتساق مساق تفسير القرآن الكريم؛ لأن هذا من شأنه أن يفتح للأجيال أبوابًا من الشك، والعُزُوف عن كتب التراث ومرويَّاته، وذلك حين يأتي متخصِّص في الجغرافيا أو الرياضيات أو الفيزياء فيُقَدِّم لهم معلومات علمية، وحقائق مجافية لما نُقِل لهم، وإنما ثار الناس على الكنيسة لمَّا اعتمدت أقوالًا منافية للعلم، وثبتت الحقائق العلمية بخلافها، أما القرآن فـ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، فمن الخطأ أن تُساق مثل هذه الأقوال في كتب التفسير على أنها تفسير لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾: أقسم تعالى بالقرآن؛ لأنه كان موضع شكٍّ عند هؤلاء المكذِّبين.

وسماه: «القرآن» باعتباره مقروءًا، ويسمَّى: «الكتاب» باعتباره مكتوبًا، فالقراءة تسمعها الآذان، وتستعذب ألفاظه ومعانيه، والكتابة تراها العيون، ولكل

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢- ٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٥)، والمصادر السابقة.

منهما وقعه الخاص على النفس وتدبر القلب وخضوره(١).

و﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: صاحب المجد، **فمجد القرآن**: عظمته وكماله، وإحكامه، وكونه ناسخًا لما قبله من الكتب السماوية، وبقاؤه وتأثيره(٢).

والقَسَم بالقرآن: إشادة بعظمته، وإشارة إلى مادته المكوَّنة من الحروف التي ينطقها العرب، وأن هذه السورة واحدة من سوره العظيمة المنطوية على الإعجاز.

والسورة تدور حول معنيين أساسيين: الألوهية والبعث.

* ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾:

﴿بَلۡ﴾: تُستعمل للإضراب والانتقال إلى بيان كفرهم وشبهاتهم، وما جرى منهم من التكذيب(٣)، بعدما استهل بإلماح سريع أشاد فيه بمجد «**القرآن**» وعظمته(٤).

وقد عجب الله من عجبهم واستغرابهم أن يأتي نذير؛ لأنه لم يأتهم نذير قبله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

وعجبهم واستغرابهم أيضًا أن يكون النذير منهم؛ أن يكون بشرًا، وفي زعمهم يجب أن يكون مَلَكًا ينزل عليهم من السماء: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وليس العَجَب من عجبهم فحسب، بل من تسرعهم في الكفر والتكذيب، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٥٦)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ١٣)، و«تفسير الثعالبي» (١/ ١٥٠- ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٧٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٧٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٢٢)، «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٧). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٦٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٨٥)، و«تاج العروس» (٩/ ١٥١) «م ج د».

(٣) ينظر: «علل النحو» (ص٣٧٧)، و«شرح المفصل» (٥/ ٢٥).

(٤) ينظر: «روح المعاني» (١٣/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٧٧)، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾.

* ثم شرع في بيان استغرابهم للأمر الآخر؛ وهو «الْبَعْث» بعد الموت: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ③﴾:

وهم يعرفون الموت، كما تعرفه الدوابُّ والبهائم، وأنهم يصيرون ترابًا؛ لأنهم يشاهدونه عيانًا.

وأتى أُبَيُّ بن خَلَف رسولَ الله ﷺ بعظم بالٍ، فقال: يا محمدُ، أنتَ تزعمُ أن يُبعثَ هذا بعد ما أَرِمَ. ثم فَتَّهُ بيده، ثم نفخه في الرِّيح نحوَ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**نعم، أنا أقولُ ذلكَ، يبعثُهُ الله وإيَّاك بعد ما تكونان هكذا، ثم يُدخلُك اللهُ النارَ**»(١).

﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾: مستبعد في عقولهم التي لم تتعوَّد على التفكر الصحيح، والنَّظَر في الكلام الجديد عليها(٢)، وهم يقولون: ﴿بَعِيدٞ﴾؛ لأنه غير مألوف في تفكيرهم السَّطحي التقليدي.

وعادة أكثر الناس التَّسَرع في رفض ما لا يعرفون، وإنكاره وتسفيهه، كما قال سبحانه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، فبمجرد ما يسمع أحدُهم خبرًا غير مألوف يبادر بتكذيبه، والقرآن يلهمنا إزاء المعارف والمعلومات الجديدة التي نسمعها لأول وهلة أن لا نتسرع في رفضها؛ لأن عقولنا لا تستوعبها أو لم تتهيَّأ لها، وأن لا تتسرع في قبولها دون برهان أو حجة: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [النمل: ٦٤]؛ لأن المرء قد يُكَذِّبُ بالحقِّ لغرابته، وقد يُصَدِّقُ بالباطل لكثرة ما يسمعه، واعتياده عليه، حتى لا يسأل عن دليله.

واستبعادهم للبعث هو من الجهل؛ لأن الشرائع السماوية كلها جاءت بتقريره وتثبيته، وأنه ركن من أركان الإيمان، وهو يستقر في نظر الناس؛ لأنهم يرون ظالمًا ومظلومًا يموتون دون فصل بينهم، ويرون قصصًا في الحياة لم تكتمل ولها بقية

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦١)، و«الروض الأنف» (٣/ ١٩٨).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٢)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٥)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٠).

تظهر في البعث الآخر، وهو معتقد شائع معروف في أمم الأرض كلها، ومستقر في ثقافتها وشعرها وأساطيرها، ولكن العرب الوثنيين لم يكونوا مؤمنين به غالبًا؛ لجهالتهم وبعدهم عن أنوار النبوة والوحي، وكان قائلهم يقول(١):

حـيـاةٌ ثـم مـوتٌ ثـم نَـشْـرٌ حديثُ خُـرافَـةٍ يا أمَّ عَمْرِو

والسِّياق يكشف تناقضهم؛ فهم يعرفون أنهم يعودون ترابًا، ثم يستبعدون الرَّجْعَة، وينسون أنهم كانوا قبلها ترابًا، ثم الله خلقهم وأنشأهم أول مرة، والرَّجْع أهون من الإنشاء؛ لأنه إعادة، وكله على الله هيِّن، ولكن في حكم العقل فإن الذي أسَّسَ وأنشأ يسهل عليه أن يعيد.

* ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾: ها هنا العلم الإلهي الشامل المحيط، وهو سبحانه يعبِّر بضمير الجمع للتفخيم والتعظيم، وهو يحاصر جهلهم وغفلتهم، ويذكِّرهم بذاته العَلِيَّة، ويضعهم في مكانهم اللائق بهم، وهم جثث بالية هامدة مَطْمُوْرَة في التراب، والأرض تأكلها شيئًا فشيئًا، وهنا يفعِّل الخيال لدى هذه الرِّمَّة الهالكة يعيث فيها الدُّود، ويبليها التراب، ويعبث بجمال وجهها، ويدخل في عينيها وفخذيها، وفمها وأذنيها، وتجاويف جسدها!

إنها دعوة للتواضع والذُّلِّ لله الحيِّ الباقي، والتوقف عن التكذيب.

صاحِ، هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْء ما أظنُّ أَدِيمَ الـ أرض إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ
ودَفِينٍ على بقايا دَفِينٍ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ(٢)

---

(١) ينظر: «ثمار القلوب» (ص١٣٠)، و«رَبِيع الأبرار» (٤/ ٣٥٠) منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٣٦) منسوبًا إلى ديك الجن، و«تلبيس إبليس» (ص٧٢)، و«البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة» (ص٧٦) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٢) ينظر: «نشوار المحاضرة» (٥/ ٢٢٣)، و«تاريخ بغداد» (٤/ ٤٦٤)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٨٠)، و«إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٨٢)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٤٦) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾: مكتوب عند الله، وفيه شيء من علمه عَزَّوَجَلَّ فيما يتعلَّق بالبشر والخلق(١).

و﴿حَفِيظٌ﴾ أي: محفوظ عند الله، فلا يصل إليه أحدٌ، وهو حافظ لكل شيء، لا يَندُّ عنه شيء مما هو مقدور ومكتوب، أو ما هو مفعول من قبل الناس(٢).

* ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: تسرَّعوا بالتكذيب، دون تأنٍّ ولا تبيُّن، وهو حقٌّ، فهم إذًا في ضلال وصُدُود؛ لأنهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾، وليس بغيره، وهم لو كَذَّبوا بأمر متردِّد أو مشكوك دون تبيُّن وبحث لكانوا مَلُوْمِين، فكيف وقد ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ المبين الجليِّ الذي جاء به الوحي عن الله على ألسنة رسله؟

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾: والمَرِيج: المضطرب المختلط(٣)، كما في قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ [الرحمن: ١٩].

ولها هنا معنيان:

١- أنهم لا يستقرون على شيء؛ فمرة يقولون: ﴿سَاحِرٌ﴾ [ص: ٤، الذاريات: ٥٢]، ومرة يقولون: ﴿كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، ومرة يقولون: ﴿شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠، الحاقة: ٤١]، ومرة يقولون: ﴿كَذَّابٌ﴾ [القمر: ٢٥]، ومرة يقولون: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥]. فلم يستقروا على

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٣)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾، و«سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

شيء؛ لأنهم مُكَذِّبون، ولا استقرار إلا بالإيمان والتصديق[1].

٢- أنهم انتقلوا من التَّعَجُّب إلى الاستبعاد ثم إلى التكذيب[2]، والعاقل إذا استغرب الشيء ينتقل من الاستغراب إلى البحث، ومن البحث إلى المعرفة واليقين والعلم، وليس إلى الكفر والتكذيب، فهذا من مروج الأمر عندهم.

وفي الآية: دليل على أن مَن ترك الكتاب والسُّنَّة فإنه لا يستقر على حال، ولا يهتدي إلى الخير، وأمره مَرِيج مضَّطرب.

وفيها: أن المذموم هو التكذيب بالحق الذي جاء من الله سبحانه على ألسنة رسله عليهم السلام، أما آراء الناس واختياراتهم ففيها الصواب والخطأ، وليس ردها أو التردد فيها سببًا للأمر المريج.

* ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾:

استفهام إنكار أو تقرير؛ لما كذَّبوا بهذه السرعة بدون تبصر[3]، نبَّههم تعالى أن بإمكانهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء، فالأمر لا يتطلَّب أكثر من ذلك.

والسَّماء هي: كل ما علا وارتفع[4]، فكل ما هو فوقك فهو سماء، فلماذا لا يستدلون بالسَّماء التي خلقها الله تعالى فوقهم، والنجوم والشمس والأقمار التي يشاهدونها، فيستدلون بها على خالقها، ويرون كيف بناها؟

وهنا بدأ السياق يجرهم إلى الدَّليل العقلي على مسألة البعث، فذكر لهم أربعة أدلة:

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٥).

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٣٠١) «س م و»، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أولًا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾، فهذا الدليل، وهو خلق السماء بما فيها من قوة وجمال.

وفي الآية تذكير بالعلو؛ لأن البناء دائمًا يكون مرتفعًا فوق الأرض، فكذلك «السَّمَاء» سماها الله تعالى: ﴿بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]؛ لأنها عالية مرتفعة، فهذا مفهوم مباشر قريب مشهود.

وذكر مع البناء «الزِّيْنَة»، فالسماء زُيِّنت بالنُّجُوم: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، والزِّيْنَة مقصد في خلقه تعالى؛ فمن حكمة الله أنه جعل النُّجُوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

الزِّيْنَة في الأرض بجمال النبات، وتنوع الأرض من بحر ونهَر، وسهل وجبل، واستجلاء هذا الجَمَال، ومشاهدته، والإعجاب به تدبرًا وتفكرًا مما يقرِّب المسلم إلى ربِّه.

كذلك جمال خَلْق الإنسان فيه إبداع إلهي عظيم؛ في جمال الصورة، وجمال الرُّوح، وجمال المنطق، وجمال العقل والتفكير، وهو دعوة إلى استكمال «الزِّيْنَة»، واستكمال الجمال في كل شيء: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله ﷺ: «إن اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ»[1]. بجمال اللِّباس، والرائحة، والشَّعَر، بجمال الفم ونظافته، وبجمال الأخلاق، وبجمال القول.

وهم حينما ينظرون إلى السماء، يرون قبة زرقاء، ليس فيها ثقوب ولا شقوق، فهذا من الآيات الإلهية الربانية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ... وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ١٧-١٨].

* ثانيًا: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، فهي قريبة منهم، وفي متناولهم، والمَدُّ هو: البَسْط[2]،

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٨).

فهم يرون «الأرض» ممدودة مستوية حينما يمشون عليها، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك:١٥]، وهم في الغالب لا يعرفون حقيقة الأرض، إن كانت كُرَوِيَّة أو غير كُرِويَّة، أو ثابتة أو تدور؛ لأنهم كانوا أُمِّيِّين، كما أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتابًا في الفَلَك، إنما هو كتاب هداية، يلفت الأنظار إلى ما يهدي إلى الله ببديع خلقه في السماء والأرض والخلق، فالمقصود: بيان بَسْط الأرض، ومثله قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية:٢٠].

فـ«السَّطْح» و«الْبَسْط» معناه: أن الناس يمشون على الأرض، ويبنون عليها، ويقع لهم الاستخدام الأَمْثل لها فيما يرون، وهذا لا ينافي أن تكون كُرَوِيَّة؛ لأن الكلام هنا عن الأرض التي يعيشون عليها في مدنهم وقراهم وأماكنهم، أما مجمل الكرة الأرضية فهو أمر آخر لم يتم الحديث عنه هنا، وربما يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] [يس:٤٠].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: وضعنا فيها، والرَّواسِي هي: الجبال[2]، مأخوذة من الرُّسُوِّ؛ لأنها تثبِّت الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، فالجبال تمنع الأرض من الاضطراب والزلزلة، وتحفظ توازن الكرة الأرضية من أن يقع لها اضطراب أو زلزال أثناء دورانها، فهذا من مقاصد حكمة الجبال، والامتنان على الناس بوجودها[3].

ومن الخطأ أن تقحم هذه الآية الكريمة بأنها دليل على أن الأرض ثابتة لا تدور،

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾، و«سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾، و«سورة الغاشية»: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٠٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٨٨)، وما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المرسلات: ٢٧].

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

فهذا من أعظم الجناية على الدِّين؛ أن نجعل الحقائق الدِّينية في مواجهة الحقائق العلمية؛ وبخاصة بعدما تتحول الأقوال العلمية إلى قطعيات لا يختلف الناس عليها، فهي ليست محل شكٍّ، وإنما هي مُسَلَّمات يعرفها الناس ويشاهدونها.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾: ﴿مِن﴾ أي: كثيرًا من الأزواج البَهِيجة من النباتات، والوصف بـ«البَهِيج» دليل على الجمال الذي هو مقصد في خلق السماء والأرض، فينبغي الاحتفاء بهذا الجَمَال، واستجلاؤه، والتأثر به، وذكر الله تعالى عنده، وهو يصنع جزءًا من تربية الإنسان على الذَّوْق، ورؤية الجَمَال، والحفاوة به.

* ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾:

التَّبْصِرة تعني: تبصير الإنسان بحيث يكون عنده بصيرة في عقله؛ بالتأمل واليقظة والعِظَة.

ويحتمل أن تكون التَّبْصِرة تتعلق بالدلالة على التوحيد، والإيمان بوحدانية الله، وهم كانوا يجادلون في ذلك(١).

و«التَّبْصِرة» و«التَّذْكِير» يحصل لكل عبد من عباد الله تعالى منيب إليه.

و«الْإِنَابَة»: الرجوع إلى الله عند الخطأ والغفلة(٢)، فالذي يعتبر من آيات الله في السماوات والأرض، وآيات الله في القرآن؛ هو المقرُّ بعبوديته، المنيب كلما أخطأ رجع إلى الله، وتاب وأناب.

* ثالثًا: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾:

لما ذكر السماء ثم الأرض، ذكر شيئًا مشتركًا بينهما؛ وهو: المطر: ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾.

ووصفه البركة؛ لأن الله تعالى جعل فيه مضاعفة النفع للزرع والضَّرْع والثمر،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩١).

وعليه تقوم حياة كثير من الناس، ولذا قال: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، فكان المطر من جنود الله تعالى، حتى في الحرب.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: **الجَنَّات** هي: الأشجار الكثيرة المُلْتفَّة، كالغابات[1].

﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: ما يُحصد من الزُّروع[2]، مثل: الشَّعير، والأُرْز، والحِنطة، وغيرها مما يستخرج حبه للأكل.

وفي الآية إشارة إلى معنيين:

١- أن هذا الزرع والحِصيد لكم أيها البشر؛ لكن السَّاق الذي يتم التخلص منه يصبح أعلافًا للأنعام، كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾ [النازعات:٣٣]، وفي ذلك ملمح جميل إلى أن متاع الدنيا بذاته يشترك فيه الإنسان مع الأنعام، فأنت تأكل الحَبَّ وتترك التِّبْن للبهائم، فينبغي أن يكون الإنسان متساميًا، ولا يقتصر من الحياة الدنيا على مجرد هذا المتاع.

٢- سرعة زوال الدنيا، فعلى العاقل أَلَّا يغتر بها؛ ولذا وصف الله تعالى الأمم التي أهلكها بالحَصِيْد، كما في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس:٢٤].

* ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾:

نصَّ على النَّخْل؛ لأنها معروفة بكثرة في بلاد العرب، ولها واحات مشهورة في الجزيرة العربية، والعراق، وفي غيرها من بلاد العالم، **والنَّخْل** صديق للبيئة العربية، وورد في وصفها أنها «الرَّاسِخاتُ في الوَحْل»، أي: في الطين،

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٦٠)، و«روح البيان» (١/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٥٣)، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٢).

و«المُطْعِماتُ في المَحْلِ»[1]، أي: في المجاعة. وفيها ألوان من المكونات الغذائية التي يحتاجها جسد الإنسان.

والبُسُوق: الارتفاع الشديد[2].

والنَّضِيْد: المَنْضُود: المتراكب المنتظم[3]، والسياق هنا يثير الاهتمام بشكل الطَّلْع، وانتظامه العجيب، وفي موضع آخر وصفها بأن ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]، أي: سهل الهضم، ومنظِّم للهضم، وهو معنى معروف مُجَرَّب[4].

* ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾:

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أعطاه الله وأنزله ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، كما أنه تعالى أنزل الوحي ﴿تَبْصِرَةً﴾ للعباد، وأنزل المطر رزقًا لهم، فجمع الله لهم خير الدنيا والآخرة؛ لأولئك الذين آمنوا به.

رابعًا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: بالمطر، وهذا هو الدليل الرابع العقلي على إثبات البعث بعد الموت، فشبَّه خروج الناس من قبورهم بحياة الأرض بالمطر، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ

---

(١) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

(٢) ينظر: «العين» (٥/ ٨٥)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٦)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٥٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٢٠) «ب س ق».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٤٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٣).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٨)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٥) «ض د ن»، و«الصحاح» (٢/ ٥٤٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨١٠)، و«لسان العرب» (٣/ ٤٢٤) «ن ض د».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٩)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٦).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٩٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٦٦)، و«الصحاح» (٥/ ٢٠٥٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٢)، و«لسان العرب» (١٢/ ٦١٣) «هـ ض م».

بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج: ٥]، فالآية تقرِّب معنى البعث، وأنه ليس مستحيلًا، فالذي أحيا الأرض قادر على إحياء الناس.

وفيه معنى آخر لطيف، وهو أن القلوب الميتة يمكن أن تحيا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، ثم قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾[1] [سورة الحديد:١٦- ١٧].

فلا ييأس الإنسان من روح الله أن يصلح قلبه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ يدل على أمرين:

١- إثبات البعث، فيكون هذا من باب القياس؛ قياس الأمر الخفي المستقبل الذي لم يحدث على الأمر الظاهر الواقع الحادث، فقاس أمر البعث الأخروي على الأمر المشاهد بحياة الأرض بعد موتها[2].

٢- بيان صفة البعث يوم القيامة[3]، وقد فصَّله النبيُّ ﷺ في أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً، فينبت الناس منه، ثم ينفخ في الصور، فتطير الأرواح إلى أجسادها[4].

وفيه اعتماد الأدلة العقلية مع الأدلة النقلية في النفي والإثبات؛ حيث ذكر تعالى هاهنا الأدلة النقلية ثم أتبعها بذكر الأدلة العقلية التي تدعو غير المؤمن إلى التأمُّل، وتزيد المؤمن إيمانًا إلى إيمانه.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٠).

(٤) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٦٣٧)، و«صحيح البخاري» (٤٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٨٤)، و«المستدرك» (٤/ ٤٩٦- ٤٩٧)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾، و«سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

* وبعد أن ذكر الله تعالى منته في الكون، والسماء والأرض، والمطر والنبات، والجمال في السماء، والجمال في الأرض، والدعوة إلى التدبر، أعقب ذلك بجولة تاريخية على الأمم الغابرة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾:

ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرُّسل، وكان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا معلَّمًا مكلَّمًا، أما نوح فكان نبيًّا رسولًا، وذكر الله تعالى قصته في سورة خاصَّة، وأطال بذكرها في «سورة الأعراف»، و«سورة هود»، و«سورة الشُّعَراء»، و«سورة الصَّافَّات»، وسواها.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ ذُكروا في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، و﴿الرَّسِّ﴾ هو: الحَفْر، ومنه: رَسَّ البئر، أي: حفره[١]، قيل: هم القتلة الذين ذكرهم تعالى في «سورة البُروج»[٢]. فأجمل ذكرهم هنا؛ وذلك أنهم ألقوا المؤمنين في الحفرة التي تشبه الشَّق أو البئر في الأرض، ورجَّحه الطَّبَري[٣].

وقيل بأن ﴿الرَّسِّ﴾ قرية من اليمامة، يُقال لها: الْفَلْج[٤]. وفي نَجْد مدينة اسمها: ﴿الرَّسِّ﴾ ربما يكون المقصود قريبًا منها.

والحاصل أنهم قومٌ بُعث إليهم رسولٌ فَكَذَّبوه، فذكر تعالى شأنهم.

﴿وَثَمُودُ﴾: قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا في الحِجرْ شمال الجزيرة العربية، وقد فصَّل القرآن قصتهم، ودعا العرب إلى الاعتبار بها؛ خاصة وأنها كانت على طريقهم، وهم يمرون بها، وآثارهم باقية مشهودة[٥].

---

(١) ينظر: «العين» (٧/ ١٩١)، و«تاج العروس» (١٦/ ١٢١) «ر س س».

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٢)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦)، وما سيأتي في «سورة البروج».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٥٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٨/ ٥٢٢٢)، و«الكشاف» (٣/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٦).

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾.

* ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَعَادٌ﴾ هم: قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا بالأَحْقاف جنوب الجزيرة في أقصى اليمن(١).

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾: وخصَّ فرعون؛ لأنه أكثر مَن طغى وبغى، ونازع الله في ألوهيته(٢).

﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾: هم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو لم يكن منهم؛ فإن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عبرانيًّا، وهم كانوا كنعانيين، فلم يكن من قبيلتهم(٣)؛ ولكنه بُعث إليهم، فسموا: «إخوانه» من هذا الوجه(٤).

* ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: الأَيْكَة هي: الشجرة الملتفَّة(٥)، وهم قوم شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا بمَدْيَن من أرض الشام(٦).

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾: وهم: حِمْيَر من العرب(٧)، ومنازلهم في اليمن، وذكر قومه؛ لأنه كان مؤمنًا وهم كافرون، والله أعلم، وقد ورد في هذا آثار؛ أنه كان ينتظر مبعث النبي ﷺ، وأنه كسا الكعبة، ودعا قومه إلى الإيمان، واسمه: أَسْعد أبو

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٥).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٨١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٤٨٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٨٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٩٨)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٩٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٥٥) «أ ي ك».

(٦) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٣٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٦٣٢)، و«تفسير ابن فورك» (١/ ٢٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٧/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٩).

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٨)، و«تفسير القاسمي» (٨/ ٤٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٦).

كُرَيْب[1]، والسياق هنا يشهد لها.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: ومَن كذَّب برسول واحد فقد كذَّب بجميع الرُّسل[2]؛ لأن رسالتهم واحدة، وهي تحقيق توحيد الله تعالى، ونَبْذ الشِّرْك.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق وعيدي عليهم بالعذاب[3]، وقد وقع عليهم عذاب الاستئصال في الحياة الدنيا، وهو تحذير لقريش أن يُعَذِّبَهم الله كما عَذَّبهم، وقد حدث هذا لهم بعد ذلك بأيدي المؤمنين في معركة بدر؛ فضلًا عن الجوع الذي أصابهم، كما ورد أن النبيَّ ﷺ لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخَّرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْع كسَبْع يُوسفَ**». أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[4] [الدخان: ١٢].

* ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: خلقناكم المرة الأولى بلا مشقة ولا لُغُوب[5]، ولم يقع في الخلق اختلال أو عجز، وحين يسألهم ربُّهم هذا السؤال، ويسوق فيه ضمير العظمة: (نا)؛ يكون ذلك تحدِّيًا، والتحدِّي ممن؟ إنه من الله الخالق العظيم، يخاطبهم ويحرِّك عقولهم، ويدعوهم للاعتبار.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٠٩، ٤٨٢٢، ٤٨٢٣)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر ما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤١٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٧).

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ واللَّبْس هو: التحير أو عدم وضوح الأمر[1]، وذلك أنهم كَذَّبوا بالبعث، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾، فهذا هو الـ«اللَّبْس» الذي عندهم، وهم قد غفلوا عن أن الذي خلق أول مرة قادرٌ على الخلق مرة أخرى، وليس البعث شيئًا مستحيلًا؛ بل هو ممكن الحدوث، والفطرة والعدل مما يقتضيه، والرسالات عبر التاريخ جاءت لتقرِّره وتؤكِّده، وتدعو الخلق إلى الإيمان به، والعمل له.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: تفريع على المعنى السابق، فهو حديث عن الخلق الأول، **والمقصود**: جنس الإنسان[2]؛ فإن الخلق، ومعرفة ما في نفس الإنسان، والقرب منه قرب علم وإحاطة؛ هو مما لا يختص بأحد دون أحد، فهو شامل للمؤمن والكافر، على أن السياق في مجادلة الكافرين والجاحدين، ويدخل في هذا خلق آدم دخولًا أوليًّا، وكذلك ذريته من الذكور والإناث.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: وهذا اكتفاء بالأدنى عن الأعلى؛ فإن علم الباري سبحانه بوسوسة النفس يلزم منه العلم بما هو أظهر من ذلك من الأقوال والأعمال التي تُكتب عليه، ويُسأل عنها، **فالعلم** يدل على الحساب والسؤال، **والإخبار عن الوَسْوَسَة** إخبار عما فوقها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فهو لطيف يعلم تفصيلات الأشياء، وما توسوس به النفس من الخواطر والهواجس، والأفكار والأسرار، وما دونها، فلا تخفى عليه خافية، وهذه العقيدة تمنح المؤمن

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٨).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٧)، و«مختار الصحاح» (ص٢٧٨)، و«لسان العرب» (٦/ ٢٠٤) «ل ب س».

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٨٢).

إحساسًا عظيمًا بالحضور، والرقابة، والمعيَّة، وتصنع الفرق في شخصيته وحياته.

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾: والعرب كانوا يضربون المثل في القُرْب بنحو قول الشاعر[١]:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ

وبِشِراكِ النَّعْل، كقول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كُــلُّ امــرِئٍ مُصبَّحٌ فـي أهله والموتُ أَدْنَى من شِراكِ نَعْلِهِ[٢]

وفي الحديث: «الجنةُ أقربُ إلى أحدكم من شِراكِ نَعْله، والنارُ مثلُ ذلك»[٣].

فهذا النَّمَط من المقارنة من أسبقيات القرآن، ومعانيه اللطيفة.

والحَبْل مفرد: حِبَال؛ وهي: العروق[٤]، وتسميتها: «حِبالًا» واضح المناسبة من حيث الشَّبَه.

والوَرِيد: شريان من الشرايين، وفي الجسم وريدان: يمين، وشمال؛ وهو عرق متصل بالقلب ويمتد على طول الجسم ليمده بالدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٣-٤٦]، ويسمى: نِياطُ القَلْب، وضربُ المثل بـ﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ تأكيد للاطلاع على الأسرار وحركات القلب كلها[٥]، حتى تلك التي تخفى على صاحبها أو تَحدُث في حال شرود أو سهو أو منام: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣].

---

(١) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمَى» (ص١٠٤)، و«شرح المعلقات التسع» (ص١٨٩)، و«الكامل في اللغة والأدب» (٣/ ٦٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٨٩). ويُنسب إلى غيره أيضًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢١٧)، و«النهاية» (١/ ٣٣٣)، و«لسان العرب» (١١/ ١٣٥) «ح ب ل».

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٢٢)، و«تفسير التستري» (ص٧٥)، و«تفسير الطبري» (١١/ ١١٢)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٣٠٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠١).

وقرب الله سبحانه هو بعلمه المحيط، وسلطانه الشامل، الذي لا يَنِدُّ عنه شيء، وتدبيره اللَّطيف الذي لا يقع شيء إلا بإذنه[1].

ولعل من مقصود الآية: قرب الملائكة الموكَّلة به في حياته، المكلَّفة بقبض روحه، ولذلك قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: المَلَكان[2]، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: فعن يمين الإنسان مَلَك الحسنات، وعن شماله مَلَك السيئات، ومَلَك الحسنات كأنه أمين أو متقدِّم على مَلَك السيئات[3].

والقَعِيْد هو: القاعد[4]، كالصَّديق الذي لا يفارقك، ومنه تسمى الزوجة: قَعِيْدَة، كما قال الحُطَيئة:

أُطَــوِّفُ مـا أُطَــوِّفُ ثـم آوي إلـى بيتٍ قَعِيدتُهُ لَـكَـاعِ[5]

ومن طبع الإنسان أن يتحفَّظ من جلسائه، ولو كانوا من خاصَّته، الذين يتبسَّط معهم بالحديث، إلا أن ثمة أمورًا لا يفعلها ولا يقولها بحضرتهم، فالنَّصُّ يلقي في حِسِّ السامع أن ثمة قعيدين لا يفارقانه في يقظة ولا منام، وهما أجدر بالتحفظ والحياء.

* ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾:

لم يذكر هنا إلا «القول»، ولم يذكر «الفعل»، ولذلك أسرار:

منها: أن «القول» أساس «الفعل»، والغالب أن المرء يتحدَّث عما يريد أن

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٧/ ٢٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٧).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٢).

(٥) ينظر: «ديوان الحُطيئة» (ص١٢٨)، و«لباب الآداب» للثعالبي (ص١٣٦).

يفعل، ويكون حديثه ترسيخًا لإرادة «الفعل»، وتحفيزًا للغير على المضي في «الفعل».

ومنها: أن سياق السورة حديث عن أقوال المشركين والمكذِّبين[١]، ولذا يتكرَّر فيها لفظ: ﴿قَالَ﴾ بدءًا من قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ومنها: أن المَلَك إذا كان يكتب «الأقوال»، فكتابة «الأفعال» من باب أولى[٢].

ومنها: أن السياق يتدرَّج ويترقَّى من التحذير من «وسوسة النفس» التي يكون بمقدور المكلَّف تجنبها، إلى «الأقوال» التي يلفظها، إلى «الأفعال» التي تقع مرة ثم تتحوَّل إلى طبع وعادة، كما في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

والرَّقِيب هو: الحاضر، والعَتِيد هو: المتهيِّئ المستعد للكتابة والتدوين والإحصاء.

وأكثر المفسرين على أن ﴿رَقِيبٌ﴾ بمعنى: مراقب و﴿عَتِيدٌ﴾ بمعنى: حاضر[٣].

وقيل: إنه يكتب كل شيء، ثم يمحو ما لا قيمة له من الأقوال العادية التي لا يتعلق بها ثواب ولا عقاب، ولا حلال ولا حرام[٤].

* ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾:

السَّكْرة هي: ذهاب العقل، ومنه: السُّكْر والسكران[٥]، فالموت سَكْرة

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: «روح البيان» (٩/ ١١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٣)، و«تفسير الحجرات، الحديد» لابن عثيمين (ص٢٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٥/ ٣٧٥٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٩).

(٥) ينظر: «لسان العرب» (٤/ ٣٧٣) «س ك ر»، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٦).

تجعل الإنسان في غيبوبة بغياب عقله عما حوله، وهو ﴿ٱلْيَقِينُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[1] [المدثر: ٤٦- ٤٧]، وقد أدركتُ الناس وهم يسمون الموت بـ«**الحق**»، ويقولون: فلان جاءه الحق، أي: مات.

ومن معاني **الحقِّ**: أن سَكْرة الموت تكشف للإنسان ما كان يجحد، فإذا احتُضر أدرك الحقائق التي كان يجادل فيها، وكثير من الناس إذا مرض ذهب عناده، وبدأ قلبه يميل إلى الإيمان، فكيف إذا احتُضر؟ والله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ[2]، أي: ما لم تبلغ الرُّوح الحُلقوم[3]، وحال فرعون وتشبثه بالإيمان وهو يغرق تشير إلى هذه الإفاقة التي فات أوانها.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تهرب[4]، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، والطبع البشري ميَّال إلى كراهية الموت، حتى المؤمنين، وأشار إلى ذلك ﷺ لما قال: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهَ، كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**». فقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يا نَبِيَّ الله، أكراهيةُ الموت، فكُلُّنا نكرهُ الموتَ؟ فقال: «**ليس كذلك؛ ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاءَ الله، فأحبَّ اللهُ لقاءَهُ، وإن الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كَرِهَ لقاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**»[5].

وكان ﷺ يقول في مرض الموت: «**إن للموت سَكَرات**»[6]. ويمسح العرق

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(٢) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إن اللهَ تعالى يقبلُ توبةَ عبده ما لم يُغَرْغِرْ**». أخرجه أحمد (٦٤٠٨)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٤/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» (٢/ ٥٤٤)، و«مرقاة المفاتيح» (٤/ ١٦٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٦) أخرجه البخاري (٤٤٤٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

عن جبينه، ويضع خَمِيصة على وجهه يتغطَّى بها، فإذا اغتمَّ بها كشفها[1]، حتى رأت فاطمةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما يعانيه، فقالت: واكرب أباه! فقال لها: «**ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم**»[2].

والمؤمن يتلقَّى البشارة عند موته؛ أن لا يخاف، ولا يحزن، ويُبَشَّر بالجنة ولقاء الأَحِبَّة.

ولا يصح حديث في ذكر الآلام المبرحة التي يحكيها الوُعَّاظ عند الموت، ولكن في القرآن ما يدل على أنها للكافر الجاحد، كما في قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، أي: بالضرب للكافرين والفاجرين[3].

وقد يعاني المؤمن من آلام المرض الذي يسبق الموت، ولا يبعد أن يكون لنزع الروح بعض الألم، وقد كتب الإمام ابن حزم رسالة سماها: «ألم الموت وإبطاله»، وكتب ابن مِسْكَوَيْه نحوها، فليتأمَّل ما ذكروه، ويقارن بما دلَّت عليه النصوص الصحيحة[4].

* ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾:

انتقل السياق من الدنيا إلى الآخرة، وذكر تفصيلات **البعث**، وما يحدث فيه بدءًا من حياة البرزخ في القبر، ثم البعث؛ ليؤكِّد جِدِّية الأمر، ووجوب الاستعداد له، والإيمان به.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٤٤٣)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٢)، و«تفسير السعدي» (ص٢٦٤)، و«أضواء البيان» (٧/ ٣٨٢).

(٤) نُشرت رسالة ابن حزم: «ألم الموت وإبطاله» ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» بتحقيق إحسان عباس (٤/ ٣٥٧- ٣٦٠).

والصُّور هو: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ(١)، وهي النفخة الثانية، كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر:٦٨]، وحقيقته وماهيته غيبٌ لا يعلمه إلا الله، والإنسان بطبعه يتخيَّل الأشياء بحسب ما يعرف مما يشبهها في عالمه الدنيوي، ولا شك أن ثَمَّ شبهًا اقتضى أن تسمى بتلك الأسماء المعروفة لدى البشر، لكن ثَمَّ فرقٌ عظيم لا يحيط به الإنسان بين ما يعلم ويرى وبين حقائق الآخرة وأخبارها.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: وهو يوم الوعد، فالقيامة فيها الوعد والوَعِيد(٢)، وإنما قَدَّم ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾؛ لأن السياق في المشركين المكذِّبين، فكان من المناسب أن يقدِّم ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ الزاجر لهم(٣).

* ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾:

كل الناس يبعثون، و﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ ﴿سَآئِقٌ﴾ يقودها، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ عليها(٤)، وهذا يشمل المؤمنين وغير المؤمنين(٥)، كما قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر:٧١]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [الزمر:٧٣].

ويمكن أن يكون المقصود: الكافر فقط؛ لما أسلفناه من أن السياق مخاطبة للكافرين(٦)، ولذلك قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، وهذا يصدق على

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤١٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٠)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٢٩).

(٢) ينظر: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٠).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٧).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠١).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٨٥).

(٦) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٠٧).

الكافر، بخلاف المؤمن الممدوح، فإنه خُصَّ ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ [ص: ٤٦].

وعبَّر بقوله: ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾، **فالغفلة** وعاء محيط به، ومُطْبِق عليه.

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: وكأن «الغفلة» كانت غطاء على عقله، ثم على جوارحه، فلا يرى الحقائق ولا يدركها.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: حادٌّ[1]، فنظرك اليوم قادر على رؤية الأشياء واستحضارها وتصورها.

وقد عاب الله تعالى عليهم أنهم لم يكلِّفوا أنفسهم عناء النظر إلى السماء فوقهم، كيف بناها وزيَّنَها، وما لها من فُروج، والنظر إلى الأرض كيف مدَّها، وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كل زوج بَهِيج، فلم يكن بصرهم في الدنيا حَدِيدًا، بل كان كَلِيلًا مُعْرِضًا، أما اليوم فهو حَدِيد، حيث لا ينفعهم إلا الخوف والترقُّب والتوجُّس.

وقد يكون الحديد هو: الشاخص، كحالة تلقائية لسَكْرة الموت وخروج الروح، فإذا خرجت الرُّوح تبعها البصر[2].

* ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾:

القَرِيْن ذُكر في السورة مرتين، وهل هو القَرِين الرَّحماني أو القَرِين الشَّيطاني؟ هل هو قَرِين السُّوء أو المَلَك؟ **والأقرب**: أن مع الإنسان قَرِينين: مَلَكي، وشَيْطاني، كما في قوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [فصلت:٢٥]، وفي

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦١).

وينظر أيضًا: «تأويل مشكل القرآن» (ص٢٣٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤١٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٤٣٨)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤١٢).

(٢) كما جاء في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البصرُ». أخرجه مسلم (٩٢٠).

الحديث: «ما منكم من أحد إِلَّا وقد وُكِّلَ به قَرِينُهُ من الجنِ». قالوا: وإِيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «وإِيَّايَ، إِلَّا أن اللهَ أعانني عليه فَأَسلمَ[1]، فلا يَأْمُرُني إِلَّا بخير»[2].

والمقصود هنا: المَلَك؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر مهيَّأ، وهو يشير إلى صحيفة أعمال صاحبه، وهو قول الحسن وقتادة والضَّحاك[3].

* ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: شديد العِنَاد، لا يلين ولا يستسلم للحجة، والمخاطَب مفرد على الظاهر[4]، وهذا جارٍ على قواعد اللغة، كما في قول امرئ القَيْس:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَاناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ[5]

وقوله:

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ[6]

وهو كثير في الشِّعْر، وقد يقول الشاعر بعدها: يا صاحِ.. أو يا صاحبي.. مما يدل على أن المخاطَب مفرد.

ويجوز أن يكون المخاطَب مثنى[7]، وهما ملكان؛ إما السائق والشهيد- وقد مر ذكرهما- أو غيرهما.

---

(١) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ١٥٧- ١٥٨): «برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمَن رفع قال: معناه: أسلمُ أنا من شرِّه وفتنته، ومَن فتح قال: إن القرين أسلمَ، من الإسلام وصار مؤمنًا، لا يأمرني إلا بخير...».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٢). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٩٠)، و«مختار الصحاح» (ص٢١٩)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٠٧) (ع ن د).

(٥) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٧٤).

(٦) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٢١).

(٧) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣).

* ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥﴾:

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾: يمنع الخير عن الآخرين، وقد يمنع الإيمان ويحارب أهله، فهو ينهى عبدًا إذا صلَّى، ويحارب الضعفاء إذا أسلموا، ويحاول أن يُؤَثِّر على عقول الناس، ويحجز بينهم وبين الإيمان.

﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾: يعتدي على الناس، والوصف يشير إلى عموم العدوان اللَّفظي والحِسِّي، والمُرِيْب: مَن عنده رَيْب، أي: شكٌّ في نفسه، ويصيب الآخرين بالارتياب[1].

* ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾:

فهو مشرك مع الله، وهذه أفعاله التي دل عليها كتابه، وهذه عنواناتها.

﴿فَأَلۡقِيَاهُ﴾ تأكيد للأمر الأول[2]، وتحديد للدَّرْك الذي يستحقه، والعذاب الذي أُمروا أن يضعوه فيه.

* ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾:

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: القَرِين الأول الذي قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ هو القَرِين المَلَكي، والقَرِيْن هنا هو الشيطاني؛ حيث يتبرَّأ من صاحبه، كما في «سورة إبراهيم»: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾[3].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٩٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٢)، و«روح البيان» (٩/ ١٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٤).

فهذا القَرِيْن يدافع عن نفسه، ويقول: لست أنا الذي حملته على المعصية والطغيان، ولكن هو الذي اختار ذلك، و﴿كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

والموقف صعب، والخَطْب جَسيم، والنَّكال مُخيف، ولا أحد يريد أن يتحمل وزر أحد، حيث ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عبس: ٣٤- ٣٦]، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣﴾ [المعارج: ١٣]، و﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ [الدخان: ٤١]، فيتبرَّأ الزعماء والقادة والكُبراء من أتباعهم، والعُبَّاد من معبوداتهم، والمعبودات من عابديها، والجنُّ من الإنس، والإنس من الجنِّ، وينفصل كلُّ أحد عن كل أحد، و﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: ١٩].

* ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾:

﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ﴾: ليس هذا وقت الخصومة، ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ في الدنيا، كما نقرأ الآن ونحن في الحياة الدنيا، وهو تعالى يخبرنا بهذا الأمر الآن، وكأننا نرى المشاهد عَيانًا؛ لنعتبر ونضع أنفسنا في ذلك الموقف، وندركِ ما يتوجَّب علينا فعله قبل حلول العذاب.

* ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾:

أي: هذا إلى الجنة، وهذا إلى النار، وكل إنسان يُجزَى بعمله.

هذا هو المعنى، وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يرحم الله من عباده مَن سيغفر لهم من أصحاب الكبائر مما دون الشرك.

وكذلك لا ينفي هذا أن ينسخ حكمًا من الأحكام، كما في قوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وفي قصة الإسراء أُمِر النبيُّ ﷺ بخمسين صلاة، وخُفِّفت حتى أصبحت خمسًا، ثم قال الله تعالى: «أمضيتُ فريضتي، وخفَّفتُ عن عبادي، وأَجْزِي الحسنةَ عشرًا»(١).

وفي رواية: «إنه لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، كما فرضْتُهُ عليك في أُمِّ الكتاب، قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

فكلُّ حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسونَ في أُمِّ الكتاب، وهي خمسٌ عليكَ»[1].

فهذا هو القول الأخير الذي استقر الأمر عليه، ولا نسخ بعده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: فهو تعالى أدخلهم النار بذنوبهم، وبعدما قامت عليهم الحُجَّة، ولو أن الله عاقبهم قبل أن تصلهم الحُجَّة ودلالات الرسالة لكان ذلك ظلمًا، وهو تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فهو نفي للظلم كله، كثيره وقليله، ولذلك قال سبحانه: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّمًا، فلا تظالَمُوا»[2].

والبيان هنا ظاهر في السياق في قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾، وآيات القرآن تنضح بهذا المعنى المهم الذي يقتضي مراعاة قيام الحُجَّة، وبلوغها على وجه يزيل المعذرة، وقد لا يحيط بهذا إلا الله، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص:٥٩]، وكما في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥]، وكما في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠].

* ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾:

القول هنا على سبيل التوبيخ والإهانة لأصحابها المستحقِّين لها، وتقول هي بلسان الحال أو بلسان المقال، والله تعالى على كل شيء قدير: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3].

والله تعالى قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان:١٢- ١٣]، وقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٧).

﴿بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٦- ٨].

فلا مانع أن يجعل تعالى لها يومئذ الإدراك والكلام، فكل الكائنات مسخَّرة بأمره، مذلَّلة لحكمه، ولا غرابة أن تسمع وتفهم، وترد وتقول، فهذا شأن مَن لا يعجزه شيءٌ، ومَن جعل الإدراك في البشر، وهو خلقهم أصلًا من تراب جامد لازب.

وسؤال النار سؤال يتضمَّن التقرير، **فيكون المعنى**: امتلأت ولا مزيد، **أو هو بمعنى**: طلب المزيد(١)، **وهو أقرب**، كما دلَّت على ذلك السنة المطهَّرة؛ أن يُلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد(٢)، والله أعلم.

* ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾:

في مقابل المشهد المُخيف من العذاب، وصورة الملائكة وهي تأخذ الكافر العَنيد، وتُلقيه في سواء الجحيم، يصوِّر تعالى الجنة وقد أُزْلِفت.

والإِزْلاف: التقريب للطائعين والمؤمنين(٣)، فلا يحتاجون أن يسيروا إليها مسافات طويلة، والجنة مكانها معروف، ولكن الله تعالى يزلفها بحكمته دون أن يتجشَّموا عناء المشي، وهذا من أمور الآخرة التي على المؤمن أن يسلِّم بها ولو لم يتصوَّرها عقله، ونحن نرى في فعل البشر اليوم من التسهيلات التي لم يخطر ببال أحد من السابقين، فما ظنك برب العالمين الذي لا يعجزه شيء؟

* ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾:

أي: هذا هو الوعد ترونه أمامكم(٤).

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٤٨، ٤٨٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠).

والله تعالى قد يؤخِّر «وعيده»، أو يعفو ويغفر لمَن يشاء، أما «**الوعد**» فهو ماضٍ نافذ.

قال عامر بن الطُّفيل[1]:

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَوْلَةٌ ... ولا أَخْتَنِي[2] مِن صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـيَ إن أَوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ ... لمُخْلِفُ إيعادي ومُنجِزُ مَوعِدي

فالله لا يخلف الميعاد: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف:١٦]، أما الوعيد على بعض الموحِّدين، كأصحاب الكبائر فقد ينفذه تعالى، وقد يعفو ويصفح، وهذا لا يدخل في ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾، فإن هذا من «**القول**» من قوله سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وقد يغفر للمؤمن المفرِّط وينجو من العذاب؛ إما برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بشفاعة الملائكة، أو بشفاعة إخوانهم، أو ببلايا ومصائب سلفت، أو بسكرات الموت، أو بأهوال يوم القيامة، أو بالكفارات، أو بما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ[3].

والأَوَّاب هو: الرَّجَّاع إلى الله كلما أخطأ[4]، أما **الحَفِيْظ** فهو: الذي يحفظ إيمانه من الذنوب، ويحفظ عهد الله وميثاقه[5].

(١) ينظر: «ديوان عامر بن الطُّفيل» (ص٥٨)، و«لسان العرب» (١/ ٦٣)، و«تاج العروس» (١/ ٢٠٧) «خ ت أ».

وينظر أيضًا: «عيون الأخبار» (٢/ ١٥٨)، و«المجالسة» للدينوري (١٨٩٦م)، و«ربيع الأبرار» (٢/ ٥٢).

(٢) اختتأ منه: استتَر خَوْفًا.

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٢)، (١٠/ ٦٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٧٨)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ١٠٢٩)، و«مجمل اللغة» (ص١٠٦)، و«لسان العرب» (١/ ٢١٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٣٥) «أ و ب».

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٥٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٩).

* ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾:

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢]، وهو يشمل خشية الله في الخلوة حين لا يكون بمَرْأى من الناس، وهو أدل على التقوى والإخلاص، ويشمل خشية الله مع أنه تعالى غيب لم يره، ولكنه آمن به من الخبر الصادق على ألسنة رسله عليهم السلام[١].

التفصيل في إثبات الغيب يزيد الإيمان، فإن الإيمان يزيد وينقص، ومن زيادة الإيمان: الإيمان بالتفصيل، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة: ١٢٤].

الإيمان المفصَّل أقوى وأعظم تأثيرًا في النفس، وأبعد عن أن ينساه العبد، وأبعد عن الشبهات، يزيد يقينًا بوجوده؛ لأنه يدرك أنه صار عالمًا مشهودًا لغيره، وإن كان لا يزال عالمًا غيبيًّا، فالقياس هنا مع الفارق.

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾: الإِنَابَة هي: التوبة والإقبال على الله[٢]، كما في قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص:٢٤]، والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر «الأَوْبَة»، و«الإِنَابَة»؛ مما يشير إلى أن من طبيعة الإنسان أن يتفلَّت قلبه، ويقع منه زلل في سمعه، أو بصره، أو لسانه، أو في فرجه، وكما قال النبيُّ ﷺ: «استقيمُوا ولن تُحْصُوا»[٣]. وفي الحديث الآخر: «سَدِّدُوا وقارِبُوا،

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢)، وما سيأتي في «سورة الملك».

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٥٤)، وأبو عبيد في «الطهور» (١٩)، وأحمد (٢٢٣٧٨، ٢٢٤٣٦)، وابن ماجه (٢٧٧)، وابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/ ١٣٠)، والبيهقي (١/ ١٣٢، ٦٧٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٦٨): «يُروى بإسناد ثابت عن ثوبان عن النبي ﷺ». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٣٢- ٢٣٣)، و«إرواء الغليل» (٤١٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١١٥).

واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغوا»(١).

وهي توجيهات نبوية بضرورة الاعتدال، وأن على المرء أن يعرف نفسه وتكوينه وطبيعته، فربكم أعلم بكم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

* ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾:

وفي السياق تناسق عجيب! ثمان فقرات في غاية التناسق:

بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾، فهذه هي الكرامة الأولى؛ حيث أُدنيت لهم الجنة.

ثم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، فهذا النعيم هو الوعد الحق الذي وعدكم تعالى به في الدنيا.

ثم بيَّن لهم ثالثًا أن هذا من فضل الله، وببركة أعمالهم، وفي ذلك إشادة بهم وتكريم ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾: ويا لفرحتهم بهذا الفوز والتكريم.

ثم قال لهم خامسًا: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، فدخولهم هو نهاية الآلام والمعاناة إلى السَّلام المُطلق، فالله يسلِّم عليهم، والملائكة تسلِّم عليهم، وأصحاب الجنة يسلِّم بعضهم على بعض.

ثم قال لهم سادسًا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾، فخلودهم أَبَدي سَرْمدي، ليس ثمة خوف من الموت، كما كان الأمر في الدنيا، والجنة وأهلها خالدون بإجماع المسلمين، بلا تحول ولا زوال(٢).

ثم قال لهم سابعًا: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ من الرزق، وكل ما يخطر على البال،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

أو يمر في الخيال.

ولهم الكرامة الإلهية بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع حديثه، وما في الجنة من ألوان النَّعيم الذي لا تحيط به عقول أهل الدنيا، فهذه ثامنة الفقرات المتتابعة المتصاعدة في الفضل والنعيم، عبَّر عنها بقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾، والفضل الإلهي: «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[1].

والمَزِيد هنا يشبه ما في «سورة يونس»: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2] [يونس:٢٦].

* ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ ممن سلف وذُكر، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: أقوى من قومك العرب أهل مكة وما حولها بأجسامهم، ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: إما أن هذه الأمم التي أهلكها سبحانه كانوا إذا نزل بهم العذاب ذهبوا يبحثون عن مهرب أو ملجأ من عذاب الله، فلا يجدون[3]، فالله تعالى يقول لقريش الذي عُرف عنهم رحلة الشتاء والصيف وكثرة التنقل: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟ هل من مهرب من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ؟ وهو كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾[4] [الأنبياء:١٢].

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٤٧٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «قال الله: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالِحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر».

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٧)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٨- ٤٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٣٤)، (٢١/ ٤٦١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤٣٩)، (٥/ ٣٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٥)، (٧/ ٤٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٥).

* ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾:

هذا الوصف البَلِيغ الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله ذكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، وفيه تحريض على التَّذَكُّر، وإحياء القلوب، وتعريض بذلك النوع من البشر الذي لا يعتبر بما حوله من آيات ونُذُر، ولا بما حكاه الله في كتابه من عبر ومآلٍ للغابرين، فكأنه حين لم يعتبر، ولم يتأثَّر صار بلا قلب، والقلب ولو كان ضعيفًا أو مريضًا، فإنه قد يحيا ويعتبر بالآيات والنُّذُر، وقد تكون سببًا في هدايته ورجوعه إلى الله؛ لكن إذا كان بلا قلب فأي حيلة فيه، والعبرة ليست بوجود هذه المضغة، وإنما بتوظيفها في الاعتبار والإنابة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: صوَّر «السَّمْع» بأنه شيء يُلقى؛ بحيث لا يصرفه شيء عن «الاستماع»، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر[1].

وهذا دليل على عظم تأثير «الصورة» مع «السمع»؛ حيث ذكر «القلب» المعبِّر عن الوعي واليقظة، ثم ثنَّى بذكر حاسَّة «السمع» مع «الشهادة»؛ وهي المشاهدة والرؤية، والناس اليوم يقولون: حدَّثني وسوف أنسى، أرني وقد أتذكر، أشركني وسوف أحفظ، فإذا كان ثمة شراكة بين الصوت والصورة، بين الأذن والعين، فإن الإنسان لا ينسى!

فمتى سمع بأذنه، ورأى بعينه، أو تخيَّل ما لا يمكن رؤيته؛ كان ذلك من الذِّكْرى الحسنة له، ولذا قال ﷺ: «**الإحسانُ: أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراكَ**»[2].

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

عود على ما ذكره أول السورة من الدعوة للاعتبار بالسماوات والأرض؛

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٦)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«إيجاز البيان» (٢/ ٧٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لتأكيد المعنى، ولنفي الشبهة التي قالها اليهود، وربما تسلَّلت إلى بعض الوثنيين من العرب؛ وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السبت(١)، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: ما أصابه تعالى عجز أو تعب بسبب الخلق(٢)؛ لأن فعله ليس معالجة، كما يحدث من البشر الذين يعملون بأيديهم ويتعبون ويَجْهَدُون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

واللُّغُوب هو: أقل درجات التَّعَب(٣)، ونفي القليل يتضمَّن نفي ما فوقه.

* ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ عن الله، أو عن البعث، أو عنك بوصفك: ﴿سَٰحِرٌ﴾، ﴿كَاهِنٍ﴾، ﴿شَاعِرٍ﴾، ﴿كَذَّابٌ﴾(٤)، وقد أعطاه الصبر والثَّبات والاستمرار على الطريق؛ وهي التسبيح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٧- ٩٩].

وقد علم تعالى أن الرسول ﷺ يضيق صدره بما يقولون؛ من وصفه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، أو أنه يكتتب أَساطير الأولين، أو يريد المجد أو المُلك أو المال أو العلو في الأرض، فهذا أمر مؤلم ومؤذٍ لنفس طاهرة زكيَّة

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢٩٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩).

(٢) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩)، و«تفسير الجلالين» (ص٦٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٥٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩). وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (٥/ ٢٥٦)، و«لسان العرب» (١/ ٧٤٢) «ل غ ب».

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٧٥)، وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

كريمة، لا تَحمِل للناس إلا الخير والجميل، وأشد ألمًا منه حرمانهم أنفسهم من الخير والإيمان والتصديق، وإصرارهم على التكذيب، وتأثيرهم على البُسطاء والدَّهْمَاء من الناس؛ بالدِّعايات المزيَّفة، والأقاويل المزخرفة التي يروِّجونها ويردِّدونها حتى يتناقلها العامة، ويتظاهرون بتصديقها، كما يحدث في الحملات الإعلامية الموجهة المُغْرضة التي تستهدف شخصًا أو جماعة.

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾: فربك يعلم ما يقولون ويطَّلع عليه، ويوصيك بأن تصبر عليه، وإذا تصبَّرت فإن الله سيزيدك صبرًا ويثبِّتك، فلا يقع لقلبك ضعف أو تأثر أو حزن يصرفك عن تبليغ رسالات الله تعالى.

والصَّبْر ضروري للنجاح في الحياة كلها، وبخاصة مَن يخالط الناس ويدعوهم، ويحاول تغيير سلوكهم وواقعهم، وكما قال ﷺ: «مَن يتصبَّر يُصَبِّره اللهُ، ومَن يستغن يغنه اللهُ»[1].

وقد أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بالصبر في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠]، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٥- ٧]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ [طه: ١٣٢].

والداعية الذي لا صبر له لا يمكن أن يستمر على دعوته، ولا شيء يُقَوِّي صبر المؤمن مثل أن يستمد العون من ربِّه؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]، فوظيفة الرسول تتلخَّص في النِّذارة والتذكير والتبليغ، أما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اهتداء الناس أو عدمه فهذا شأن ربِّ العالمين: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، والمؤمن لشدَّة غيرته وفرط حماسه وإشفاقه يصيبه همٌّ شديد، ويحزن لما يجد حين يدعوهم إلى النَّجَاة، ويدعونه إلى النَّار، ويواجهونه بالكيد والحرب والتكذيب، فالله تعالى يسلِّيه ويعزِّيه، ويأمره بأن لا يحزن عليهم، ولا يضيق صدره بهم، ولا ييئس بما يفعلون ويمكرون، وأن لا تذهب نفسه حسرات عليهم.

وهذا سرٌّ من أسرار المداومة على الطريق؛ فإن مَن غلبه اليأس والحزن والكآبة من فعل الناس، وتأثَّر بالصدمات التي تواجهه سَرْعان ما يستحسر ويضعف، ثم يتراجع ثم يتوقَّف وينكفئ، وينعزل وهو يرى أن لا فائدة في الإصلاح، ولا أمل في التغيير.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: والتسبيح يمنح المؤمن طاقة هائلة، وكثيرًا ما يُوْصِي ﷺ بالتسبيح[(١)].

والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى عما لا يليق به[(٢)]، وهي عبادة تنعكس على العابد نفسه، فكلَّما نزَّهت الله وسبَّحْته كان ذلك تنزيهًا لنفسك من أدران الذنوب والعيوب، والنقائص والمعاصي، فترتقي إلى القدسية أو تقترب منها؛ ولعل المقصود هنا: الصلاة[(٣)]، بما فيها من قراءة الفاتحة التي فيها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فيكون المعنى: صلِّ لربك؛ لأن الصلاة يجتمع فيها القرآن والإحرام بالصلاة والذكر والتسبيح في الركوع والسجود والحمد في القيام، وما ﴿قَبْلَ طُلُوعِ

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشتكت ما تَلْقَى من الرَّحَى في يدها، فسألت النبيَّ ﷺ خادمًا، فأوصاهما بالتكبير والتسبيح والتحميد، وقال: «هو خير لكما من خادم».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، و«سورة الحشر»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٣٩٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٦).

ٱلشَّمۡسِ﴾: صلاة الفجر، ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾: صلاة الظهر والعصر[١]؛ حيث يجمعهما وقت واحد؛ وهو ما بعد الزوال، ولذلك يجوز للمسافر والمريض والمحتاج جمع الصلاتين[٢].

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: فهذه صلاة المغرب والعشاء[٣]، فالآية جمعت أوقات الصلوات الخمس، مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم:١٧- ١٨]، ويدخل في الليل: التهجد والقيام الذي كان فرضًا على النبي ﷺ، وهو مشروع لأمته[٤].

﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: الوتر، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٥].

والفرق بين «**أدبار السُّجود**» المذكورة هنا، وبين «**إدبار النُّجوم**» المذكورة في «سورة الطُّور»: أن «**إدبار النُّجوم**» يعني: مغيبها، فيكون المقصود: صلاة الفجر[٦]؛ لأنها في آخر الليل، أما «**أدبار السُّجود**» فهو: جمع دُبُر، ودُبُر الصلاة: آخرها قبل التسليم، ويشمل ما بعد التسليم[٧]، فالأدعية التي تُقال دُبُر الصلاة منها ما هو قبل السلام، ومنها ما هو بعده مباشرة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٣٩)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٢٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٧).

(٢) ينظر: «فقه العبادة» (٢/ ٤٢١، ٤٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٧).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ...﴾ [المزمل:٢٠].

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢٨).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤١)، وما سيأتي في «سورة الطور».

(٧) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص١٥٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٢٢٩).

وهي دعوةٌ إلى النَّوَافِل التي تصلَّى عقب الفريضة[1]، وكذلك صلاة الوتر التي أقلها واحدة، وأدنى الكمال فيها ثلاث[2]، والسنة أن يجعلها إحدى عشرة أو ثلاث عشرة ركعة، فإذا طال الوقت مَدَّ، وإذا قصر اقتصر وصلَّى العدد، فجَمَعَ الأمر: الصلوات الفريضة، والنوافل التي تكمِّلها وتجبر نقصها.

* ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ فالأمر لن يطول، وإذا كنت تسمع منهم ما يؤذيك سماعًا عابرًا من غير قصد، فعليك أن تصيخ بأذنيك، وتلقى بسمعك، وتتحرَّى تلك اللحظة الموعودة الآتية بلا ارتياب؛ لحظة النَّفْخ في الصُّوْر.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: قريب منكم، والمنادي هو المَلَك الموكَّل، وهي النفخة الثانية التي ترتدُّ بها الأرواح إلى أجسادها؛ لأن هذا هو المقصود الأكبر؛ أن يُبعثوا ويُحاسبوا ويُحاكموا ويفصل بينهم[3].

وقد يرد الوعيد عليهم بالصيحة الأولى؛ التي هي نفخة الموت والهلاك والدَّمار، ولكل منهما مناسبته.

فالمناسب للتعزية والتسلية ذكر النفخة الثانية؛ نفخة البعث والخروج، والمناسب للاغترار بالقوة والبأس وللتجبر والتكبر ذكر النفخة الأولى للهدم والدَّمار.

* ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ويوم الخروج أصبح علمًا على يوم القيامة، أي: خروج الناس من قبورهم[4].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٨٠)، و«صحيح مسلم» (٧٢٨، ٧٢٩).

(٢) ينظر: «المغني» (٢/ ١١١)، و«المجموع» (٤/ ١١ - ١٢)، و«فقه العبادة» (٢/ ٣٠١، ٣٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦)، وما تقدم في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٦٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣١).

* ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾:

فذكر الخلق الأول، ثم الموت، ثم البعث، وأنه شأن الله تعالى وحده.

والإنسان كان عدمًا، ثم أحياه الله، ثم يميته، ثم يبعثه ليوم القيامة.

* ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿تَشَقَّقُ﴾: فعل مضارع، أصله: «تتشقق»، ومن الإعجاز هنا الجمع بين «التشقق» الذي هو فعل تدريجي بخلاف «الانشقاق» فهو دفعة واحدة، وبين «السُّرْعَة»: ﴿سِرَاعًاۚ﴾، فهو تدرج سريع، يشبه ما يحدث من تشقق الأرض في الدنيا عن النبات، وتفتحها لخروج الزرع عقب المطر، فالناس ينبتون كما تنبت الحبة حين تتحوَّل إلى ورقة ثم شجرة.

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: فمهما كثروا وعبروا القرون، وتآكلت أجسادهم، فالأمر هيِّن، وهو واقع لا محالة[1].

* ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ لك وما يضيق به صدرك، وما أمرناك بالصبر عليه، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾: لا تجبرهم على الإسلام؛ فلا إكراه في الدِّين[2]، وإنما الأمر دعوة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وأنت عبدٌ متواضع لربِّك، لست بمتكبِّر أو متعاظم، وهما معنيان متقاربان، وكان ﷺ يدعو الناس بالحسنى، ويكره التَّجبُّر، ولا ينتقم، ولا يغضب لنفسه[3].

والتَّجَبُّر مما يُعاب به، حتى ولو لحاكم أو وجيه، ولذلك قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله كره لنبيِّكم ﷺ الجَبْرِيَّة»[4]. أي: أن يكون جبَّارًا، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٧)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٦٦١).

بِجَبَّارٍۖ﴾، فكان ﷺ يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون في مهنة أهله، ويعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، فكونوا كما أمركم نبيكم ﷺ.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ آخرها ياء المتكلم، أي: مَن يخاف وعيدي[1]، ولكن يوقف عليها بالسكت.

وهكذا تنتهي السورة العظيمة التي جاءت في مساق واحد، وكانت موعظة بليغة مُزَلزِلة مُجَلْجِلة، ولذلك كان ﷺ يقرؤها في صلاة الفجر[2]، وفي صلاة العيد[3]، وعلى المنبر يوم الجمعة[4]؛ لما فيها من أصول الدِّين العِظَام، ومن العبر والْعِظَات[5].

ooo

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٦٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٦).

(٢) كما جاء في «صحيح مسلم» (٤٥٨) من حديث جابر بن سَمُرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما جاء في «صحيح مسلم» (٨٩١) من حديث أبي واقد اللَّيْثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر ما سيأتي في أول «سورة القمر».

(٤) كما جاء في «صحيح مسلم» (٨٧٢) من حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن، عن أخت لعَمْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر: «سبل السلام» (١/ ٤٠٤)، و«مرعاة المفاتيح» (٤/ ٤٩٨).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

*** تسمية السورة:**

اسمها: «سورة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير(١).

ومن أسمائها: «سورة الذَّاريات»، بدون قَسَم، كما في «جامع الترمذي»، وكتب التفسير، وأكثر المصاحف؛ لأن هذا اللفظ لم يرد إلا فيها(٢).

*** عدد آياتها:** ستون آية بغير خلاف(٣).

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين(٤).

* ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾:

بدأ سبحانه السورة بالقَسَم بأربعة أشياء، يمكن أن نفهمها على أنها تَدَرُّجٍ وترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى(٥):

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٣٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٢٥)، و«جامع الترمذي» (٤٢، ٢٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢٣).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٢)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٥٩١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣).

(٥) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤).

* ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾: والمقصود بـ«الذاريات»: الرِّياح بأنواعها(١).

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى أن الرِّياح ذاريات، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، فأقسم بها وهي تذرو الأشياء ذَرْوًا(٢).

* ثم ترقَّى إلى ما هو أعلى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾: وهي: السَّحاب تحمل المطر ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾(٣) [فاطر: ٩]، وكأنها حيَّة تحمل على ظهرها وِقْرًا- أي: ثقلًا- من الخير لطالبيه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾(٤) [الرعد: ١٢].

وقيل: «الذاريات» و«الحاملات» هي النِّساء الوالدات؛ لأن الذُّرِّيَّات تخرج من أرحامها، وهي تحمل أجنتها(٥).

وهذا القول فيه ضعف، لكن وصف الرِّياح بـ«الذاريات»، ووصف السَّحاب بـ«الحاملات» يضفي عليها شيئًا من الحياة والمشاركة في عوالم الإنس والجان.

* ثم انتقل إلى ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾: وعلى هذا تكون «الجاريات» هي النجوم في كثرتها وتنوعها وضخامتها وتعدّدها وحركتها.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦١٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٧٢)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٠٩).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، والمصادر السابقة.

(٤) وقيل: الحاملات هي: الرِّياح يحملن وِقْرًا بالسَّحاب. قال الماوردي: «فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب؛ لأن أمام كل سحابة ريحًا، والريح الثانية حاملة السحاب؛ لأن السحاب لا تستقل ولا تسير إلا بريح، وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط». ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٦)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٧٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٨٩).

والأكثر أنها: السفن، تجري بالرِّيح، ميسَّرة في الماء جريًا سهلًا إلى حيث سُيِّرت[1].

وقد ورد وصف النجوم بـ«الجاريات»، كما في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾[2] [التكوير: ١٥-١٦].

والغريب التعبير بقوله: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾﴾ مثلما قال: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾؛ لأن جريان النجوم سهل يسير، فهي مسخَّرة تتحرك بإرادة الله وقدرته، وقد يراها الإنسان أو لا يراها، والعرب يعرفون شيئًا من هذا العلم مما توارثوه، والعلم الحديث صنع ثورة هائلة في عالم الفضاء وكشوفه واستخداماته ومجاهله.

* ثم ترقَّى إلى ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾﴾: وعلى هذا فهي: الملائكة[3].

وقد ورد وصف قريب من هذا للملائكة، كما في «سورة النازعات»: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾﴾[4].

و«الملائكة المُقَسِّمات» تختلف عن بقية الأشياء التي أقسم تعالى بها.

فالثلاث الأُوَل جمادات، والملائكة أحياء، وفيها اختلاف آخر، وهو أن الملائكة عالم غيبي لا يُرى، في حين أن «الذاريات» و«الحاملات» و«الجاريات» محسوسات.

وفي هذا سرٌّ لطيف، وهو الترقِّي من المعلوم إلى المجهول، فتدرَّج السياق بهم يذكر السحاب ثم الرِّياح ثم النجوم؛ ليقول لهم: إن هذه الحركة ليست اعتباطية، وإنما هي حركة منظَّمة يقوم عليها ملائكة مختصون؛ فمنهم الموكَّل بالنبات، ومنهم الموكَّل بالمطر، ومنهم الموكَّل بالوحي، ومنهم الموكَّل بالأرواح

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

ومنهم الموكَّل بالقتال، ومنهم الموكَّل بأمور الجنة أو النار... وهم عدد كبير لا يحصيه إلا الله، وفي هذا القَسَم تدرُّج، وتقديم الأيمان بقالب سهل؛ يبدأ بما هو مشهود، ثم ينتقل للمجهول؛ ليعلم أن ثمة عالَمًا آخر لا يُرى بالعين، هو عالم الملائكة.

الاحتمال الثاني في تفسير القَسَم: أن يكون شيئًا واحدًا، ولكن على حالات عدة، فهو قَسَمٌ بالرِّياح، أقسم بها مرة باعتبارها «ذارياتٍ» تذرو الهَشِيم، ومرة باعتبارها «حاملاتٍ» للسَّحاب، ومرة باعتبارها «جارياتٍ» بأمر الله، ومرة باعتبارها «مُقسِّماتٍ» جعلها تعالى سببًا في قسمة الأرزاق على الناس والبقاع(١).

أو يكون المقصود السَّحاب، أقسم به مرة باعتباره ذاريًا متفرِّقًا في السماء ثم يتجمَّع، ومرة باعتباره حاملًا للمطر، ومرة باعتباره يجري جريانًا يسيرًا سهلًا، كما قال الأعشى(٢):

كأنَّ مِشيَتَها من بَيتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ

ومرة باعتبارها مُقسِّمات للمطر، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩- ١١].

وفي الآيات احتمال ثالث: أن يكون القَسَم صالحًا لكل ما يحتمله اللفظ؛ ولذلك ذكر تعالى الصفة ولم يذكر الموصوف، فلم يقل: «والرياح الذاريات»، ولا قال: «السحاب الذاريات»، وإنما قال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، وهذا أجمل وأوسع، فحينما يقسم تعالى بـ«الذاريات» فهو يشمل السحاب والرِّياح وغيرها، و«الحاملات» تصدق على السحاب وعلى الرياح وعلى السفن، وكذلك «الجاريات»، و«المُقَسِّمات» تصدق على الملائكة والرياح والسحاب وغيرها.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٨)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص٥٥).

وبعضهم لم يراعِ التدرُّج والترتيب، فقالوا: «الذاريات» هي: الرياح، و«الحاملات» هي: السحاب، و«الجاريات» هي: السفن، والمُقَسِّمات هي: الملائكة[1].

وللرِّياح تأثير كبير في حياة الإنسان والنبات، وسُمِّيت: لواقح، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، واللَّواقح تحمل الخير والمطر[2]، وتُرسَل عذابًا يُهلَك به المكذِّبون، وكل النِّعَم التي أعطاها الله للإنسان يمكن أن تستحيل نقمةً أو عذابًا إذا لم تُشكر.

* ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾:

أصل ﴿إِنَّمَا﴾: «إن» و«ما»، أي: إن الذي توعدون لواقع، بخلاف ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي كلمة حصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمعنى: إن الشيء الذي توعدونه سوف يقع. وكأنه أقام الوعد مقام الإنسان الذي يَصْدُق، والمقصود: أن الوعد صِدْقٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦﴾[3] [الأحقاف: ١٦].

ويحتمل أن يكون من الوعد، فهو الوعد الطيب؛ لأن الوعد غالبًا يُطلق على الخير[4].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٢/ ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٣)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٦٣٣ - ٦٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٣)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ١٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٤٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٢٤٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٧٦)، والمصادر السابقة.

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَولَةٌ ... ولا أَخْتَتِي[1] مِن صَولَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـيَ إن أَوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ ... لَمخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي[2]

أو يكون المقصود: الوعيد، ويعبِّر به عن التهديد بالشيء المكروه؛ ولذا جاء الوعد بالجنة والوعيد بالنار، والوعد بالرضا والوعيد بالسخط، والوعد بالمغفرة والوعيد بالأخذ، فالآية تحتمل أنها للوعد الحسن إذا حملنا «توعد» على: تعطى وعدًا، ويحتمل أن تكون وعيدًا فيكون معنى ﴿تُوعَدُونَ﴾ أي: تتوعَّدون به.

والأقرب شمولها للمعنيين؛ لأن السورة كانت خطابًا لمشركي مكة، وخطابًا للنبي ﷺ والمؤمنين معه، ففيها الوعد وفيها الوعيد؛ ولذلك جاء في السورة الحديث عن الجنة والحديث عن النار.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾: ﴿الدِّينَ﴾: الجزاء، وقولهم: يدينه، أي: يجازيه[3].

والمعنى: أن المجازاة والفصل بين الناس وإيصال الحقوق لأصحابها ومعاقبة المكذِّبين ومجازاة الطائعين، كل ذلك واقع لا مرية فيه[4].

وليس في الآيتين تكرار، والأقرب أن الآية الأولى تتعلَّق بوعد الدنيا ووعيدها، والثانية تتعلَّق بوعد الآخرة ووعيدها[5]، فكل ما وعد الله تعالى به المؤمنين فهو وعد صادق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، ووعدهم تعالى بعز هذا الدين ونصره، وأن يبلغ ما

---

(١) اختتأ منه: استتر خوفًا.

(٢) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٢)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٤٩)، و«روح البيان» (٩/ ١٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٣٩)، والمصادر السابقة.

بلغَ الليلُ والنهارُ(١)، والوعد بالحياة الطيبة لمَن آمن وعمل صالحًا، وهناك وعيد الكافرين بالأخذ والعقاب إن لم يؤمنوا، فذلك كله سوف يقع في الدنيا، وكذلك الدين الذي هو الجزاء الأخروي، فهو واقع أيضًا.

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾:

العادة أن يأتي ذكر السماوات بالجمع ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وهنا أقسم بـ«السماء»، وكأن المقصود جنس السماوات، أو السماء الأولى التي تلينا مما يراه الخلق، أو المقصود: كل ما علا وارتفع(٢).

وفي تفسير ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ أكثر من خمسة أقوال:

١ - منها قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن المقصود بـ﴿ٱلْحُبُكِ﴾: الحُسن والجمال(٣).

٢- الزينة في السماء، وهو قريب منه(٤).

٣- الطرائق، كما هو شأن ماء البِركة إذا قُذف فيها بحجارة تصبح طرائق، وكذلك الرِّمال في الصحراء إذا ضربتها الرياح أصبحت طبقاتٍ بعضها إلى جوار بعض، فهذه يسمونها حُبُكًا(٥).

---

(١) كما عند أحمد (١٦٩٥٧)، والحاكم (٤/ ٤٣٠)، وغيرهما، من حديث تميم الدَّاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣، ٢)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩١)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٠)، والمصادر السابقة.

٤- الشدة والقوة[١]، ومنها يقال: الحَبْكة، وحَبَكَ الكتابَ، وحَبَكَ القولَ، إذا كان محكمًا مضبوطًا، وحتى المؤامرة يقول الناس: قد حَبَكَ فلانٌ مؤامرةً، إذا أتقنها ولم يدع فيها ثغرة[٢]، فيكون المقصود إذًا: الإتقان والضبط والقوة.

والقوة في الجمال، كما أن الجمال في القوة، فهو هنا قريب من قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾[٣] [الملك: ٣].

* ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾:

خطاب لكفار قريش الذين قالوا عنه ﷺ: إنه ساحر وشاعر وكاهن، وعلى اختلاف ما قالوه فهو قول واحد في مآله يجتمع على الكفر، وهو مختلف، وهذا سر التعجيب منهم والقَسَم عليهم، فأقسم تعجيبًا من حالهم، فهم في غاية التناقض، وقولهم مضطربٌ فاسد؛ ولهذا امتن الله بكون القرآن كلامًا منضبطًا يُصدِّق بعضُه بعضًا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

والأَفْك هو: الصَّرْف، يقال: إنسان مأفوك، أي: مصروف، **والصحيح أن المقصود**: يُصرف عن الإيمان مَن لم يشأ الله تعالى له الهداية[٤].

ويحتمل أن يكون المعنى: يُصرف عن الحقِّ بسبب هذا القول الذي تقولونه[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ٤٠٧)، و«تاج العروس» (٢٧/ ١٠٤- ١٠٥) «ح ب ك».

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٣/ ٥٦٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٢)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩٢)، والمصادر السابقة.

أي: بسبب قولك، أو من أجل قولك[1]، فهكذا هنا، يُؤفك بسبب هذا القول المختلف؛ لأن كفار مكة كانوا يتصدون لمَن يدخل مكة، وقد تقاسموا أطرافها فيقولون: خرج عندنا رجل صابئ غيَّر ديننا وسبَّ آلهتنا وشتم أجدادنا وفرَّق جماعتنا، وإنه مريض، ونحن نطلبُ له الطب.

ويأتي آخر فيقول: إنه ساحر، له زَمْزَمة[2] يفرِّق بين المرء وزوجه.

وآخر يقول: إنه شاعر، له رَجَزٌ وله قَصِيد.

ورابع يقول: إنه كاهن، عنده كلام الكُهَّان وأقاويلهم.

فلا يزال الناس يسمعون هذا الكلام حتى وصل الحال ببعضهم إلى أن يضع القطن في أذنه حتى لا يتسرَّب إليه شيء من كلام رسول الله ﷺ، فيُصرَفون عن الإيمان بهذا التشويه الذي مارسه كفار مكة[3].

* ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾:

والقتل لا يُقصد به معناه الذي هو الذَّبح، وإنما هو في جاري لغة العرب: اللَّعن[4].

وهذا إذا كان دعاء عليهم، فالدعاء من الله تعالى واجب واقع[5]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وإنما لعنهم؛ لأنهم خَرَّاصون، والخَرْص معروف المعنى، وهو: أن يخوض المرء في شيء لم يتثبت

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٤٥)، و«تفسير السمعاني» (٢/ ٤٣٥)، و«روح المعاني» (٦/ ٢٧٩).

(٢) أي: كلام خفي لا يُفهم.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، و«سورة المدثر»: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾، و«سورة النبأ»: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾، و«سورة التكوير»: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.
وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (٧/ ٦٠)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١) «ق ت ل».

(٥) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٥) «ق ت ل».

منه[1].

والله تعالى يربِّينا في هذه الآية الكريمة على التحرِّي والتثبُّت؛ لأنه سبحانه لعن الذين يتخرَّصون زُورًا وكذبًا، ويتكلمون بغير علم، ولا حجة ولا هُدى ولا كتاب منير.

وهل كل خَرْص مذموم؟

الخَرْص جاء في الشريعة في أشياء مادية، مثل: خَرْص النخل، وهو: أن يُقدَّر ما تحمله النَّخيل من التمر، دون أن يُوزن أو يُكال، بناءً على الخبرة، فهذا مشروع للحاجة؛ لأنه في حال لا يمكن فيه إلا الخَرْص[2].

أما المذموم فهو كلام الإنسان في أمور لا يملك فيها خبرة، كالخَرْص في قضايا الاعتقاد، ومسائل الدار الآخرة والغيبيات التي هي موقوفة على الوحي، كالجنة والنار والإلوهية والبعث والحساب، هذه قضايا أصول لا ينبغي للإنسان أن يقول فيها بناءً على مجرد الخَرْص ولا التَّخْمين، بل ولا مجرد النظر العقلي إذا لم يكن عنده خبر من الوحي.

* ولذا وصف الخرَّاصين بالغفلة في الآية بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾:

الغَمْرة: ما يغمر الإنسان، فيغطِّيه ويغلب عليه[3]، فهم غافلون عن الإيمان،

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٣)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (٧/ ٢١)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥٤٥) «خ ر ص».

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ١٩٢).

وينظر أيضًا: «العين» (٤/ ١٨٣)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٥٨٥)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١) «خ ر ص».

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٥٤٥)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٨/ ٣٥٠)، و«فتح القدير» (٢/ ١٦٠).

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (٥/ ٥٢٠)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٩) «غ م ر».

وهذا ما يسمى بكفر الإعراض.

والله تعالى يذكر من المشركين مَن كفروا وجحدوا عن علم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ويذكر عن طائفة أخرى حالًا آخر، فيقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فثَمَّة مَن يكون كفره بسبب الجهل، وكم من كافر كان يجهل الإسلام وحقائقه، فلما بلغته الحجة أسلم، كما ذكر تعالى عن الجنّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] [الأحقاف: ٢٩].

* ولعل القَسَم في أول السورة هو لمعالجة هذا الإعراض؛ حيث فِئام من الناس مشغولون بالكَدْح في طلب المعيشة، ولا وقت لديهم لأن ينظروا ويبحثوا فهم غافلون، ويأتي القَسَم ليصدم عقولهم، فهم ساهون معرضون إذا حُدِّثوا عن الآخرة حوَّلوا الجِدَّ إلى هزل، وطفقوا ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾:

يتساءلون: متى هو؟ سؤال الساخر الهازل، لا سؤال المسترشد!

والسؤال عن الوقت يدل على قلة الاهتمام؛ فليست القضية: متى يوم الدِّين، بل: ماذا أعددتَ ليوم الدِّين الذي هو آتٍ لا محالة؛ ولأنه سؤال استهزاء ولا مبالاة لم يجبهم على السؤال.

وقد جاء الجواب في غير هذه السورة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٥]، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]. **هذا جواب.**

وثمة جواب ثانٍ، وهو أن يقال: إن الساعة بالنسبة لكم هي اللحظة التي

---

(١) وينظر ما سيأتي في «سورة الجن».

تغادرون فيها الدنيا: «مَن مات، فقد قامت قيامته»[1].

* ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾:

لما كان السؤال سؤال سُخرية، أُجيب بالوعيد والتهديد، ولم يقل تعالى هنا: «يوم هم في النار يُفتنونَ». فكأنهم كانوا مقبلين على النار ولمَّا يدخلوها بعد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فهذا نوع من العذاب، أنهم يُعرضون على النار و﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُحرقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة: الاختبار[2].

ويمكن أن يكون مجرد رؤية العذاب وانتظاره هو فتنة بالنسبة لهم، وهذا يناسب الفتنة التي كانوا يفتنون بها المسلمين، كما وقع لبلال وعمار وصُهيب وسُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[3].

* ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾:

وقد كانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦]، ويطلبون

---

(١) رُوي من قول المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٣/ ٩٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٨- ٤٦٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٨٢).

ومن قول زياد بن عبد الله النُّميري. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٦٨).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٤٣٦)، و«المقاصد الحسنة» (ص٦٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١١٦٦، ٥٤٦٢).

ومعناه في «صحيح البخاري» (٦١٦٧، ٦٥١١)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٢، ٢٩٥٣) من حديث أنس وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رجالٌ من الأعراب جُفاةً يأتونَ النبيَّ ﷺ فيسألونه: متى الساعةُ؟ فكان ينظرُ إلى أصغرهم، فيقولُ: «إن يعشْ هذا، لا يدركْهُ الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعتُكم». يعني موتهم.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٥- ٤٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣١٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ١٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٦٥)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾.

العذاب، ويقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، فها أنتم ترون عيانًا ما كنتم تطلبونه عاجلا[١]!

* ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾:

أهل الإيمان متفاوتون في التقوى، فمَن اتَّقى الكفر فله نصيب منها، والذي يتجنب صغائر الذنوب واللَّمم والمتشابهات التي لا يعلمهن كثيرٌ من الناس رغبةً في أن يكتبه الله تعالى في المتقين، هو في الذِّروة العليا منها.

* ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾:

وعطاء الله متجدِّد لا ينتهي أبدًا، كلما نالوا منه تجدَّد لهم.

ومن معاني ﴿آخِذِينَ﴾: راضين بما أعطاهم ربُّهم[٢]، واللهُ تعالى يقول لهم: «يا أهلَ الجنة. فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعديْكَ، والخيرُ في يديك. فيقولُ: هل رضيتم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أَلَا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»[٣]. قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: أي: في الدنيا، على القول الراجح[٤]، فوصفهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٣٨)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٧٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٧٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠).

بالإحسان، وهو نوعان: إحسان في عبادتهم لربهم، وإحسان إلى الخلق[1].

* وبدأ بالإحسان الأول، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾:

يحتمل أنهم لا ينامون من الليل إلا ﴿قَلِيلًا﴾، والنبيُّ ﷺ كان ينام إلى نصف الليل أو قريبًا من ذلك، ثم يقوم يصلِّي ويُوتر، ثم يضَّطجع حتى يأتيه المؤذِّن[2]، وأخبر أن أحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[3]، وهذا أكمل الأوصاف، ولم يقم النبيُّ ﷺ ليلةً كاملة حتى الصباح[4]، ولا كان أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفعلون ذلك، وإنما هذا وُجد فيمَن بعدهم.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾: «لم يكن يمضي عليهم ليلةٌ إلا يأخذونَ منها، ولو شيئًا»[5].

وهذا من أحسن الأقوال: أنهم لا ينامون ليلةً كاملةً دون أن يكون لهم فيها حظ من القيام، فيقوم الواحد منهم ما شاء الله تعالى له أن يقوم، ثلث الليل، أو ربعه، أو خمسه، أو سدسه، أو عشره، أو يصلِّي وتره؛ ولذلك قيل: إنهم كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء[6].

وحريٌّ بمَن صلَّى العشاء في جماعة، ومَن صلَّى الفجر في جماعة أن يكون له نصيب من هذه الآية، كما قال النبي ﷺ: «**مَن صلَّى العشاءَ في جماعة، فكأنما**

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٦/ ١٧٨- ١٧٩)، و«تفسير السعدي» (ص٨٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٤٨)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١٨٣، ٨٥٩، ٩٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ قامَ ليلةً حتى الصباح». أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٣).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٠١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٢)، والمصادر السابقة.

قامَ نصفَ الليل، ومَن صلَّى الصبحَ في جماعة، فكأنما صلَّى الليلَ كلَّه»[1].

وحريٌّ بمَن حافظ على صلاة الوتر- ولو ثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو ما تيسر- أن تصدق عليه هذه الآية.

وقال بعض المفسرين: إن ﴿مَا﴾ هنا نافية، يعني: قليلًا من الليل لا يهجعون، أي: قليلًا من الليل يقضونه في الطاعة.

وهذا ضعيف، وقد ردَّه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نحو عشرة أوجه[2]، فهو منكر في السياق والتركيب اللُّغوي، كما أنه بعيد من حيث المعنى؛ لأنهم لا يُمدحون بمجرد أنهم يتركون قليلًا من الليل يسهرونه ولا ينامونه، وإنما أثنى عليهم بالمجاهدة والمكابدة والصبر الطويل.

والأقرب أنهم كانوا يقومون من الليل ما تيسَّر، ومن المعلوم أن الليل يبدأ وقته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، والناس عادةً لا ينامون إلا بعد صلاة العشاء بيسير، وربما بعضهم يسامر أهله ثم ينام ثم يقوم لما تيسَّر له من قيام الليل ثم ينام، فيكون ما نامه من الليل أقل مما كان فيه مستيقظًا.

ونوم الليل مما امتن الله تعالى به على العباد فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: ٩]، والعادات التي طرأت على كثير من الأُسر والشباب من السهر على القنوات الفضائية والإنترنت وغيرها هي عادات دخيلة؛ وإلا فإن النبيَّ ﷺ كان يكره النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها[3]، وكان السهر يُكره إلا لمسافر أو مصلٍ أو ذاكر أو من يسامر امرأته أو ما أشبه ذلك من المعاني والمقاصد الصحيحة، وهذا هو الذي يوافق الفطرة وسنة الحياة، ويساعد على الاستيقاظ المبكِّر والمبادرة، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «اللهمَّ بارك لأمتي في بُكورها»[4].

وهذا الانسياق للفطرة والسنة الطبيعية في بلاد الغرب أظهر منه في بلاد

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٩١- ٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٧)، ومسلم (٦٤٧)، من حديث أبي بَرْزةَ الأسْلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

الإسلام والعروبة، فبمجرد ما تغيب الشمس يضعف دبيب الحياة في بلادهم، وتهدأ الطرق وتخلو من السابلة وتغلق الدَّكاكين، ويأوي الناس إلى بيوتهم ومهاجعهم، ثم يستيقظون في الصباح الباكر، في حين أن العواصم الإسلامية لا تهدأ ولا تنام! فهذه من العادات التي ينبغي أن تُعالج وتُصحَّح.

* ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

السَّحَر هو: آخر الليل[١]، وهو وقت التنزُّل الإلهي، حين يقول ربُّنا: هل من سائل؟ هل من داعٍ؟ هل من مستغفر؟[٢].

فالمتقون يصادفون السَّحَر وهم مستغرقون في الاستغفار بعدما قضوا جزءًا من الليل يصلون، ومع ذلك لا يُلفيهم السَّحَر إلا مستغفرين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]؛ ولهذا شرع تعالى الاستغفار في أدبار العبادات، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول حين ينصرفُ من صلاته: «أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ»، كما في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]؛ لأن صاحب القلب الحي أدرى بالمهمات والواجبات التي عليه، وأكثر إدراكًا للفضل عليه بالعبادة والعمل، فيستغفر من التقصير الذي يلحقه في أثنائها، أو في تحقيق الشكر عليها؛ ولذا أوصى ﷺ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول دُبُرَ كل صلاة: «اللهمَّ أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك»[٤].

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤١١)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٢٩٩).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٠١)، و«تاج العروس» (١١/ ٥١٢) «س ح ر»، وما سيأتي في «سورة نوح»: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾.

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦)، وعبد بن حميد (١٢٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٢٧٣) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وربما كانوا يستغفرون عن ذلك القليل من الليل الذي هجعوه!

إن قيام الليل للصلاة والقرآن والمرواحة بين الأقدام يمنح القلب استحضارًا لعظمة الرب وقربه، ويهيِّئ الجو للمناجاة الصافية، ويجمع الروح على معنى الوحدانية، ويصفِّي النفس من الشواغل والازدحام والضَّجِيج.

وكأن المتهجِّد يقترب من العوالم الإيمانية ويكتشفها شيئًا فشيئًا، ويشعر أنه يقرأ القرآن لأول مرة، ولو كان حفظه في صباه.

وهذا زادٌ لقطع مشوار الحياة بصبر ورضا وإيمان، مهما اعتراه من البلاء والهم والعناء والصِّعاب، ويعطي لكل شيء جمال ما فيه من معنى ومبنى؛ فهي صادرة من الله الذي تخاطبه وتناجيه وتطلب قربه.

وهو زادٌ للآخرة وزُلْفى إلى الله ورِفعة في درجات الجنة، والمحجوب عن ربه في الدنيا محجوب عنه في الآخرة: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

* ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾:

فهم ليسوا دراويش، كما يظن الجاهلون، وحينما وصفهم تعالى بالقيام والصلاة لم يكن معنى ذلك أنهم لا يطلبون الرزق، كلا، فهم أصحاب تجارات ومضاربات، وإذا دخل أحدُهم المسجدَ قال: «اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتك»(١)، وأقبل على ربه يتعبَّد ويستغفر، فإذا خرج من المسجد منصرفًا من صلاته قال: «اللهمَّ أغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ فضلك»(٢)؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

وكانوا ﴿ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور: ٣٧].

وهذا الحق المذكور كان قبل أن تُفرض الزكاة؛ لأن السورة مكية، وفرض

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٤١٦، ٢٦٤١٧، ٢٦٤١٩)، والترمذي (٣١٤)، وابن ماجه (٧٧١) من حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وينظر: «نتائج الأفكار» (١/ ٢٧٠- ٢٨١).

وفي «صحيح مسلم» (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رضي الله عنه نحوه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

الزكاة كان بالمدينة[1].

وهو إما أن يكون حقًّا فرضه الله من غير تحديد، أو يكون شيئًا هم فرضوه شكرًا لله تعالى[2]، فيُطعمون الناس؛ كما قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨]، وهو حبٌّ لا يُنسيهم حق السائل والمحروم، وهذا من الاعتدال في شخصية المسلم وتحقيق التوازن فيما بين رغبات الدنيا ونعيم الآخرة وما بين حق الله وحق العباد.

والسائل: الذي يتعرَّض بالسؤال[3]، وأصل السؤال مذموم: «**مَن سألَ وله ما يُغْنيه جاءتْ يومَ القيامة خُمُوشٌ، أو خُدُوشٌ، أو كُدُوحٌ في وجهه**»[4]. ومن المتعيَّن على الجهات المعنية في العالم الإسلامي أن تمنع التسوُّل في المساجد والتجمعات العامة؛ لأنه أصبح بابًا في الاحتيال والخداع وإشغال الناس عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن المتعيَّن إيصال الحقوق إلى المستحقِّين دون أن يحوجهم الحال إلى أن يتعرَّضوا لذُلِّ السؤال، وإراقة ماء الوجه.

وفي المَحروم ثمانية أقوال[5]، لعلها من قبيل تفسير الشيء بمثاله، وأكثرها صحيح، وهو يصدق على الفقير؛ لأنه محروم من المال، ويصدق على المتعفِّف

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٦٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠١)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾، وأول «سورة الأعلى».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠١)، والمصادر الآتية.

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٥٢)، وأحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٥/ ٩٧)، والحاكم (١/ ٤٠٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٩٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨).

الذي لا يسأل الناس؛ لأنه جاء هنا في مقابل السائل.

* ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾:

بعد ذكر الآخرة ومصير الكاذبين ومصير المؤمنين جاءت هذه الآية انتقالًا إلى جولة في كتاب الكون المفتوح، ودعوة إلى التأمل في البرِّ والبحر والنبات، وخصَّها لقربها من المخاطبين؛ فهم يمشون عليها، ويبنون، ويتصرَّفون، ولهم فيها مآكل ومشارب وسُبل وطرائق[١].

* ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾:

أي: في أبدانكم وما رُكِّب فيها من بديع الخلق[٢]، والاستفهام استنكاري[٣] وهو تعجيب من حال الذين يغفلون عن أقرب الآيات إليهم المكتنزة بها أبدانهم، في السماوات أو في الأرض، وفي أنفسهم.

* ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾:

قد يكون المقصود بـ«الرزق»: المطر[٤]، وهو الذي أقسم الله تعالى به- على رأي بعض المفسرين- بـ«الذاريات والجاريات والحاملات»[٥]، ومن معانيها السَّحاب، والسماء: كل ما علا وارتفع[٦]، فالسَّحاب فيه الرزق للعباد، كما قال

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٤١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٥٨)، و«تفسير المنار» (١١/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٥٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر ما تقدم في أول السورة.

(٦) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧﴾، و«سورة الشمس»: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾.

سبحانه: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ١١].

أو يكون المقصود: رزق العباد المكتوب في اللَّوح المحفوظ الذي فيه كل شيء مما كُتب للإنسان من عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد[١].

والسماء هي: السماوات التي فيها الملائكة المكلَّفون بأرزاق العباد، ولهذا عطف عليه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وهو يشمل ما في الكتاب المحفوظ، ويشمل الآخرة: الجنة والنار، ووعد النصر للمؤمنين والبوار للكافرين[٢].

* ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

يُقسم تعالى برب هذه السماء التي فيها ﴿رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه الأرض التي فيها ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ على أن الوحي حقٌّ[٣]، فبعدما أقسم بـ«الذاريات» وبـ«السماء ذات الحُبك»، انتقل إلى القَسَم بربها سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذا الذي أخبرناكم به من أمر القيامة والبعث والحساب والجزاء، حقٌّ لا شك فيه، مثلما أن الواحد منكم ينطق ويتكلَّم[٤]، والنطق بالنسبة لكم أمر متحقَّق:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ[٥]

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٦)، و«تفسير المراغي» (٢٦/ ١٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤١)، والمصادر السابقة.

(٥) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ منسوبًا إلى زُهير بن أبي سُلْمَى.

يعني أن الأمر أقرب من يدك إلى فمك.

* ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

هنا سياق جديد في شأن قصة من أشهر قصص إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسؤال تبجيل وتفخيم للأمر[(١)]؛ لأنها عبرة وعظة، وهو أسلوب مألوف في القرآن، كقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ [البروج: ١٧]، وقوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، ومقصده: حشد الاهتمام وتوجيه النظر إلى القصة.

وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ بمعنى: قد أتاك، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي[(٢)].

و﴿ضَيۡفِ﴾: تشمل المفرد والجمع، تقول: عندي ضيف، ولو كان في ضيافتك قبيلة بأكملها[(٣)].

و﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ جمع من الملائكة، ووصفهم بـ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[(٤)]، كقوله: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

ويحتمل أن يكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرمهم[(٥)]؛ لأنهم ضيوفه لا على أنهم

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٦٠).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة البروج»، و«سورة الغاشية»: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٦٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٩٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، والمصادر السابقة.

ملائكة؛ ولذلك أضافهم أفضل ما تكون الضيافة، كما سوف يتضح من السياق.

* ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥)﴾:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يفيد أن دخولهم كان مفاجئًا، وكأنه لم يذكر استئذانًا، وقد يكون بيت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مفتوحًا للأضياف لا يحتاج الناس فيه إلى استئذان؛ لكونه كريمًا مِضيافًا[١]، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلِّم عليك سلامًا[٢]، فهو مفعول مطلق، فردَّ عليهم سلامهم بأطيب منه، فقال: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: عليكم ﴿سَلَامٌ﴾، والجملة الاسمية التي قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوى وأثبت من جملتهم التي هي فعلية، والفعل ليس لها ثبات[٣]، وهذه بداية الكرامة من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: وهذه الكلمة لم يقلها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم مباشرة، وإنما قالها خُفية عنهم[٤]، بمعنى أنه استنكر حالهم؛ فقد كانوا على هيئة شباب في نضارة وجمال.

قيل: هم ثلاثة ملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل[٥].

وقيل: كانوا عشرة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر[٦]، وفي التوراة ذكر هذا

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٩٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٥)، و«روح البيان» (٩/ ١٦١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٠٠).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٥).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٥/ ٣٤٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٤).

(٦) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ١٧٨).

المعنى.

وفي بعض الآثار أنهم كانوا ثلاثة في سن الشباب وفي غاية الجمال، ولم يكن يعرفهم، وهذا جزء من الإنكار أنه لم يرهم من قبل، ربما سحنات وجوههم غير مألوفة[1]، كذلك سلامهم كان شيئًا يستغرب، فالناس ما كانوا يحسنون السلام، فهم لما قالوا له: ﴿سَلَٰمًا﴾ كان هذا مما استنكره واستغربه، فضلًا عن أنهم ربما دخلوا دون أن يستأذنوه.

والأظهر أن إمامًا مثل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ السيد العظيم الذي اتَّخذه الله تعالى خليلًا لديه من قوة الحَدَس والبصيرة والعرفان ما يغوص فيه على دقائق المعاني والأسرار، حتى ولو لم يوجد في ظاهر الحال ما يدل عليها؛ فلذلك أحسَّ أن الأمر ليس طبيعيًّا، وهذا فيه حكمة عملية: أن الإنسان إذا استغرب شيئًا عليه أن يتعامل معه بشكل طبيعي ويبحث بعد ذلك حتى تتضح له الأمور، ولا يستعجل باتخاذ موقفٍ ما، ولا يفجأ الناس بما يستغربون، وينتظر حتى تتكشَّف الأمور بعد ذلك، ومن كمال الضيافة التي عُرف بها أَلَّا يواجههم بوصفهم بالنكارة، وقد يكون قالها في نفسه، أو يكون قالها لأهل بيته لما ذهب إليهم ليصنعوا طعامًا.

* ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿فَرَاغَ﴾ أي: ذهب، والرَّوْغ يتميز بكونه ذهاب مع شيء من الخُفية[2].

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: وهذا دليل على حفاوته وجميل كرمه، وفي آية أخرى جاء التعبير بقوله: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مشوي[3]، وهذا أسرع من

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٦/ ٥٦٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٦/ ٣٩١١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٦)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦١)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٨)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١)، و«فتح القدير» (٢/ ٥٨١).

طبخه، والعرب إذا كانوا في سرعة فإنهم يقومون بشيِّ اللحم، ولذلك يقول امرؤ القَيْس:

وظَلَّ طُهاةُ اللَّحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ[1]

* ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾:

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا من تمام الضيافة إذ أحضر الطعام وقرَّبه إليهم حتى لا يُحوجهم إلى القيام[2]، وإن كان هذا من العادات، والعادات بابها واسع، وظروف الناس تختلف، واليوم جرت عادة الناس على إدخال الضيوف إلى الطعام؛ لكون الولائم كبيرة، ولكن ما جرى من خليل الرحمن هنا هو من تحقيق كمال الضيافة في زمنه مع اليُسر والعفوية وعدم التكلُّف، كما في الحديث: «نُهينا عن التكلُّف للضيف»[3].

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: وهذا من حسن الضيافة، لم يقل: «كلوا» على سبيل الأمر، وإنما على سبيل العرض المؤدَّب[4]؛ لأن ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح وعرض[5]، وفيها الدعوة اللَّطيفة لهم.

---

(١) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٦٢).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٦)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٨)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٨/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٤)، وأحمد (٢٣٧٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٦٠٨٥)، وفي «الأوسط» (٥٩٣٥)، والحاكم (٤/ ١٢٣)، والبيهقي في «الآداب» (٧٣)، وفي «شعب الإيمان» (٩١٥٣) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «إرواء الغليل» (١٩٥٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٠)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (٨/ ٥٥٨٤-٥٥٨٧).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٠٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٣)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٨٨)، و«روح البيان» (٩/ ١٦٢).

(٥) ينظر: «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (١/ ٣٣)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (١٠/ ٤٤٥)، و«لسان العرب» (١٥/ ٤٣٤)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٣٧٧).

* ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: وذلك حين لم يأكلوا؛ وجاء في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وهذا يؤكِّد ما ذكرته آنفًا أنه لم يواجههم بقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وإنما قاله في نفسه، فهو لما ﴿رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وحُقَّ له أن يوجِّس منهم خِيفة، والضيف إذا لم يأكل فإنه يُخشى منه الغدر، وقد يكون يضمر سوءًا.

وإيجاس الخِيفة لا يعني أنه خاف من أشخاصهم، لكن خاف مما وراءهم وسبب مجيئهم.

وعادةً فإن الأشياء الغامضة تبعث على الخوف، ولذا قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ فقد ظهر لهم في قَسَمات وجهه ما يدل على توجُّسه[1]، فقالوا له تطمينًا وتبشيرًا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾.

وسَرعان ما انقلب الخوف بُشرى بغلام، وهو إسحاق[2]، وأمه سارة زوج إبراهيم عليهم السلام.

ويدل لذلك ما جاء في الآية الأخرى حيث نص الله تعالى على اسم هذا الغلام، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود: ٧١]، أي: من ولد إسحاق: يعقوب.

وقد حدث من سارة موقف إنساني عظيم فإنها لما كبرت ولم يُولد لها، وعرفت أنها عَقِيم، تحاملت على نفسها وأهدته هاجر من أجل أن تأتيه بغلام، فأذن الله أن يكون إسماعيل ولدًا لهاجر، وأن يكون إسحاق ولدًا لسارة.

ولم يقل: «بغلام جميل، ولا طويل»، وإنما: ﴿عَلِيمٍ﴾، وهذا دليل على أن الصفات المعنوية هي التي يجب أن يُحرص عليها ويُمدح بها، وفي الآية الأخرى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات: ١٠١]، فالآية الأولى- آية الذاريات-

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٥).

في شأن إسحاق، وآية الصافات في شأن إسماعيل، فإسحاق ﴿عَلِيمٍ﴾، وإسماعيل ﴿حَلِيمٍ﴾[1].

* ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صياح وصوت[2]، وقد تكون هذه «الصَّرَّة» هي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

وذكر هنا أنها صكَّت وجهها، أي: ضربته[3]، وهذه عادة عند النساء، وليست دليلًا على ضعف عقل المرأة، كما يظنه بعضهم، ولا ينبغي أن يقال هذا الكلام في هذا السياق فيكفي من نضج عقلها التضحية التي بذلتها لخليل الرحمن إبراهيم والصبر معه، وهي حركة عفوية تلقائية تعبِّر عن شدة التصديق وشدة الاستغراب!

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: فهما سببان لعدم الإنجاب: العُقم، فهي لم تنجب وهي فتاة شابة، فكيف وهي في مرحلة الإياس، وكذلك زوجها شيخ كبير، كما قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢]، حتى في بيت النبوة يتكلم أهله بعفوية ويعبِّرون عن مشاعرهم دون تكلُّف.

* ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

هذا قول الملائكة، أخبروها أنه ليس دعاءً ولا تمنيًا، وإنما هو خبرٌ من الله سبحانه[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ١٤٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٦١٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٤٦٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٢٩٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٥/ ٤٨٥).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٠)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٦).

وفي قولهم: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ إشارة إلى لُطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعطفه على عباده ورحمته بهم.

وخَلِيق بمَن يكون عنده معاناة من العُقم أو الفقر أو المرض أو الهم والغم والحزن والنَّكَد أن يستشعر مثل هذا الموقف، وكيف خرق الله تعالى النواميس والسنن والعادات، ورزقهم الغلام العليم.

والتعبير بالرَّبِّ مع الضمير يُشعرك باللُّطف، فهو ﴿رَبُّكِ﴾ القريب المجيب الرَّحيم الذي يجيب دعوة الدَّاعي إذا دعاه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾: فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلق هذا الغلام، وفي تأخيره، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي منح هذا الغلام من علمه، فجاء غلامًا عَلِيمًا، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأشياء والأسباب؛ ولذلك لا يعجزه شيء ولا تخفى عليه خافية[1].

ولأنه قول الله العزيز الحكيم فقد أصبح هذا الشيخ المسن وهذه العجوز العَقِيم آباء لأجناس ممتدة من البشرية، فإبراهيم هو أب البشر الثاني، والعرب من ذرية ابنه إسماعيل، واليهود من ذرية إسرائيل وهو: إسحاق.

فإذا بارك الله فلا حدَّ لبركته، ورحمته تجري حيث يرى الناس وحيث لا يرون!

* وهنا ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ولكنه بحَدَسه أحسَّ أن إتيانهم لم يكن من أجل هذه البُشرى فحسب، بل البُشرى أمرٌ عارض، ولذا ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾:

وعادةً «الخَطْبُ» لا يقال إلا في الشيء الجليل، وهو لما علم أنهم ملائكة أدرك أن الأمر الذي جاؤوا من أجله عظيم[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٣٧٥)، و«تفسير الثعالبي» (٣/ ٤٠٣)، و«فتح القدير» (٣/ ١٦٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٩٥).

* ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾:

وهم قوم لوط[1]، وصفوهم بأنهم ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، ويفعلون الفاحشة الشاذة؛ كانوا يأتون ﴿ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، لم يسبقهم بهذا أحدٌ من الناس، ويأتونه في ناديهم، ويتعاطونه جهارًا نهارًا، ويصرُّون عليه، ولم يطيعوا نبيَّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم مجرمون من ثلاثة أوجه:

١- أعظمها الشرك بالله وتكذيب الأنبياء.

٢- إتيان الفاحشة.

٣- العدوان والبغي؛ حيث دلَّ السياق على أنهم كانوا يتعرَّضون لمَن لا يوافقهم، ويعتدون عليه، ويكرهونه على فعل الفاحشة، وقد همُّوا بأضياف نبيِّهم دون حياء، ظانِّين أنهم من البشر.

* ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾:

وهذه الحجارة من أنواع الحجارة الطينية البُركانية التي رفعها الله تعالى إلى السماء ثم أنزلها عليهم.

* وقد وصفوها بأنها ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾:

والمعنى: مُعلَّمة[2]، ليست مثل الحجارة العادية، بل هي حجارة من نوع خاص، والسَّوم هو: العلامة، مثل الوَسْم[3].

أو يكون المعنى: مكتوبًا عليها اسم صاحبها[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ١٤٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٤٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٧)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٨٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٨)، و«مفاتيح الغيب» (٢٨/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢).

ويحتمل أن معناها: مرسلَة من عند ربك[1]، فهو أمر مرتَّب ومقصود من عند الله تعالى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

والمقصود هنا بالإسراف: أن أمرهم تطوَّر إلى تعاطيها والإعلان بها، والإصرار عليها، والمفاخرة والمباهاة، كما يقع لمَن يُصاب بإدمان الجريمة حين يتحدَّث عن قوته وبطولته، ويسعى لإيقاع غيره، ويحتقر مَن لا يوافقه!

* ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾:

أي: أخرجنا مَن كان في القرية، وهي: سَدُوم، وهي في الشام قريبة من البحر الميت[2].

والذين خرجوا فعلًا هم آل لُوط، إلا امرأته فلم تكن مؤمنة، ولكنها في الظاهر كانت معدودة من المسلمين، والله أعلم كانت تتظاهر بطاعة لوط، وصفها الله في «سورة التحريم» بالخيانة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فهي ظاهرًا كانت من المسلمين، لكن في باطنها كانت مع قومها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، والمنافق معدود ظاهرًا من المسلمين، ولكنه ليس من المؤمنين، ولذا وُصف البيت بالإسلام، ولكنه حدَّد الذين أُخرجوا ونَجَوْا بأنهم المؤمنون فحسب[3].

* ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٣٧﴾:

أي: جعلنا للعقوبة التي حلَّت بهم آثارًا تدل عليهم، وفي ذلك تحذير من فعلهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٠)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨١).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٧).

* ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾:

المعنى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ آية، كما في قرية قوم لوط آية، والسلطان هو: الحجة البينة، ومنها: الآيات التسع التي بعثه الله تعالى بها[(١)].

* ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾:

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بقوته من أَتْباع وجيش[(٢)].

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾: وعادةً يكون «النبذ» للشيء الزَّهيد، كنبذ النواة أو نبذ الحَصَاة، و﴿ ٱلْيَمِّ ﴾ هو: البحر[(٣)]، و﴿ مُلِيمٌ ﴾ صفة لفرعون، يعني: ملوم، آتٍ بما يُلامُ عليه[(٤)].

* ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾:

﴿ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ هي: الرِّيح التي لا تأتي بخير، فإن الله تعالى يرسل الرِّياح لواقح، كما في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، لكن هذه الرِّيح عَقِيم، وهذا استعمال قرآني رائع مؤثِّر، والعرب يفهمون هذا جيدًا؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى الرِّياح، وهي علامة على المطر، وكانوا يفرحون بها، وينتظرون ما بعدها، ولذا وصفها بـ﴿ ٱلْعَقِيمَ ﴾! وعبَّر عنها بالمفرد؛ ليدل على أنها واحدة لا تختلف

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٥٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٧)، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٤).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ١٩٥)، والمصادر السابقة.

صفتها، بخلاف الرِّياح الملقِّحة[1].

* ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾:

والمقصود: الأشياء التي يتأتَّى فيها الدَّمار، وإلا فإنها لم تهلك الأرض ولا السماء ولا الجبال[2].

والرَّميم هو: التراب، وقيل: الزرع اليابس البالي الذي وطئته الأقدام وداسته الحيوانات، فلم يبق منه ما يعتد به، وقيل: الرَّماد، والمعنى المشترك بينهما أن الرَّميم هو الشيء المنتهي الحَقِير الذي لا شأن له[3].

* ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾:

يحتمل أن يكون المقصود: التمتع بطيبات الحياة الدنيا إلى الأجل المسمى الذي هو الموت، وعليه فهو عام لهم ولغيرهم[4].

ويحتمل أنه الأيام الثلاثة التي أُمهلوها بعد عقرهم للناقة، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[5] [هود: ٦٥].

* ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾:

وهذا يُرجِّح أن المقصود بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ يعني: كلوا من طيبات ما رزقكم الله، واشكروا له وأطيعوه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فكانوا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٣/ ٢١٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٨).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة.

ينظرون العذاب وهو يحل بهم، ولا يستطيعون له صَرْفًا ولا دفعًا ولا نصرًا[1].

* ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ما استطاعوا أن يقوموا على أقدامهم؛ لأن العذاب أرعبهم، فأسقطهم وأهلكهم[2].

أو المعنى: فلم يستطيعوا مقاومة ما نزل بهم، وهو الصاعقة[3]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما استطاعوا أن يطلبوا النصر، فلا هم انتصروا بأنفسهم، وما قدروا أن يطلبوا النصر من غيرهم[4].

* ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وقوم نوح كانوا قبل هؤلاء جميعًا، ولكن أخَّرهم في السياق؛ لأن الأمم المذكورة أقرب إلى العرب، وأخبارها لديهم متداولة، وهم يمرون بآثارهم، كما في ديار عاد وثمود وقوم لُوط[5].

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وبعد الجولة التاريخية في أخبار المكذِّبين وآيات الأنبياء، ينتقل إلى آيات الله تعالى في الكون.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٧٦٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١١٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير ابن عرفة» (٤/ ٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

والأيد هنا: القوة[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ [ص: ١٧]، أي: ذا القوة[2]، وليس المقصود: الأيدي جمع يد، كما يظن البعض.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: قيل: المعنى: أن السماء واسعة جدًّا، وتتسع بازدياد. وهذا ليس بعيدًا من الناحية العلمية[3].

والاحتمال الثاني أن المعنى: وإنا لقادرون على ذلك، أي: في وُسعنا أن نفعل ذلك وأعظم منه[4].

وهذا المعنى أجود؛ فنحن موسعون قادرون على بنائها وبناء ما هو أقوى منها.

وهنا نَلْحَظ أن الله تعالى يُعبِّر في القرآن عن السماء بالبناء ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧]؛ فالسماء بناءٌ يراها الناس محيطة بهم كالقُبَّة. كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [غافر: ٦٤].

* ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

عبَّر عن الأرض بالفِراش؛ لأن فيها سكن الإنسان، فهي مفروشة، ومع أن الأرض كُروِيَّة، إلا أن التعبير بالفَرْش يشير إلى طبيعة الأرض في كون الإنسان يستخدمها وينام عليها ويوظِّفها في مصالحه ويبني ويزرع ويمشي ويحفر[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٧٣)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ...﴾ [ق: ٧].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾: جعل الأرض مِهادًا[1]، وهذا دليل على كرامة الإنسان عند الله، فهذا الخلق الذي تراه هو فضل من الله على هذا الإنسان؛ ولذلك جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

* ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

يحتمل أن يكون في كل ما خلق الله زوجين، وهذا يقع في الأشياء الحِسِّيَّة، مثل: البشر والحيوانات والطيور، ويكون في الصفات والأشياء المعنوية، مثل النور والظلام، والفرح والحزن، والرضا والغضب، والعلم والجهل، والشدة واللِّين، وما أشبه ذلك.

وحتى الملائكة ففيها: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب[2].

والزوجية ليست مقابَلة بين الأضداد، بل هي تبعث على التعاون والتكامل في النباتات والحيوانات والبشر، وليست المرأة عدوًّا للرجل ولا الرجل عدوٌّ للمرأة، وهكذا يجب أن تُفهم أنها تكامل في الوظائف والمهمات، وانسجام ومسير في طريق واحد تقتضيه الفطرة وتُوصِي به الشريعة وتطيب به الحياة، أما حين يفتعل الناس صراعًا بين هذه الأزواج، فإن الحياة تفسد والشر يهيج، ودائرة المشكلات تتَّسع.

* ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

والفرار إلى الله تعالى هو فرارٌ من كل شيء، فِرْ إلى الله من أعدائك؛ لأنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله، وفِرْ من أصدقائك، كما قيل: «اللهمَّ اكفني شرَّ أصدقائي»، وفِرْ من شرِّ نفسك.

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٧، ٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤).

ولهذا كان ﷺ يقول: «أعوذُ بك من شرِّ نفسي»[1]. والاستعاذة هي نوع من الفرار.

ويقول: «اللهمَّ أعوذُ برضاكَ من سخطكَ، وبمُعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ»[2].

ويقول سبحانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، فالفرار من الله يكون إليه، والفرار من كل شيء لا يكون إلا إلى الله، وكلُّ أحد إذا خفته تفرُّ منه، إلا الله إذا خفته تفرُّ إليه[3]؛ فهو واسع المغفرة، وأبواب التوبة مفتوحة للناس كلهم دون استثناء، وفي الوقت الذي يرفضون دعوته ويقولون عن رسله وأنبيائه: سحرة أو كهنة، يفتح لهم أبواب رحماته، ويدعوهم إليه، ويصبر عليهم، ويمهلهم، ويمدُّ لهم، ويقيم عليهم الحجج، ويبعث لهم الآيات، ويرزقهم ويعافيهم سبحانه وبحمده.

والمقام هنا يستدعي الخوف بعدما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء السابقين وعاقبة أقوامهم المكذِّبين.

* ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾:

والتوحيد هو أصل رسالات الأنبياء، وهو الفيصل بين المؤمنين والمكذِّبين،

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٦٩، ١٧٩٠٥)، وابن حبان (٩٠١) من حديث عثمان بن أبي العاص وامرأة من قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه الطيالسي (٩، ٢٧٠٥)، وأحمد (٥١، ٥٢)، والدارمي (٢٧٣١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٢)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٤٤، ١٠٥٦٣)، وابن حبان (٩٦٢)، والحاكم (١/ ٥١٣)، والضياء (١/ ١١٣- ١١٥) (٣٠- ٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ علَّم أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٤٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩).

وهو يقتضي العبودية لله، ونبذ الآلهة والأنداد من دونه، والفرار إلى الله هو من التوحيد يقتضي التوكل عليه والتفويض إليه؛ ولذا أعقبه بالنهي عن الشرك وكرَّر النذارة؛ لأن متعلقهما مختلف، فالأُولى إنذار بالفرار إلى الله والإيمان به، والثانية إنذار من الشرك وعبادة آلهة أخرى، ولأن السورة فيها وعيد وتهديد وذكر لمصائر المكذِّبين غلَّب جانب النذارة على جانب التبشير.

* ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾:

كما قال فرعون لموسى[1]. وكما قالت قريش عن النبي ﷺ: ﴿سَاحِرٌ﴾، وغير ذلك مما وصفوه به[2].

* ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

هل أوصى بعضُهم بعضًا بذلك؟ كلا[3]؛ لأنهم لم يشهدوا بعضًا؛ ولهذا أضرب الله تعالى عن هذا وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، و﴿بَلْ﴾ للإضراب؛ ونفي السؤال السابق[4]، كأن المعنى: لم يتواصوا به، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[5]، فالطغيان هو الذي جعلهم يتوافقون على أن يقول كل ملأ عن رسولهم: إنه ساحر، أو مجنون، ففي القرآن الكريم تأكيد لهذا الطغيان، كما في «سورة البقرة»: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ

(١) كما في قوله تعالى المتقدِّم: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٣)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥).

(٤) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ١٤٤)، و«روح البيان» (٩/ ١٧٤)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الانشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة البروج»: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾، و«سورة الأعلى»: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«مفاتيح الغيب» (٢٨/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢).

﴿مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فسبب تواطئهم على هذا المعنى هو تشابه قلوبهم وما فيها من الكبر والطغيان.

وربما نستفيد من هذه الآية ألَّا نبالغ فيما يسمَّى بنظرية المؤامرة؛ لأن من الناس مَن يتخيل أن كل ما يقع في الكون مؤامرة، وأن قوى الشرق والغرب تتآمر في خطة محكمة موحَّدة على المسلمين، ولا شك أن قدرًا من ذلك صحيح، ولكن كثير منه أيضًا مما تشابهت فيه القلوب ومما يقع على سبيل الاتفاق من هؤلاء الأقوام، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وتلك القوى المتآمرة لو وجدت في المسلمين قوة وبأسًا وتوحيدًا للموقف ما استطاعت النفاذ إليهم ولا بلغ مكرها مبلغه، فأساس الفشل ليس هو كيد العدو، بل الضعف الداخلي والتهارش والاختلاف، ووجود أطياف وأطراف تسمع لعدوها وتخدمه وتنفذ توجيهاته وتتمثَّل أهدافه.

* ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

هذا ثناء على الرسول ﷺ، وكأنه يقول له: قد أدَّيتَ الأمانة، وبلَّغتَ الرسالة، وأقمت الحجَّةَ؛ فلا تُلام وقد أدَّيتَ ما عليك.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: أن لا يدخل معهم في جدل لا يُفيد حول دعواهم: إنه ساحر أو شاعر أو مجنون؛ فإن الدخول أحيانًا مع الخصم في مجادلة ومماحكة ربما يُذهب الجهد ويسبِّب ضيق الصدر والهم والحزن، دون أن يأتي بطائل، كما قال: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾[١] [الشورى: ١٥].

الثاني: ترك الإلحاح والمبالغة في دعوتهم[٢]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٤)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٣١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٠٧)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٦٩)، والمصادر السابقة.

بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني: ادعهم وادع غيرهم، ولا تحزن عليهم(١).

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنفع الذين آمنوا، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم(٢).

وقد يكون من معاني الآية: أن الذِّكرى تنفع الذين لديهم استعداد للإيمان وللحقِّ(٣)، ولكن مشكلتهم الجهل، وتشرّبهم للشبهات، فتحتاج إلى أن تُكْشَف، فإذا سمعوا الموعظة تيقَّظوا وخافوا، فَفَرقٌ بين هؤلاء وبين المعاندين المستكبرين.

* ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾:

لماذا بدأ بالجن، مع أن الإنس منهم الأنبياء والرسل؟

قيل في الجواب عن ذلك: إن العرب كانوا يعبدون الجن ويعظِّمونهم، وإذا نزلوا بوادٍ استعاذوا بسيِّد الجن من سُفهاء قومه، وبعضهم كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الله تعالى صاحبة من الجن ولدت له الملائكة(٤)، فدحض الله تعالى هذه الادِّعاءات، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليوحِّدون(٥).

ومما تحتمله الآية من المعاني:

أي: ما خلقتُ الجن والإنس إلَّا لآمرهم بعبادتي وأبلِّغهم على ألسنة رسلي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٠٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص٦٢٤)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٦١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٤/ ٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٦٩- ٤٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠).

(٣) ينظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٠)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٥٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٦)، والمصادر السابقة.

(٤) كما سيأتي تفصيله في «سورة الجن».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (١/ ٤٦١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٥).

ما يجب عليهم أن يفعلوه[1].

ويدخل في الآية معنى العبادة الاضطرارية؛ لأن الخلق كلهم مضطرون إلى الله، فالسماوات والأرض والشمس والقمر كلها تسبِّح الله تعالى وتعبده عبادة اضطرارية، وهكذا خلايا الإنسان وأعضاؤه تعبد الله تعالى عبادةً اضطرارية، ويبقى الاختيار في عبادة الله أو عدم عبادته في عقل الإنسان وقلبه وإرادته.

ويدخل في الآية العبادة الطارئة، فإن بعض الناس ربما يعبد الله تعالى في حال الشدة، كما حكى الله تعالى عن بعضهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

* ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾:

وهذا تفصيل وتوضيح للمعنى، وفيه نوع من المعاتبة للناس: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فالله تعالى هو الذي خلق السماوات وجعلها بناءً، وخلق الأرض وفرشها لكم، وجعلها مِهادًا، فأيُّ حاجة له إليكم أن ترزقوه أو أن تطعموه؟!

ولهذا كان من أسمائه سبحانه: «الغني»: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[2] [محمد: ٣٨].

وهذه المعاني ينبغي أن يستشعرها العبد؛ فإن عبادة القلب من أعظم العبادات،

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢١٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨١٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٧).

وهي تُورِث تعظيم الله وحبِّه وشكره، والشعور بالفقر الفطري الضروري المصاحب للإنسان في كل حال، مهما ظن أنه قد استغنى وغفل، وفي أول موقف من مفاجأة مرض أو نازلة أو خوف يظهر الافتقار وتنكشف الأستار.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

فهو الذي يرزقهم، ولا يريد منهم من رزق[1]، وهو ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، فلا يحتاج منهم إلى مساعدة ولا إلى خدمة، فهو القوي ﴿ٱلْمَتِينُ﴾[2].

و﴿ٱلْمَتِينُ﴾ من أسمائه الحسنى، ويعني: القوة والقدرة والثبات[3]، فليست قدرته وقوته عارضة، وإنما هي دائمة باقية، وغناه ذاتي، ليس عطاءً من أحد، أما الأغنياء من البشر فغناهم مؤقت طارئ مكتسَب، ولذلك هم فقراء بالفطرة محتاجون إليه، فسبحان ذي الجلال والجمال والكمال والكبرياء والعظمة والمجد، والدنيا والآخرة، والليل والنهار، والبر والبحر، والجن والإنس، ينبغي أن يستشعر قلبك معنى الحب لهذا الإله العظيم والامتنان للفضل والشعور بالقرب، حتى وأنت تخطئ، فهو يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، حتى للمشركين، فلا يحول بينك وبينه شيء، حتى إذا خفت منه فِرَّ إليه.

* ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: ظلموا أنفسهم بالشرك[4]، و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«لطائف الإشارات» (٣/ ٤٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٥)، و«روح البيان» (٩/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢١)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٧٦٧)، و«باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» (٣/ ١٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٧)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠).

والذَّنوب: أصله الدَّلْو الذي يُستقى به الماء من البئر[1]، فهو يتوعَّدهم بقدر من العذاب، وكفى به عذابًا.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾: سمَّاهم: ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ لأنهم أشركوا مثلهم، كقوم لوط وقوم موسى وثمود وعاد الذين مرَّ ذكرهم في السورة؛ ولذلك يهدِّدهم بأنهم في فترة الإمهال والإمكان[2].

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

ختم السورة بالوعيد المناسب لبدئها؛ حيث أقسم أنهم ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ في كفرهم وعنادهم، وختم بأن لهم ما داموا مصرِّين على كفرهم لونًا من العذاب مثل عذاب من قبلهم من المكذِّبين.

وقد عجَّل لهم وعيد الدنيا، وتوعَّدهم بيوم وراءه هو يوم القيامة.

ومن النكت في السورة أنها بُدئت بوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾، وخُتمت بوعيد في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾[3]، وقد نزلت قبل معركة بدر، فكان هناك وعيد يعلمه الله وهم لا يعلمونه، ففي معركة بدر انتصر المسلمون وقُتل عُتاة المشركين الذين نزلت هذه السورة وغيرها تعاتبهم وتوبِّخهم وتهدِّدهم وتصفهم بالطغيان، فجُرُّوا وسُحبوا إلى القَلِيب، وأُلقوا فيه، فوقف الرسول ﷺ على هذا القَلِيب.

ونلحظ هنا مناسبة قوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مع نهاية هؤلاء،

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٩)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢/ ٣٩٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٣٩٨)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٣١٥) «ذ ن ب»، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٩)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٤٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٩١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠).

(٣) ينظر: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل» (٢/ ٤٤٨).

حيث وقف عليهم وقال: «يا فلانَ بنَ فلانٍ يا فلانَ بنَ فلانٍ، هل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقًّا، فإنِّي وجدتُ ما وعدني اللهُ حقًّا». فقال عمرُ: تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟ فقال: «ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم»[1].

فالوعد صادق وتحقَّق لهم ذَنوب ودَلو وبئر كبئر بدر الذي كُفتوا فيه ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، الأمر قريب، وبكاهم شدَّاد بن الأسود، وقال[2]:

وماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بِالسَّنامِ
وماذا بِلقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ
تُحَيِّنا السَّلامَةَ أُمُّ بَكْرٍ ... وهل لي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلامِ
يُحَدِّثُنا الرَّسُولُ بأن سَنَحْيا ... وكيفَ حَياةُ أَصْداءٍ وهامِ

فجاءهم الوعد الذي كانوا يستعجلون.

○○○

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩)، و«صحيح البخاري» (٥/ ٦٥)، و«الروض الأنف» (٥/ ٢٤٩)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٢٩٤).

وبكاهم عبد الله بن الزِّبَعْرَى بنحو ذلك. ينظر: «شعر عبدالله بن الزبعرى» (ص٤٦ - ٤٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٥ - ١٦)، و«أنساب الأشراف» للبَلاذُري (١/ ٣٠٨).

سُورَةُ الطُّورِ

*** تسمية السورة:**

لها اسم واحد، وهو: «سورة الطُّور»، أو: «سورة ﴿وَٱلطُّورِ﴾»[1].

وقد ورد في حديث أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: شكوتُ إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طُوفي من وراء الناس وأنت راكبةٌ». قالت: فطفتُ ورسولُ الله ﷺ حينئذ يصلِّي إلى جنب البيت، وهو يقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾[2].

وفي حديث جُبير بن مُطْعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاء إلى المدينة وهو مشرك في فداء المشركين بعد معركة بدر، ودخل المسجدَ، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأُ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ كاد قلبي أن يطير. وأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

*** عدد آياتها:** تسع وأربعون آية، أو ثمان وأربعون، أو سبع وأربعون؛ ثلاث أقوال لعلماء الحجاز والكوفة والبصرة[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤، ١٦١٩)، ومسلم (١٢٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٥٠، ٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).

(٤) وقد اختلفوا في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦).

* **وهي مكية** باتفاق المفسِّرين[1].

* ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾:

يستفتح تعالى السورة بقَسَم، كما في «سورة الذاريات»، ولكنه في «سورة الذاريات» جاء بصيغة الجمع: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾. فأقسم بالذاريات، والجاريات، والحاملات، والمُقَسِّمات، أما هنا فجاء بصيغة المفرد.

ولعل من الأسرار أن المقسَم عليه في السورة شيء واحد، فإنه قال في نهاية القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، في حين أنه أقسم في «سورة الذاريات» على أمرين، وهما: مسألة البعث، ومسألة العذاب الدنيوي، وأقل الجمع اثنان[2].

ويحتمل أن يكون أفرد القَسَم؛ لأنه أَقسَم بأعيان وليس بأشياء عامة، كالرِّياح مثلًا، فإذا أَقسَم بالرِّياح، فالقَسَم يعم ريح الصَّبَا والدَّبُور والجَنوب، وريح التلقيح وريح العذاب، لكن إذا أقْسَم بالطُّور، فلا يحتمل إلا شيئًا واحدًا، وهو جبل الطُّور الذي أقسم به في «سورة التين»: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، فهو طُور سِينين، أو طُور سَيْناء، وهو الجبل الذي كلَّم ربُّنا عَزَّوَجَلَّ عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

* ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾:

قال بعضهم: هو التوراة، والألواح التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[4]: ﴿أَخَذَ

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣).

(٢) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٢/ ٢٢٢)، و«المزهر» للسيوطي (١/ ٣٩)، و«البُلغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص٨٠)، و«النحو الوافي» (١/ ١٤٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٣٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ٣٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٦٦)، والمصادر السابقة والآتية.

﴿ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ لأن التوراة مرتبطة بجبل الطُّور، فهي الكتاب الذي أنزله تعالى على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يمسها التحريف، فإذا ثبت أن القَسَم هنا بالتوراة، فهو دليل على أن التوراة في زمن النبي ﷺ لم يصل التحريف إلى لفظها، وإنما كانوا يحرِّفون معانيها، أما لفظها فكان ثَمَّ قدر من المحافظة عليه.

ولذلك لما حدثت نازلة زِنى المحصن عندهم، قال رسولُ الله ﷺ: «ما تجدونَ في التَّوراة على مَن زَنَى؟». قالوا: نسوِّدُ وجوهَهُما، ونُحمِّلُهُما، ونُخالفُ بين وجوهِهِما، ويُطافُ بهما. قال: «فَأْتُوا بالتَّوراة إن كنتم صادقينَ». فجاؤوا بها، فقرؤوها حتى إذا مرُّوا بآية الرَّجْم وَضَعَ الفتى الذي يقرأُ يدَه على آية الرَّجْم، وقرأَ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدُ الله بنُ سلَام- وهو مع رسول الله ﷺ-: مُرْهُ فليرفعْ يدَه. فرفَعَها، فإذا تحتها آيةُ الرَّجْم، فأَمَرَ بهما رسولُ الله ﷺ، فرُجِما(1).

ولا يمنع أن تكون بعض نسخ التوراة حرِّفت ونسخ أخرى بقيت محفوظة، فيكون القَسَم بالكتاب الذي أنزله سبحانه وليس بما عملته أيدي الناس.

ويحتمل أن يشمل جنس الكتاب، فيشمل الكتب السماوية(2): صحف إبراهيم وموسى، والقرآن الكريم، والله تعالى أقسم بالكتاب المبين، والقرآن المجيد، والقرآن الحكيم.

وهي إشارة إلى أهمية الكتاب المسطور وما فيه من العلم والهُدى والرحمة والحكمة والبيان والقدر والحجة؛ ولذا كان نزول القرآن أعظم حجة على الخلق؛ وتكفَّل الله بحفظه، مع أنه نزل في أمة أُمِّيَّة لم يكن لديها ضبط للكتابة، وسَمَّى الله القرآن: كتابًا؛ لأنه سيظل مكتوبًا منذ نزل إلى يوم القيامة، وسماه قرآنًا لأنه

---

(1) أخرجه البخاري (٧٥٤٣)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩)، والمصادر السابقة.

سيُحفظ في الصدور أيضًا.

ويتبع ذلك أهمية اقتناء الكتب النافعة، وأن يختار الإنسان الكتاب اختياره للصديق أو الزوج؛ لأن الكتاب رفيق تطول ملازمته ومصاحبته، وسواء كان كتابًا ورقيًّا أو مرقومًا على أقراص، فهو كتاب من حروف وكلمات وسطور يقرؤه الناس، وللكتاب الورقي أهمية باقية لا تغني عنها البرامج الأخرى، كما هو موضَّح في «سورة العلق»(١).

* ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾:

الرَّق- بفتح الراء- هو: الجلد الذي كان يُكتب فيه(٢).

وعادة ما كانوا يكتبون في الجلود الناعمة؛ لأن الكتابة فيها أحفظ وأضبط، والجلود لا تتلف مع الوقت، وكثير من الكتابات القديمة المحفوظة كانت على جلود، وبعض نسخ القرآن العتيقة منذ القرن الأول مكتوبة على جلد غزال، وهي محفوظة في المتاحف.

والمَنْشُور: المفتوح(٣)، وفيه معنى جميل، والكتب إنما يكون نشرها وفتحها بمثابة استنطاقها، فالكتب السماوية المنزَّلة من عند الله فيها الحق واليقين والعلم والإعجاز.

ومن هنا لا يوجد في كتابنا المعجز، ولا في سيرة نبينا ﷺ شيء نستحي منه أو نداريه أو نكتمه أو نخشى أن يطَّلع الناسُ عليه، فهو منشور مكشوف.

وفيه إلماح إلى أن الدين ليس أسرارًا ولا طلاسم غامضة، وإنما يقتبس الناس

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٧).
وينظر أيضًا: «العين» (٥/ ٢٤)، و«جمهرة اللغة» (١/ ١٢٥)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٢٣٠)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٦٦)، و«روح البيان» (٩/ ١٨٥)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٨٥)، والمصادر السابقة.

منه بحسب أفهامهم وصفاء قلوبهم وسلامتهم من الهوى المسبق(١).

وإلماح ثانٍ إلى أن القول في المسائل الدينية لا يحسن أن يهجم عليه المرء دون بصيرة وعلم، فهي مسائل نقلية تُؤخذ من الكتب المنشورة من رب العالمين، والقول فيها بغير علم افتيات على الله سبحانه.

وإلماح ثالث إلى رفض الاتجاهات الباطنية التي تتواصى بحفظ وكتم أسرار المذهب عن العامة، وتلبس النص الإلهي معاني غريبة عنه ظاهرة التكلف، بيِّنة البطلان.

* ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾:

وهو في السماء السابعة، يسمَّى: الضُّراح، بضم الضاد(٢)، كما جاء عن علي رَضِوَاللَّهُعَنهُ(٣).

والبيت المَعْمور جاء ذكره في «صحيح البخاري» عند الإسراء حينما قال: «**فرُفِعَ لي البيتُ المَعْمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المَعْمورُ، يصلِّي فيه كلَّ يوم سبعونَ ألف مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم**»(٤).

وهو بمثابة الكعبة في الأرض.

ويُحتمل أن يُراد بالبيت المعمور: الكعبة(٥)، فهي بيت معمور، والمقصود بعمارته ألَّا يخلو من طائف أو راكع أو ساجد: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩).

(٢) ويُروى: الضَّرِيح. من المضارحة، وهي: المقابلة والمضارعة. ينظر: «الصحاح» (١/ ٣٨٦)، و«النهاية» (٣/ ٨١)، و«لسان العرب» (٢/ ٥٢٧) «ض ر ح».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٤/ ٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧، ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صَعْصَعَة رَضِوَاللَّهُعَنهُ.

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨)، والمصادر السابقة.

[التوبة: ١٨]، وعمارته تكون بالتردد عليه وزيارته، وتكون ببنائه، وتوسيعه ونظافته وتطهيره، ولعل الآية تشمل كل بيت معمور لله، كالضُّراح، والكعبة ونحوها.

* ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾:

الأقرب أن المقصود: السماء[١]، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فسماها سقفًا محفوظًا، وسقفًا مرفوعًا.

ورفعتها بحمايتها من الشياطين، وقداسة الوحي الذي ينزل منها، ورفعتها بأن فيها كل ما يتعلق بالعباد من الأرزاق والآجال وسائر المقادير: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

ويلحظ أن القَسَم في هذه السورة ليس قَسَمًا بأشياء فيها منافع للعباد في الحياة الدنيا، كما هو الشأن في «سورة الذاريات»، بل هو قَسَمٌ بأشياء تتعلَّق بمصالح العباد في الدار الآخرة، فيتحصَّل من هذا وذاك أن مصلحة العباد تكون بحفظ دنياهم وحفظ دينهم، حتى الكعبة نفسها قال فيها سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، يعني: قيامًا لمصالحهم الدينية ومصالحهم الدنيوية، ففيها من مصالح الدنيا الشيء العظيم[٢].

* ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾:

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: الموقد بالنار، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، وتقول: سجرت التنور، أي: أوقدته.

وهذا مروي عن جماعة من السلف، منهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير المراغي» (٢٧/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٧، ٥٦٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤).

ويحمل هذا على أن البحار تُوقد يوم القيامة فتكون نارًا.

ومن معاني ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: الممتلئ الممتد المُرسَل[1]، بخلاف البُحيرات والأودية، فإنه ربما يزيد الماء فيها، وربما ينقص، وربما يجف، أما البحار فالماء فيها موجود أبدًا، فهذا من معاني ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾.

وفي ذلك امتنان على الناس بهذه البحار، والقَسَم نفسه دعوة إلى التأمل والتدبر والاعتبار.

وبالنظر إلى ما سبق من كون المقسَم به هنا متعلِّقًا بأمور أخروية يترجح أن ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ هو: الموقد بالنار يوم القيامة، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ [الانفطار: ٣].

* وجواب القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾:

إنها كلمة مزلزلة مخيفة، وبداية الآيات وعيد بالعذاب، وقَسَم على أنه واقع، أي: سيقع لا محالة[2].

والكلمة لها وَقْع كبير على النفوس، أكثر مما لو قال: «لحادث»، وفيها تهديد شديد للمكذِّبين، وتضمَّنت رحمة الله ولطفه بالنبي ﷺ ومَن معه من المؤمنين، نستشعر ذلك في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، فلم يقل: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾، فهو ربهم الرحيم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩- ٢٨].

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾: لا يستطيع أحدٌ أن يمنعه، ولا أن يرفعه بعد وقوعه أو يقاومه[3].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١٩٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٩)، و«تفسير الجلالين» (ص٦٩٧)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٤٦)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٨٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«فتح البيان» (١٣/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٣)، و«البحر المديد» (٥/ ٤٨٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨١٤).

* أما متى ذلك؟ فلم يمهلهم أن يسألوا هذا السؤال كما هي عادتهم، بل باغتهم بالجواب فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾:

والمَوْر: الحركة والاضطراب؛ إشارة إلى ما يقع في السماء من زوال النجوم وتكوُّر الشمس وانخساف القمر وتشقُّق السماء لنزول الملائكة(١).

* ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾:

فالجبال الرَّواسي الكبيرة التي أقسم الله بواحد منها في أول السورة وهو «الطُّور» أصبحت تسير بعد أن صارت كثيبًا مهيلًا، أصبحت مثل السَّراب، تمر مرَّ السحاب(٢).

* ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾:

والويل: وعيد وتهديد(٣) يحمل على أخذ خبر الآخرة ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ بجدٍّ واهتمام، وألَّا تكون محلًّا للسخرية والاستبعاد والتشكيك.

وكثير من الجدل الذي يثار حولها ناتج عن عدم المبالاة، وعن الانخراط في المجريات اليومية والعادات المتبعة، وعدم الرغبة في الإيمان الذي قد يقمع النفس عن بعض ملذاتها، كما قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥- ٦].

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾:

فالحديث هنا عن المكذِّبين، وليس عن العصاة من المؤمنين أصحاب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١).
وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١١٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٣)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٣)، و«روح البيان» (٩/ ١٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥).

(٣) وأما ما قيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾: واد في جهنم، فهذا لا يصح فيه شيء، كما سيأتي في أول «سورة المطففين»، وأول «سورة الهمزة».

الكبائر؛ فليس المقام مقامهم، كما نصَّت الآية الكريمة[1].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾: فهؤلاء المكذِّبون يخوضون فيما لا يعلمون، ويلعبون ولا يتورَّعون عنْ تحويل القضايا الجديَّة إلى الهزل والسخرية؛ ولذا عبَّر أنهم في خوض، يقتحمون القضايا الكبرى دون تأمل ولا مسؤولية، وهم يلعبون في وقت الجد؛ ولذلك ذكر العلماء أن حكاية النكت والطرائف المتعلِّقة بالله تعالى أو بالقرآن أو بالرسول ﷺ أو بالقيم الدينية لا يجوز بحال أن يتعاطاه الناس مسموعًا أو مكتوبًا.

* ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾:

والدَّعُّ هو: الدفع بقوة[2]؛ لأنهم إذا رأوا النار أحسُّوا بلهيبها، وخافوا منها وكرهوها، فهم يتقهقرون إلى الوراء ويتمنَّعون، شأن أيِّ مجرم يُساق إلى ما لا يريد، فتدفعهم الملائكة في أقفائهم وتدُعُّهم دعًّا إلى هذا المصير.

* ومع هذا الدَّعِّ والموقف الصعب يُقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾:

والخطاب دعوة للمشركين إلى أن يؤمنوا، حتى لو كان وعيدًا، إلا أنه دعوة إلى الإيمان؛ حيث جاءهم في الدنيا، وعُوجلوا به، وأُخبروا عنه قبل أن يقع.

فالنار التي كانت خبرًا مستقبلًا يتوعَّد به الكافرون ها أنتم ترونها الآن بعيونكم وتحسُّون حرَّها ولهيبها!

* ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾:

كانوا يقولون: إنه ﷺ ساحر. فيأتيهم الجواب في هذه الآية: هل هذا سحر وأنتم ترونه بأعينكم؟ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾، وهذا تعريض بما كانوا يقولونه في

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٠٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٧٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٣).

الدنيا عن النبي ﷺ، وبيان أن المشكلة في غفلتهم وإغلاق قلوبهم وصدودهم عن الحقِّ، حتى كأنهم لا يبصرون الآيات من حولهم في الدنيا.

* ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾:

وقوله: ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ [مريم: ٧٠]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥- ١٦]، كأن «الصَّلْي» هنا من شأن الأشْقى الذي كذَّب وتولَّى، أما المؤمن فربما تصيبه النار بقدرٍ دون أن يصلاها صَلْيًا كاملًا، ودون أن يُدَعَّ إليها دَعًّا؛ لأن المسألة مسألة تطهير له، أما هؤلاء فهي دارهم وقرارهم: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا ينفع الصبر أو الجزع[1]، كما قالوا هم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: وتأمل كيف أنه لم يقل: «إنما تُجزون بما كنتم تعملون»؛ إشارة إلى كمال العدل الإلهي؛ فقد جعل الجزاء هو ذات الفعل الذي فعلوه[2]، والجزاء لم يزد عليهم شيئًا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾:

مثلما قال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥]، والوعد يشمل أصحاب المقامات العالية في التقوى من السابقين والأبرار، كما يشمل عموم المؤمنين الذين اتقوا الكفر والشرك بالإيمان بالله، ولو قارفوا بعض الإثم.

* ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾:

أي: فرحين مستبشرين مسرورين، وهذه قراءة الجمهور، وقرأها بعض السَّبْعة:

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٤)، وما سيأتي في «سورة الإنفطار»: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾، و«سورة الليل».

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٣)، و«روح البيان» (٩/ ١٩٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٢٢).

﴿فَكِهِينَ﴾، بغير مدٍّ[١]، والمعنى واحد[٢]، فهم مسرورون بعطاء الله في الجنة من ألوان الملذَّات، التي منها الملذَّات المعنوية، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم، والسماع لكلامه سبحانه والسرور برضوانه: «أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا»[٣]. ومثل ما أُعطوا من ألوان ملذات المعرفة في الجنة والمتعة بها، وأيضًا الملذَّات الحسيَّة من المطاعم والمشارب والمآكل والملابس والسرر وغير ذلك مما ذكر تعالى في كتابه[٤].

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: كرر لفظة: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مرتين، وفيه إشارة إلى أن المقام ليس مقام جزاء فحسب، بل جزاء وفضل من الله، وهو المنعم المتفضِّل[٥]، فهو الذي وقاهم من النار، وهذا وحده فضل عظيم، ولو لم يكن لهم إلا السلامة من العذاب لكفى، ولكنه جاد عليهم بهذا العطاء الذي هو بغير حدٍّ ولا عدٍّ، يُصَبُّ عليهم صَبًّا، ولا يحتاج إلى جهد ولا معاناة.

* ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

فكل شيء متاح لكم مع الهناءة؛ لأنه لا شيء يخيفهم، لا الموت ولا المرض ولا الانقطاع ولا الزوال، فقد أمنوا ذلك كله، وكل الغوائل والمفاجآت التي اعتادوا أن يتوقعوها في الدنيا، بل ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٨]، يعني: غير منقطع[٦].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥، ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥١).

(٢) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨- ٣٨٩)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٦).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٢٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٦).

(٦) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ١٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٥).

﴿هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾، وفيه ثناء عليهم، فلم يكن هذا نعيمًا لا سبب له، بل هو بسبب أعمالهم التي استحقوا بها رحمة الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦]، بخلاف الكافرين، حيث قال: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾، فبين قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩﴾ بالنسبة لأهل الجنة، وقوله مخاطبًا أهل النار: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾، بين الخطابين فرق عظيم؛ فالجزاء للكافرين من غير زيادة ولا نقص، أما المؤمنون فليس الجزاء مقابل عملهم، فإنما الحسنة بسبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، «قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالِحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[1]. أعمالهم كانت سببًا لتأهليهم للفوز بالرضوان والرحمة، ولكن لا مقابلة بين عملهم وبين مصيرهم العظيم الذي هو منة من الله وفضل.

وهذا القول تقوله الملائكة لهم ترحيبًا بمقدمهم وتهنئة لهم، وهو نوع من النعيم العظيم، وقد كان الناس في الدنيا يفرحون بحسن الاستقبال كما يفرحون بكرم الضيافة، حيث قال قائلهم[2]:

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرَى[3] ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ

* ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾:

يمكن أن تكون السُّرر مصفوفة لكل واحد منهم، ويمكن أن يكونوا على سُرر مصفوفة متكئين عليها[4]، كما قال في موضع آخر: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: ١٦]، ففيه سرور الاجتماع والترائي والأنس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤، ٢٧٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٢٦٢) منسوبًا إلى يعقوب الخُريمي، وهو في «ديوانه» (ص١٢). ونُسب إلى حاتم الطائي، كما في «العقد الفريد» (١/ ١٩٧، ١٩٩)، و«الروض الأنف» (٢/ ٦٥).

(٣) الخِصب: كثرة الكرم، والقِرى: ما يقدَّم للضيف.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٢٤).

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: التزويج معناه: القَرْن، أي: قرنَّاهم بحُور عين[1] وجعلنا الحور العين معهم أزواجًا اثنين اثنين، هذا هو المعنى، وإلا فإنه لو كان المقصود الزواج الذي هو العقد لعبَّر عن ذلك بدون الباء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لم يقل: زوجناك بها.

وحُور جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان، وعين جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها[2].

* هنا يأتي سؤال: أين الأولاد الذين هم من أعظم النعم؟

يأتي الجواب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:

قرأها الجمهور بإفراد الذرية: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والقراءة الأخرى- وهي سَبْعية- بالجمع: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[3].

ومعنى ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ أي: أن الذرية سارت مسيرتهم، فهي ذرية اتبعت الآباء بالإيمان بالتربية الصالحة وتلقين الإيمان والقيم ولو في أحلك الظروف[4].

والإيمان محله القلب، فلا يقسر الإنسان عليه وإنما يلقن الإيمان؛ بالدعاء وحسن التعامل والقدوة الصالحة وحسن الخلق، والنفقة الحلال، وصدق النية

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٠٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٩٤)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٥)، و«فتح القدير» (٤/ ٦٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٣١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٥، ٥٧٨)، (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤١٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٢١٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٣٣).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٢٦٢، ٦١٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٣٣)، و«حجة القراءات» (ص٦٨١)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص١٨١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٧).

والدعاء الصالح، فهي اتِّبعتهم على الإيمان وليس مجرد الإسلام الظاهر، وهي أيضًا تابعتهم في سلوكهم الظاهر وهديهم بإيمان وصدق واقتناع.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذرية الكبار الذين بلغوا وتعلَّموا واتَّبعوا وآمنوا.

ويحتمل أن يكون المقصود: الصغار؛ فإن الصغير يتبع خير والديه في الدين[1].

ويؤيِّد هذا التأويل: القراءة الأخرى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾[2]؛ فالآية تشمل الذرية الكبار، وتشمل الصغار الذين ماتوا دون البلوغ وهم في الجنة بفضل الله[3]؛ ولذلك لم يقل: بالإيمان، إنما قال: ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾؛ إشارة إلى أن المقصود هنا حتى لو كان ثَمَّ شيء من التقصير، أو كانوا أطفالًا لم يبلغوا ولم يفهموا الأشياء على حقائقها، وأن يستقلُّوا بمعرفتها، لكن عندهم الأصل الذي تربوا وتعلموا عليه من الإيمان، فالجزاء هو: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ومن كمال متعتهم وعيشهم أن يُلحق بهم أولادهم، كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إن اللهَ يرفعُ ذريةَ المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل»[4]، وجاء عن جمع من السلف ما يقتضي ثبوت صحة هذا المعنى[5]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُلحق الأدنى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٧).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٢)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٢٤)، و«حجة القراءات» (ص٦٨١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٥٤- ١٥٥).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

(٤) أخرجه البزار (٢٢٦٠- كشف)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٧٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٤٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٠٢) مرفوعًا.

وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٠٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٨)، والبيهقي (١٠/ ٤٥٣) موقوفًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٩٠).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨١، ٥٨٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٣).

بالأعلى، من دون أن ينقص من أجورهم شيئًا، فإن كان الابن في منزلة أعلى أُلْحِق والديه به في الجنة، وإن كان الأب في منزلة أعلى أُلْحِق أولاده وذريته وزوجه به، فيجمع الله تعالى الأسرة كاملة، وهذه بركة الاقتران بالطيبين والتأسِّي بهم، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لم ننقصهم شيئًا من أعمالهم[1]، وفي القرآن الكريم موضع آخر ذكر الله فيه هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: لا ينقصكم من أعمالكم[2]، فهنا المعنى: لم ينقص الله تعالى الآباء من عملهم شيئًا، وإنما رفع الأبناء إلى منزلتهم، فضلًا منه وكرمًا.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾: وهذه قاعدة عامة، فكل شخص رَهِين بكسبه، كقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨- ٣٩]؛ ولهذا قال بعضهم هنا: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: من غير المؤمنين.

وقال آخرون: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ من المؤمنين وغيرهم.

وهذا أولى؛ لأنه حملٌ للمعنى على عمومه، مرتهن بما كسب من خير أو شر[3]، وفضل الله تعالى وراء ذلك وفوقه، ولا يمانعه ولا يعارضه.

* ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

هذا على سبيل المثال لا الحصر، ومن عادة الملوك والمرفَّهين في الدنيا إذا اجتمعوا بأولادهم وأسرهم أن يجتمعوا على موائد الطعام، فكذلك في الجنة، ولكن بنعيم أوفى وأكرم، فالأسرة مجتمعة على خير وعلى سُرُر متقابلين، والمدد يأتيهم بكرةً وعشيًّا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٨٠، ١١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٦٦)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحجرات».

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٩١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٠)، و«التفسير المظهري» (٩/ ٩٧)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة المدثر».

* ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾:

أي: يأخذ بعضهم من بعض يتعاطون الكؤوس[1]، والكأس يُطلق عادة على الخمر[2].

فهم يتعاطونها بعضهم من بعض على سبيل المرح والمتعة وكمال النعيم، كما يحدث ذلك في الدنيا لمَن كمل سروره، لكن الكأس في الجنة ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ليس فيها سُكْر[3]؛ لأن المرء إذا سَكِرَ هَذَى وأصبح يلغو بالكلام الذي لا يليق، وليس فيها تأثيم، وهو: الإثم الذي يلحق الشارب[4]؛ لأنها ليست محرمة عليهم، وليس فيها ما يدعو إلى الإثم، فنفى عن الخمر كل عيوب الدنيا، وهي السُّكْر أو الغَوْل، حيث قال: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ [الصافات: ٤٧].

والعيب الثاني: اللَّغو الناتج عن تراجع العقل وسَطْوة الخمر.

والثالث: هو التأثيم، والإثم الناتج عن ارتكاب الكبيرة الموبقة في الدنيا؛ ولذا ورد عن النبي ﷺ: «مَن شرب الخمرَ في الدنيا، ثم لم يَتُبْ منها، حُرِمها في الآخرة»[5].

* ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾:

أي: بالخدمة، وهؤلاء الغلمان خلقهم الله تعالى لمهمة الخدمة في الجنة وليسوا عَبِيدًا لهم[6].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٨٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٧٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٣).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٥٤).

وهم في هذا المقام وبهذه الصفة ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، وإذا كان هذا هو جمال الخدم، فما بالك بالمخدومين؟!

وقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩]، وتأمل عناية القرآن بتوصيف الخدم الذين يطوفون على أهل الجنة بالشراب والسقي والطعام والمتعة، فكيف بحال أهل الجنة أنفسهم؟!

* ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

طاب الحديث وطاب الكلام وطاب المقام، فبدؤوا يتساءلون هم وأولادهم وأهلوهم الذين اجتمعوا في الدنيا على خير ومصلحة دنيوية أو دينية، ليس فيها معصية لله تعالى، فجمعهم في الدار الآخرة على أحسن حال.

وهذا دليل على أنهم يتذكرون كل ما كان في الدنيا، كما يذكر الكافرون، لكن المؤمنين يتذكرون تَنَعُّمًا والكفار يتذكرون حسرةً وأسفًا.

ولأهل الجنة من كمال العقول والأفهام واتساع المعارف وقدرات التذكر والاستحضار والاستمتاع ما لا يخطر على بال، وهو ضمن قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: **«أعددتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»**[(١)]. وليس النعيم مقصورًا على المطاعم والمشارب ونحوها، بل نعيم الرؤية والسماع لقول الله والرضوان والمعرفة أعظم من ذلك وأوسع.

* ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: في الدنيا خائفين من عذاب الله[(٢)]، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨]، وهو الخوف الذي يحمل على ترك المعصية وفعل الطاعة، وليس الخوف المسرف الذي يتحول إلى

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٠)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٨).

وسوسة، ولا الخوف من الموت الذي يتحول إلى مرض يُقعد الإنسان حتى عن عمل الدنيا، كما قيل في وصفهم[1]:

وإن جَــنَّ المساءُ فلا تراهم ... مــن الإشــفــاق إلَّا ساجدينا

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم كانوا خائفين على أولادهم وعلى ذراريهم أَلَّا يصلوا إلى ما وصلوا إليه.

* ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾:

و﴿ٱلسَّمُومِ﴾ هي: الرِّيح الحارة التي تَسْفِي الترابَ[2] الحار، واستعاره هنا لمعنى النار[3].

* ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

وفي قراءة بفتح الهمزة: ﴿نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[4]، يعني: لأنه ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

وهذه إشادة بمنزلة الدعاء، وأنه من أعظم الأعمال، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، و«مَن لا يسألِ اللهَ يغضبْ عليه»[6]؛ لما في الدعاء من انكسار النفس، والتواضع لله سبحانه، والاعتراف بالضعف والعبودية والعجز للنفس، والاعتراف بالكمال والقدرة لله، فاجعل لسانك رطبًا بدعاء الله سبحانه،

---

(١) ينظر: «ديوان هاشم الرفاعي» (ص٣٨٤).

(٢) أي: حملته أو ذرته.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٢).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٣)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٣٤).

(٥) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٧)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٣- ٦٨٤).

(٦) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٩٧٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والبزار (٩٤٢٥)، والترمذي (٣٣٧٣)، والحاكم (١/ ٤٩١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٥). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥٤).

ولا تعتمد على نفسك في شيء قط، واحذر أن يكلك الله إلى نفسك فتهلك؛ ولذا قال ﷺ: «دعواتُ المكروب: اللهمَّ رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصْلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلَّا أنت»(١).

و﴿ٱلْبَرُّ﴾: صاحب البر والجود والكرم والعطاء.

ومن معاني ﴿ٱلْبَرُّ﴾: الصادق، تقول: «فلان بارٌّ، برَّ في يمينه»، أي: صدق ولم يكذب، وكلاهما داخل هذا الاسم الشريف الذي هو من أسماء الله الحسنى، فرحمهم ووقاهم ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، وأوصلهم إلى ما يريدون(٢).

* ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

كما يدَّعي هؤلاء الذين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا، وقال بعضهم: كاهن؛ لأنه يخبر بعلم الغيب وما سيكون.

وقال بعضهم: مجنون؛ لأنه يدَّعي أمورًا لم تقع، فأمره الله أن يُذَكِّر ولا ينزعج أو يقلق مما قالوا، فلست بسبب ما أنعم الله تعالى عليك من العقل واصطفاء الله لك بالوحي ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يزعمون(٣).

ثم جاءت محاجة الكفار بهذه الصيغة ﴿أَمْ﴾ خمسة عشر مرة في هذه السورة بطريقة لا مثيل لها في القرآن الكريم.

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾:

هذا مما ادَّعوه لما قالوا: كاهن، أو مجنون، فنفى تعالى ذلك ولم يتوقَّف عنده؛ لأنه واضح البطلان، فهم يعرفون أنه ليس بشاعر، والشعر صنعتهم وبضاعتهم.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩١٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤١٢)، وابن حبان (٩٧٠) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وله شواهد. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٣)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (١٠/ ٢٤١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٠)، و«لسان العرب» (٤/ ٥٢) «ب ر ر».

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾، و﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾، و«سورة الحاقة»: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وهم كانوا يُلَبِّسون على الجهلة والعوام بأنه رجل يتعاطى الشعر، ومثله مثل الشعراء السابقين الذين هلكوا ولم يحدثوا تأثيرًا في الحياة، وكأنهم بهذا يعزون أنفسهم أيضًا بأن مآل هذه الرسالة إلى زوال وخفوت وهلاك صاحبها، فيكفي معها ومعه مجرد التربُّص، ولذا قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: ٥٢].

و﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ يحتمل أن يكون المقصود به: الموت[١]، كما قال أبو ذُؤيب الهذلي[٢]، وقد مات بنوه السبعة بالطاعون في عام واحد:

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ   والدَّهرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَن يَجزَعُ

ويحتمل أن يكون: حوادث الدهر، وتحوله من حال إلى حال، بالموت أو غيره[٣].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كل ﴿رَيْبَ﴾ في القرآن: شكٌّ، إلا مكانًا واحدًا في الطُّور: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، يعني: حوادث الأمور»[٤].

وكما قال الشاعر[٥]:

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٤٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢- ٥٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٢).

(٢) ينظر: «المفضليات» (ص٤٢١)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص٥٣٤)، و«كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص٣٣٠)، و«عيار الشعر» (ص٨٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٠٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٥٠٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٦)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه ابن الأنباري في «الوقف والابتداء» (١١٧). وينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٢٨)، و«الإتقان» (٢/ ١٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦١).

(٥) ينظر: «معجم الشعراء» (ص٣١٩)، و«الجليس الصالح» (ص١٢٣)، و«مصارع العشاق» (٢/ ١٥٩)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٢٣٠)، والمصادر السابقة.

تربَّص بها ريبَ المنون لعلَّها   تُطلَّقُ يومًا أو يموتُ حليلُها

أي: يتربَّص تغيُّرًا يسمح بالوصول إليها، **فيكون المعنى**: تربَّصوا بمحمد، فربما يموت، أو يعجز، أو يضعف، أو ينتصر عليه غيره، أو يُكْفَى بغيرنا.

والأقرب الأول، وأنهم رأوا انتظار موته، وظنوا أنه بموته سيموت شأنه، وتنتهي رسالته ودينه.

ولعل المقصود بـ«رَيْب المنون» في البيت هو: موت حليلها، لا غير(١).

* ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾:

إما أن يكون المقصود أصل التربُّص، **فيكون المعنى**: أنا أتربص بكم مثلما أنتم تتربَّصون بي(٢).

وهذا يتطابق مع قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥٢].

أو أن المقصود هو أن الشأن إذا كان شأن الموت الذي تتربصونه بي، فأنا أتربص الموت مثلكم؛ لأن الموت حقٌّ عليَّ وعليكم، ولست بجزع من الموت ولا أبالي أن ألقى الله تعالى، وإنما الشأن بكم أنتم(٣)!

وهذا ينطبق على اليهود حين كانوا يأتون النبيَّ ﷺ ويقولون: «السَّامُ عليك يا أبا القاسم». يتظاهرون بأنهم يُلقون السلام، وهم يدعون عليه بالموت، والسَّام هو: الموت(٤)، ولما غضبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسبَّتهم، نهاها ﷺ، وقال: «مَهْ يا

(١) وبهذا ذكره الطبري (٢١/ ٥٩٤) ضمن الأقوال التي يعنى بها الموت، وذكره غيره ضمن القول الآخر.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٤)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ٣٣١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٢).

(٤) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٥٧)، و«الاستذكار» (٨/ ٤٦٨).

عائشةُ، فإن اللهَ لا يحبُّ الفحشَ والتَّفحُّشَ»[1]. وقال النبيُّ ﷺ: «وعليكم». يعني نحن وإياكم نشترك في الموت، فهو أمر مشترك بيننا وبينكم.

وفي هذه الآية إعجاز لأنه قال لهم: ﴿تَرَبَّصُواْ﴾، فكان أولهم موتًا أبو جهل والزعماء الذين قُتلوا ببدر وسُحبوا إلى القَلِيب، وعاش النبيُّ ﷺ بعدهم، وانتشرت دعوته، وعمَّت رسالته، واتَّسعت أمته، حتى جاوزوا اليوم مليارًا ونصف مليار، كلهم يشهدون أنه رسولُ الله!

* ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

سؤال استفهام على سبيل الإنكار والتعجب منهم، **والأحلام** جمع: حِلْم، وهو العقل[2]، **والمعنى**: هل عقولهم تأمرهم بهذا الإنكار والصدود والإعراض عن الحق[3]؟

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: وهم أدرى بطبيعة الحال أن هذا لا يصدر من حِلْم وعقل، وإنما يصدر من طغيان؛ أن يصفوا رجلًا مثل النبي ﷺ بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن[4].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

وقد قالوا: إن النبيَّ ﷺ تقوَّل هذا: والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦]، فإن أحدًا يدَّعي على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويعلن بأن هذا من عند الله، وأن الله أمره ونهاه، ثم يمكِّن اللهُ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٣٥، ٦٢٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥، ٢١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٠- ٤٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤١١).

(٢) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٣/ ٣٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٥٣)، و«لسان العرب» (١٢/ ١٤٦)، و«تاج العروس» (٣١/ ٥٢٧) «ح ل م».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٥٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٣).

(٤) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٦٤).

تعالى له في الأرض وينصره ويعزّه ويظهر كلمته ويبقى على العصور والقرون والأجيال متبوعًا محبوبًا مؤيَّدًا منصورًا؛ هذا لا يتأتَّى! فالله تعالى يقمع أولئك الذين يتقوَّلون عليه.

ثم إن في دعواهم هذه أنه ﷺ تقوَّل القرآن من تلقاء نفسه تناقضًا؛ فكيف تزعمون أنه تقوَّل هذا القول المحكَم البليغ العظيم، الذي يُعْجِزُ العقلاء ويُبْهِرُ العظماء ويقع به التحدِّي لهم ولغيرهم فينقطعون، وتزعمون في الوقت نفسه أنه مجنون؟!

* ولهذا قال بعدها: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾:

وتأمَّل أنه قال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾، ولم يقل: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، أو: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، فتحدَّاهم الله تعالى بأقل قدر، فلم يستطيعوا، وتخيَّل كيف هو حالهم وهم يقولون مثل هذا الكلام، ويسمعون هذا الرد القرآني! فلو لم يكن ﷺ مرسَلًا من عند الله ويتلو كتاب الله لما تحدَّاهم بهذا؛ لأن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يتجرَّأ على مثل هذا التحدِّي إلا وهو يعلم أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

* ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾:

انتقل بهم إلى المجادلة في شأن الإلوهية، فهل خُلقوا من غير خالق؟

ويحتمل أن يكون المعنى: من غير مقصد وغاية؟[1] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: أهم الخالقون لأنفسهم؟ لأن هذا أقرب مذكور في الآية، هل ينكرون أن يكون الله تعالى خلقهم أم هم الخالقون أنفسهم؟

وهذا محال، ولا يمكن أن يخلق الإنسان نفسه؛ لأنه العدم لا يخلق نفسه ولا يخلق شيئًا، فهذا من المستحيلات.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢١).

* ولهذا عقَّب بتحدٍّ أكبر، فقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾:

فهذه السماوات والأرض التي يرونها أمامهم بهذه القوة والضخامة تصدمهم وتجبههم في كل وقت، هل هم الذين خلقوها، أو يعرفون أحدًا ادَّعى أنه خلقها؟

كيف وهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلقها، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ لأنهم إذا سُئلوا في الجاهلية: مَن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله. ولكن الله فضحهم بأنهم وإن كانوا يردِّدون بألسنتهم أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، لكن هذا ليس يقينًا في نفوسهم، وإنما ثقافة توارثوها، وكلمات ردَّدوها، دون أن تستقر إيمانًا في قلوبهم.

* ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ٣٧﴾:

حينما احتجوا على رسالة النبي ﷺ، ورأوا أنه ليس جديرًا بها، واقترحوا أن تكون الرسالة إلى ﴿رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: إلى كبير من كُبراء الطائف أو آخر من كبراء مكة(١)، فهل خزائن الله عندهم حتى يقوموا بقسمتها؟ في حين يبلغ تواضع النبي ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

و﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾: تُقرأ بالصاد عند جماعة، وتُقرأ بالسين: ﴿الْمُسَيْطِرُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية(٢)، أي: ألهم السيطرة والملك والغلبة(٣)، وكأنهم أرباب متصرِّفون في الأكوان، أو بيدهم الأمور(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ١٨٢)، و«تفسير المنار» (٨/ ٣٣).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٨)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٦٦- ١٦٧).

(٣) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٨)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٤).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٢)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٥).

* ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾:

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾: يمدونه إلى السماء ويقعدون عليه فيستمعون أو يسترقون السمع[1]، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وليس بادِّعاء مثلما يدَّعي الكهنة أو غيرهم، وإنما بحجة قوية تثبت أنهم فعلًا يستمعون، في حين أن الرسول ﷺ كان يأتيه جبريل بالوحي بكرةً أو عشيًّا، ويتلو على الناس هذا الوحي المعجِز، والحاوي ألوان المعرفة والحق في أخبار الماضي وأحكام الحاضر، ومواعيد المستقبل وأسرار الصنعة والكون، مما لا يستطيعون أن ينكروه، ولا أن يأتوا بمثله.

* ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾:

وذلك أنهم كانوا يدَّعون أن الملائكة بنات الله[2].

* ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾:

وجِّه الخطاب إلى النبي ﷺ: هل طلبتَ منهم مالًا على دعوتك؟ فلذلك هم مثقلُونَ بهذا الدَّين الذي تطلبه منهم، ولا يستطيعون أن يسمعوا، ولا أن يستجيبوا؟![3].

* ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾:

هل اطَّلعوا على الغيب، ولو أصبح عندهم لم يعد غيبًا، فقد عرفوه، وهذا نوع من التعجيز، فليس عندهم ﴿سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، وليس ﴿عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٢).

(٢) كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٩]. ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٥- ٢٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٤/ ١٩٤، ٢٦٧)، (٩/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٩٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٢٧٦).

أي: ينسخون ما اطلعوا عليه(1).

* ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

وهذا هو المقصود أنهم يريدون كيدًا، وكل ما يقولونه ليس على سبيل المناقشة المعرفية، ولا الجدل العلمي، ولا الحجة، ولا على سبيل الشبهة التي تحتاج إلى كشف، كلا! بل على سبيل الكَيْد والتحذير من دعوته ومحاربتها(2).

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: وقد يكون هذا مرتبطًا بقولهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾، والمعنى: أنهم كانوا يضعون خطةً لقتله ﷺ، وإلا فهل كان عندهم الغيب فاطَّلعوا على أن عمر النبي ﷺ أقصر من أعمارهم، وأنه يموت قبلهم؟ كلا! بل الذي حدث أن الله مكر بهم مقابل مكرهم، وقال: ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ مصداقًا لقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، فقد ماتوا هم، وبقي هو حتى استقرت رسالته، وانتصرت دعوته، وآمن بها الناسُ.

* ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها، ما منزلتها، وما مكانتها وما تأثيرها؟ هل خَلَقَتْ؟ هل رَزَقَتْ؟ هل أَعطَتْ؟ هل عَلِمَتْ غيبًا(3).

* ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

وهذا لم يحدث، لكنه شيء كانوا يقترحونه: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٦).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٧٧).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٨).

﴿ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ فلن يؤمنوا ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٧]، ولو رأوه لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، إنه سُحُب تراكمت، واجتمع بعضها على بعض(١).

هذا الحشد من الأسئلة الذي لا نظير له يؤكِّد على حرص القرآن الكريم على رفع الغشاوة عن الناس وكشف حالة الغفلة؛ ليحمل القارئ على مواجهة أسئلة الكون والحياة بجد، ويحاصر العقول والقلوب من كل ناحية؛ ليكشف غشاوتها ويحرِّكها ويحملها على النظر والتفكُّر، ولعل هذا هو أخطر ما يُبتلى به الناس، أن يمروا على الحقائق معرضين، ويردِّدوا كلامًا حفظوه واعتادوا أن يقولوه، دون أن يعني إيمانًا وقناعة.

حتى القرآن الكريم نفسه كم يقرؤه الناس وهم عن تدبره غافلون، دون أن يدركوا مقاصده ومراميه، فلا تلامس حقائقه شغاف قلوبهم، ولا تحرِّك ضمائرهم، ولا تغيِّر واقعهم.

أو يقرؤونه وهم منهمكون في جانب لغوي إعرابي، أو فقهي بحت، أو بلاغي، ربما بالغوا فيه حتى حجبهم عن حقيقة القرآن وعظمة آياته، وهداياته إلى الله العظيم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعبادته، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

* ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

ليس معناه ترك الدعوة، بل ترك الجدل العَقِيم معهم، حيث يصبح بلا قيمة، ولا تحزن عليهم، والكفار آنذاك كانوا خلقًا كثيرًا في مكة وغيرها، وكانوا ألوانًا وضُروبًا، فيهم الملأ المستكبرون الذين يحاربون الإسلام ويحاصرون دعوته، وفيهم العوام الذين ينتظرون أن تُحسم المعركة حتى يذهبوا إلى ما تمليه عليهم

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٢٨٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٥٧٦)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٢٠٦)، و«الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية» (٢/ ٣٦٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٠٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٩٦).

قناعاتهم، وليس عندهم استعداد أن يضحوا في سبيل تلك القناعات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢]، هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجًا هل جاءت حجج جديدة لم يسمعوا بها من قبل؟ كلا؛ هي الحجج والآيات نفسها، ولكن الموانع التي كانت في نفوسهم وعقولهم تَحُول بينهم وبين الاستماع والتفكير واتخاذ القرار زالت بسبب تغيُّر الوضع السياسي والاجتماعي والقبلي، فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يعني: اترك الملأ المستكبرين الذين كُتب أن يموتوا على الكفر، كأبي لهب وأبي جهل والملأ من قريش، ذَرْ هؤلاء، ولا تحزن عليهم، ولا تلتفت إليهم، وانشغل بدعوة مَن يستجيب للدعوة[1].

﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: تصيبهم الصَّعْقة، والصَّعْقة قد تقتل، وقد تجعل الإنسان في غيبوبة ثم يسقط، فيحتمل أن يكون المعنى: الموت، ويحتمل أن يكون المقصود: أهوال يوم القيامة[2]، على اختلاف القراءاتين بضم الياء: ﴿يُصْعَقُونَ﴾، وفتحها: ﴿يَصْعَقُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية[3].

* ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۝٤٦﴾:

أي: لا ينفعهم شيئًا كيدُهم في الدنيا؛ لأنه قد زال، وفي ذلك الموقف لا كيد

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٢١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٥/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣).

وينظر أيضًا: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٢٧-٢٢٨)، و«حجة القراءات» (ص٦٨٤).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٩)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٦٩).

لهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من قِبَل طرف آخر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[١].

* ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: يصيبهم في الدنيا قبل الآخرة[٢]: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾.

وتحمل أولًا: على الدونية الزمنية، أي: أنه في وقت مبكِّر قبل يوم القيامة، فهو في الحياة الدنيا، كما قال سبحانه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وهذا يعني كل ما يصيبهم من عذاب الدنيا أن يكون فيه توجيه لهم إلى التقوى والإيمان والطاعة وإقامة الحجة.

ويحمل على عذاب القبر، كما قال بعض المفسِّرين، فإنه قبل يوم القيامة، وهو عذاب البرزخ[٣]، وهو دون ذلك أيضًا من حيث الشدة والقوة؛ لأنه لا يقارَن بعذاب الدار الآخرة، فعذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، كما قال ﷺ[٤].

* ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾:

وهذا تثبيت للنبي ﷺ، وتقوية لقلبه، يأمره ربُّه أن يصبر لحكم الله تعالى[٥]: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، اصبر على الشريعة، اصبر على تأخر الفتح والفرج

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ١٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٠٢)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٤٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٣٤١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٥٤)، و«الكشاف» (٣/ ٥١٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٥/ ١٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ٢٣٣).

(٤) كما في «صحيح مسلم» (١٤٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٣).

والنصر والتمكين.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فإن الله تعالى لا يغفل عن هؤلاء الظالمين، ولا يترك أولياءه ورسله وأنبياءه، فهو يراهم ويسمعهم ويجيبهم، ولكنه قد جعل لكل شيء أجلا[1]، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرآنا[2]، كما قال سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وكما قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]، وقال لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾، وفي «صحيح البخاري»: «كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم»[3].

وللتسبيح سرٌّ في تقوية القلب، وتعزيز النفس، والصبر على صعوبات الحياة، وتحقيق النجاح، وتحصيل السعادة والرضا والقرب؛ ولذلك فإن إدمان التسبيح ترياق، وبخاصةً للذين يواجهون مواقف صعبة، أو أعمالًا شاقة، كما أرشد النبيُّ ﷺ عليًّا وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» عند النوم، وقال: «هو خيرٌ لكما من خادم»[4].

والمعنى: حين تقوم من النوم، فالتسبيح مشروع أول ما يصحو الإنسان، فيسبِّح ربَّه ويحمده؛ ولذلك شُرع مثل: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النُّشُورُ»[5].

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٥)، و«روح البيان» (٩/ ٢٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣١١٣، ٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «صحيح البخاري»: «مَن تَعارَّ من الليل[1]، فقال: لا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ لله، وسبحانَ الله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله. ثم قال: اللهمَّ اغفرْ لي- أو: دعا- استُجيبَ، فإن توضَّأ وصلَّى قُبلتْ صلاتُه»[2].

هذا وعد عظيم أن يستحق المغفرة إذا ما انقلب من جنب إلى جنب وقال هذا الدعاء: «اللهمَّ اغفرْ لي». وهذه من الغنيمة الباردة.

وحمل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ على القيام من القيلولة[3]؛ لأنهم كانوا يقيلون قبل صلاة الظهر، فإذا صحا سبَّح ربه.

وقيل: حين تقوم من مجلسك[4]، وهذا ما يسمى: كفارة المجلس، وفي الحديث: «مَن جلسَ في مجلس، فكثُرَ فيه لَغَطُهُ فقال قبلَ أن يقومَ من مجلسه ذلك: سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدكَ، أشهدُ أن لا إله إلَّا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك. إلَّا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك»[5].

وهذا الحديث ورد من طرق كثيرة، حتى جمع فيه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزءًا خاصًّا في جمع طرقه، وإن كان كثير من طرقه معلولة، لكن في مجموعها لها أصل،

---

(١) أي: استيقظ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٥)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٥٧)، وابن حبان (٥٩٤)، والحاكم (١/ ٥٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «التاريخ الكبير» (٤/ ١٠٤)، و«الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٥٥)، و«علل ابن أبي حاتم» (٢٠٧٨)، و«علل الدارقطني» (٨/ ٢٠١)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (٢/ ٧١٦- ٧٤٥).

فتختم بهذا التسبيح ﴿حِينَ تَقُومُ﴾.

فيتحصَّل مما سبق: التسبيح قبل النوم، حتى ينام على تسبيح، وعند الاستيقاظ؛ ليكون التسبيح أول ما يباشره عقله وقلبه ولسانه عند صحوه، وأثناء تقلبه في المنام من جنب إلى جنب، وأثناء تقلبه في الحياة وأعمالها.

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾:

والمقصود: صلاة المغرب وصلاة العشاء(1)، فهما من الليل، والصلاة تسبيح؛ ولهذا تسمى صلاة الضُّحى: سُبحة الضُّحى؛ لأن المصلِّي في الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى».

أما ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ فهو: وقت الفجر(2)، إذا النجوم أدبرت، وبدأت تغيب عند الإسفار.

وقال بعضهم: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: راتبة الفجر(3)، فقد قال النبيُّ ﷺ: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها»(4). و «لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ منه تعاهدًا على ركعتي الفجر»(5). ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «لا تَدَعُوا ركعتي الفجر، وإن طردتكم الخيلُ»(6). وكان ﷺ لا يتركها في حضر ولا في سفر، يقرأ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 468، 607)، و«تفسير الماوردي» (5/ 357)، و«تفسير القشيري» (3/ 479)، و«زاد المسير» (4/ 165)، و«تفسير الخازن» (4/ 202)، و«التحرير والتنوير» (26/ 328)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 415)، و«تفسير القرطبي» (17/ 80)، و«تفسير النسفي» (3/ 388)، و«تفسير القاسمي» (9/ 56)، و«تفسير السعدي» (ص818)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 609)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 425)، و«تفسير الماوردي» (5/ 388)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 514)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه مسلم (725) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(5) أخرجه البخاري (1169)، ومسلم (724) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(6) أخرجه أحمد (9253، 9258)، وأبو داود (1258) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورجَّح الدارقطني وقفه. ينظر: «علل الدارقطني» (9/ 68)، و«بيان الوهم والإيهام» (3/ 386- 387)، و«نصب الراية» (2/ 160)، و«ضعيف أبي داود» (233)، و«إرواء الغليل» (438).

فيهما بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1].

فخير ما يتزوَّد به الداعية: القرب من الله، واصطحاب ذكره وتسبيحه، وألَّا يشغله عنه شاغل من ازدحام الناس أو كثرة الأعمال؛ فللقلب حقٌّ لا ينبغي نسيانه، ولا ديمومة للمؤمن على نشاطه وجِدِّه وعمله، إلا بالله والقرب منه وكثرة ذكره وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار.

○○○

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٧٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وكان يقرأ فيهما بغيرهما أيضًا. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤٦)، و«أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٢/ ٤٤٨- ٤٥٦)، و«اليوم النبوي» (ص١٦).

سُورَةُ النَّجْمِ

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة النَّجْم»، أو: «سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾»، أو: «سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾»، وهي من السور ذات الاسم الواحد(١).

وقد ورد أن النبيَّ ﷺ قرأها في مكة، فسجدَ، وسجدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ(٢).

وورد أنه سجدَ بها وسجدَ مَن معه، غير أن شيخًا أخذ كَفًّا من تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا.

قال ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث: «فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أُمَيَّة ابن خلف»(٣).

*** عدد آياتها:** اثنتان وستون آية، أو واحد وستون آية، على اختلاف بين علماء العدِّ(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧١، ٤٨٦٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٦٧، ٤٨٦٣)، ومسلم (٥٧٦).

(٤) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨﴾، ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩]، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾. وينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٤)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٠٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٤٣).

* **وهي مكيَّة** عند جماهير المفسرين، وهو الراجح[(١)].

وقد رُوي عن الحسن أنها مدنية[(٢)]، وهو قول ضعيف جدًّا.

وقال بعضهم: إن فيها آية مدنية؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[(٣)] [النجم: ٣٢].

وهذا أيضًا فيه نظر؛ فالسورة مكية كلها، ولعلها نزلت جملة واحدة، والله أعلم.

* ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾:

يُقسم ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بـ«النَّجْم»، ويحتمل أن يكون المقصود: أي نجم من النجوم، كما في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾[(٤)] [التكوير: ١٥-١٦].

وقد يكون المقصود نجم خاص، قد يكون «الثُّرَيَّا»[(٥)]؛ فهو نجم معروف عند العرب، وكثير من مواقيتهم في الرَّعْي والزرع وغيرها، مرتبطة بـ«نَوْء الثُّرَيَّا»؛ ولذلك كانوا يقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ عِشاءً، فابْتَغَى الرَّاعِي كِساءً»[(٦)]؛ كناية عن مجيء البرد، فالرَّاعي يريد الدِّفء. ويقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّةً- أي: الفجر- فابْتَغَى الرَّاعِي شُكَيَّةً»[(٧)]. والشُّكَيَّة: وعاء من جلد يوضع فيه اللَّبَن أو الماء[(٨)]، معناه: أنه جاء وقت

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٧).

(٢) ينظر: «دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٧٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٢).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»، و«سورة التكوير».

(٥) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٢)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «نثر الدر» (٦/ ٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٧) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص١٣١)، والمصادر السابقة.

(٨) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦٥)، و«لسان العرب» (١٤/ ٤٤١) «ش ك ا».

الحرِّ، فيحتاج الراعي إلى الشراب.

أو القسم بـ«نَجْم الشِّعْرَى»[1]، وهو مذكور في السورة ذاتها، وهو نَجْم تقدِّسه بعض العرب، وورد أن خُزاعة كانوا يعبدونه[2].

وهو لم يُقسم بـ«النَّجْمِ» مطلقًا، وإنما أقسم به في حالة خاصة؛ وهي ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط[3].

ويحتمل المعنى: غاب[4]، كقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

والقَسَم بهذا الحال هو أول تفنيد لعبادة النُّجُوم؛ لأن «النَّجْم» يغيب ويختفي، فكيف تعبدونه؟!

وإذا قلنا: إن معنى ﴿هَوَىٰ﴾: سقط، فالمقصود: الشِّهاب الذي يراه الناس وهو ينقضُّ ساقطًا[5]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

* ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾:

الخطاب للمشركين[6]، والواضح أن الخطاب جاء مباشرًا وقويًّا وسريعًا؛

---

(١) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٥)، و«فتح البيان» (١٣/ ٢٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥١).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٣)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٨٩).

(٦) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٨٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٦).

ولذلك جاء القَسَم مختصرًا في آية واحدة وبشيء واحد، هو «النَّجْم إذا هَوَى».

وسمَّى نبيَّه ﷺ: «صاحبًا لهم»، كما قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[1] [سبأ: ٤٦].

وفي هذا إشعار لهم وتذكير بأنه منهم، وُلد وعاش بينهم، ويعرفون نسبه وميلاده، وعقله وخُلقه، وليس غريبًا عليهم في ولادته، ولا نشأته، ولا تفصيل حياته وسلوكه، فكيف يتأتَّى لهم أن يتنكَّروا لرسالته، وينسبوا إليه ما هو منه بريء، وهم أخلق الناس بقبول دعوته؟! وهو عزهم ومجدهم، وهو صاحبهم[2]!

وكما قيل: «كل شخص لست تعرفه، ككتاب لست قارئه»، فالشخص الذي تجهله قد لا تحسن فهمه، وقد يتكلَّم بكلام وتظن أنه يقصد معنى آخر، فإذا عرفتَ الشخص فقد كشفتَ الكتاب، وعرفتَ السِّر، وفهمتَ المغزى، وهم عرفوا صدق النبي ﷺ وسلامة قصده، وعزوفه عن الرئاسة والجاه والدنيا والملذَّات، وبعده عن التطلُّع والاستشراف، وتفرده عنهم بالتعبد في غار حراء، ومجانبة الأصنام والخمر والفواحش واللَّهو، ولم يعيبوه قبل النبوة بشيءٍ ألبتة.

وفي هذه الآية نفي لشيئين: الضَّلال والغِواية؛ فالضَّلال هو: عدم الهداية؛ كوصفهم إياه بالجنون، فهذا نوع من الضَّلال[3]، وبعض الناس يتَّبعون ضلالات نفسية تتلبَّسهم، وتخرج بهم عن جادة العقل والرَّزانة، كادِّعاء أحدهم أنه المسيح ابن مريم أو أنه المهدي أو يدَّعي النبوة، وحينما تجالسه تجده بلا علم، ولا معرفة، ولا فقه، ولا بصيرة، ولا عقل، ولا اتزان نفسي، وإنما هو مبتلى بآفة نفسية سبَّبت

---

(١) ينظر: «روح البيان» (٩/ ٢١٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٨)، و«تفسير المراغي» (٢٠/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٧)، وما سيأتي في «سورة التكوير».

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٤٦)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٥٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٩)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٤٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢).

له هذه الضلالة، والضَّال هنا يظن أنه صادق، ويصدِّق نفسه؛ بسبب تلبس حالة مرضية لعقله.

فيُقسم تعالى على نفي هذا الاضطراب أو الجنون الذي ادَّعوه، ونسبوه إلى النبي ﷺ[1].

أما الغِواية فمعناها: تعمُّد الكذب عن قصد، وسبق إصرار[2]، بدعوى يريد من ورائها دنيا أو جاهًا أو ما أشبه ذلك، وقد يدخل في الغواية: الشِّعْر، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، والله تعالى قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[3] [الشعراء: ٢٢٤].

* ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾:

وتأمَّل التناسب والتجانس بين قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾: ما تهواه النفس، وتميل إليه[4]، فهذا النبي المصطفى المختار ﷺ متجرِّد عن ﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾، ولا يتكلَّم من قِبل نفسه ورغبته، **وأول ما يدخل في هذا**: القرآن الكريم؛ لأنه الوحي الذي ﴿يُوحَىٰ﴾؛ ولا يمنع مع إرادة القرآن أن يكون ذلك تزكية لمنطقه ﷺ عامةً؛ ولذلك كان يمزحُ، ولا يقولُ إلَّا حقًّا[5]، وكان يقول المحكمات الجوامع من الأقوال، حتى إن من العلماء مَن جمعوا الأحاديث التي جرت مجرى المثل والحكمة في وجازتها واختصارها وحكمتها[6]، فقد أُوتي

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨﴾.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٣)، و«تفسير ابن رجب» (١/ ٢٢١)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٤٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٢- ٩٣).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص١٣٤)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٤٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٩) «هـ و ي»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٣).

(٥) كما في «مسند أحمد» (٨٤٨١، ٨٧٢٣)، و«الأدب المفرد» (٢٦٥)، و«جامع الترمذي» (١٩٩٠)، و«سنن البيهقي» (١٠/ ٢٤٠)، و«الآداب» للبيهقي (٣٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنهم قالوا: يا رسولَ الله، إنك تُداعبُنا! قال: «إني لا أقولُ إلَّا حقًّا». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٦).

(٦) وقد ذكر الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٦) العلماء الذين جمعوا جوامع كَلِمه ﷺ في مؤلَّفات خاصة.

ﷺ جوامع الكَلِم بخواتمه[1]، ودان له بذلك البعيد والقريب.

فإذا صان تعالى منطقه ﷺ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، فقد صان سلوكه واعتقاداته وأحواله ومشاعره أيضًا ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2]، وصنعه على عينه، واصطفاه في أفعاله وأقواله؛ ولذلك لما كان فتح مكة أَمَّن رسولُ الله ﷺ الناسَ، إلا أربعةَ نفر وامرأتين، منهم عبدُ الله بن سعد بن أبي السَّرْح، وقد اختبأ عند عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلما دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، بايعْ عبدَ الله. فرفع رسولُ الله ﷺ رأسَه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رَشِيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟». فقالوا: وما يدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، هلَّا أومأتَ إلينا بعينك! فقال: «إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأَعْيُن»[3].

فلم يقبل ﷺ على عدو مهدر الدم- لأنه انتهك الحرمات- أن يغمز لأصحابه بطرف عينه، أن عاجلوه بالقتل، فتعامله في غاية الوضوح والتجرد والصفاء.

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾:

ومرد الضمير للقرآن اتفاقًا[4].

والوَحْي هو: الصوت الخفي[5]، والله تعالى بعث جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بهذا الوحي

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٧٧، ٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣، ٢٠٠١).

والمعنى: إيجاز اللفظ، مع تناوله المعاني الكثيرة جدًّا، ويختم على المعاني الكثيرة التي تضمَّنا اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه؛ لعذوبة لفظه وجزالته. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٣/ ١٧٠)، و«هدي الساري» (ص٩٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٧/ ١٠٥)، وأبو يعلى (٧٥٧)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٨)، والحاكم (٣/ ٤٥)، والبيهقي (٧/ ٦٣)، (٨/ ٣٥٦)، والضياء (٣/ ٢٤٨- ٢٥٠) (١٠٥٤، ١٠٥٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٤٩- ٤٥٠)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٧٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٢٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٦).

(٥) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٩)، و«مختار الصحاح» (ص٣٣٤) «و ح ى».

إلى محمد ﷺ[1].

* ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾:

أي: علَّمه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ القرآنَ[2]، فالضمير يعود إلى النبي ﷺ، أو يعود إلى القرآن الكريم، أي: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علَّم النبيَّ ﷺ، أو جبريل علَّم القرآنَ للنبي ﷺ[3].

وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي كان ينزل بالوحي على الأنبياء السابقين، فهذه وظيفته وحده اختصَّه اللهُ بها مع الرسل جميعًا.

* ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾:

هذا وصف لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بأن بنيته شديدة قوية[4]، وقد ورد أن النبيَّ ﷺ رآه مرتين على صورته التي خُلق عليها، وقد سَدَّ الأفق، له ستمائة جناح، سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء والأرض[5].

و﴿مِرَّةٍ﴾ تعني: القوة[6]، لكنها تعني نوعًا من القوة المعنوية؛ قوة العقل والفهم والحكمة، وما أعطاه تعالى وميَّزه عن سائر الملائكة[7].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٠١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٢٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨- ٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٦)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٨٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٥، ٤٨٥٥، ٤٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤، ١٧٧).

(٦) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ١٥٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤)، والمصادر السابقة.

(٧) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٥٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٥).

ومعنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾: اعتدل وتهيَّأ واستعد لهذه المهمة الجليلة العظيمة[1].

* ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾:

أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين رأى النبي ﷺ بالأُفق الأعلى، وقيل: النبي ﷺ رأى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

والأُفُق هو: ملتقى الأرض والسماء في نظر الرَّائي[3]، فالنبي ﷺ رأى جبريل في الأُفُق، والأُفُق الأعلى هو: أعلى الأُفُق[4].

* ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾:

أي: نزل قليلًا قليلًا، حتى كان من النبي ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[5]، وهذا تعبير معروف، تعني أنه قريب.

والقَوْس معروف، وهو الذي تُرمى به السهام[6].

وقد يكون هو: الذِّراع، أي: كان قدر ذراع أو ذراعين من النبي ﷺ، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾[7].

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ليس للشك، فالله يعلم الأشياء بحقائقها ودقائقها، فالمعنى:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤١٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤).

(٣) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٦/ ٤٧٨)، و«المصباح المنير» (١/ ١٦) «أ ف ق».

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٧٩)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٦٩٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٦).

(٦) ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٤٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٨٧) «ق و س».

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٧).

كان أقل من ذلك وأقرب.

ويحتمل أن له حالتين، كان في إحداهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، وفي الأخرى ﴿أَدْنَىٰ﴾ من ذلك(١).

وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول مرة، فأوحى اللهُ إليه صدر «سورة ﴿اقْرَأْ﴾»، ثم فَتَرَ الوحي فَتْرَةً، حتى تبدَّى له جبريلُ ورسولُ الله ﷺ في أجياد في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، قد سدَّ عِظَمُ خلقه الأُفق(٢)، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعُلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه(٣).

وهكذا بدأ النبيُّ ﷺ يعتاد على نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى مجيئه، وكان يأتي أحيانًا بصورة رجل، مثل: دِحْيَة بن خَلِيفة الكَلْبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لجمال صورته(٤).

وهنا تلحظ أنه تعالى يخاطب بهذا التفصيل المشركين، ويصف لهم كيف ينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، وكيف يلتقي بالنبي ﷺ؛ من أجل أن يتدرَّبوا على مثل هذه المعاني التي قد تبدو غريبة على بيئة أُمِّيَّة مثل بيئتهم، ولا عهد لهم بها، كما حكى الله حالهم في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ولم يكن لهم علم بالكتب والأنبياء والرسل، والملائكة والوحي، وطريقة نزوله، وأنواعه؛ فلذلك فصَّل تعالى لهم ذلك هنا.

* ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾:

سماه: ﴿عَبْدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي، كقوله سبحانه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]،

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٦)، والمصادر السابقة.

(٢) تقدم عند قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ٦﴾.

(٣) باختصار من «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٥)، وينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٣/ ٣٨٦)، و«فتح الباري» (١/ ٢٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥١).

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[1] [الفرقان: ١]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار»[2].

والمقصود بقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾: التعظيم والتفخيم لهذا الوحي، أي: أوحى شيئًا عظيمًا كريمًا، يكشف الناس من أسراره ومعانيه بقدر عبوديتهم وتواضعهم لربهم جل وتعالى[3].

* ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾:

أي: فؤاد النبي ﷺ، لم يكن قد كذب فيما رأى، بل رأى صدقًا وحقًّا[4].

* ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ يا معشر قريش وتجادلونه[5]، ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، وهو يرى بعينه، ويرى بقلبه وفؤاده، أفأنتم أيها الجاهلون تجادلونه في محسوسه الذي رآه بعيني رأسه، ورآه بقلبه، على أنه تعالى حجبه عنكم بجهالتكم وكثافة حسكم!

* ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾:

أي: رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرةً ثانيةً يومَ الإسراء والمعراج[6]، ﴿عِندَ

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، و«سورة العلق»: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

(٢) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٨)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٢).

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٤٢)، والمصادر الآتية.

(٦) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٨٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٠).

﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وهي سِدرة خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك المكان المقدَّس[1].

وهذه معانٍ عظيمة، لا يستطيع الإنسان أن يدرك كُنْهَها، ولا أن يحيط بتفصيلاتها، ولو ذهب العقل يتأمَّل أو يفكِّر ما خرج من ذلك بطائل؛ فإنه لم يكشف له من هذا الغيب إلا أن ثمة شجرة تُسمَّى: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، فوق السماء السابعة، ذهب إليها النبيُّ ﷺ في الإسراء والمعراج، حيث سمع عندها صوت صَرِيف الأقلام، والملائكة يكتبون أفعال العباد، وأقدار العباد[2].

وهذا النص وأمثاله يفتح عقل المؤمن ليتَّسع ويمتد، ويدرك أن الخلق والكون أعظم مما تراه العين أو يدركه الحس، فثَمَّ سماوات وعرش وكرسي وما شاء الله بعد مما لم تره عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾:

وهذا من الأدلة على أن الجنة في السماء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسماها: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ لأنه يصير إليها المؤمنون[3].

* ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

كأن الرؤية التي حصلت للنبي ﷺ هناك لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت في الوقت الذي غشي السِّدرة فيه شيء عظيم، وقد قال النبيُّ ﷺ في حديث الإسراء: «**وغشيها ألوانٌ، لا أدري ما هي**»[4].

وقيل: إنها الملائكة[5]، وهي في هذه السِّدْرَة كأنها الطيور على أغصان

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٥٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٥٨)، و«روح البيان» (٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ٢٣١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٤).

الأشجار تُسبِّح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وتفعل ما أُمرت به، فغشي السِّدرةَ تلك الأشياء التي قال عنها النبي ﷺ: «لا أدري ما هي».

* ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ ﴾:

مع ذلك كله، وما فيه من المفاجأة والهول والعجب لم يزغ بصر النبي ﷺ، ولم يقع عنده اضطراب في الرؤية؛ بل كان وافر البصيرة والحكمة، والاستعداد والتهيُّؤ لهذا الموقف بما آتاه الله من القوة والثبات[(١)].

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ البَصَر بأن يتجاوز أو يتعدَّى، فما حكاه هو ما رآه ﷺ، من غير خطأ سببه الزيغ، ولا زيادة سببها الطغيان[(٢)].

* ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾:

إما أن يكون رأى الآية الكبرى، أو رأى آيات كُبَر، وهذا أقرب[(٣)]، فيكون قد رأى شيئًا من آيات ربه الكبرى في هذه السماء، مما أخبر عنه النبيُّ ﷺ في حديث الإسراء الطويل.

ومع ذلك فقد كان المشركون يستغلون ما حدَّثهم به النبيُّ ﷺ مما رآه في الإسراء والمعراج؛ للطعن في صدقه واتهام عقله، وهكذا هم يرون أن كل ما لا تطيقه عقولهم ولا تصدِّقه يعدُّونه أساطير وصاحبه مجنونًا أو به مسٌّ، أما المصدِّق برسالة النبي ﷺ فهو يفوِّض الأمر كله لله في خبره وأمره، فإن أخبره الوحي بما لا يحيط به عقله ولا حسُّه صدَّقه وآمن به، وجعل عقله حيث يليق به.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٧- ٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٩٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٤٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٩٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٨- ٩٩).

وهذا أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأتيه مشركو مكة يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا». ومن يومئذٍ سُمي: الصِّدِّيق[(١)].

فهكذا المؤمن لا يجعل عقله محصورًا في عالم الماديات الضيِّق المحدود، والبشر يدركون أنهم مسلَّطون على المادة يكتشفونها ويتعرَّفون على قوانينها ويوظِّفونها شيئًا بعد شيء، وربما كانوا ينكرون بالأمس شيئًا أصبحوا يؤمنون به الآن، فالعقل المؤمن ليس عقلًا أسطوريًّا أو خُرافيًّا يَتَشَرَّبُ الخرافة دون آية أو حجة، وهو أيضًا ليس عقلًا ماديًّا صِرْفًا لا يؤمن بالغيب، ويحصر نفسه في حدود المادة.

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾:

وقد كانوا يعبدون هذه الأصنام، وكانوا يعدُّونها إناثًا، كما هو الظاهر من أسمائها[(٢)].

أما ﴿ٱللَّٰتَ﴾: فصخرة مربعة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٧١٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٠٢)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٤٢١- ٤٢٢)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٤/ ٤٣٢) (١٠٥٩)، و«الشريعة» للآجري (١٠٣٠، ١٢٥٩)، و«المستدرك» (٣/ ٦٥، ٨١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٩- ٣٦١)، و«تاريخ دمشق» (٣٠/ ٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢٨١)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٠٦)، و«مع المصطفى ﷺ» (ص٤٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٨).

وسَدَنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم ثَقِيف ومَن تابعها، يفتخرون بها على مَن عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

وقيل: موضع صخرة كانت لرجل يَلِتُّ للحَجِيج في الجاهلية السَّويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: كانت شجرة، أو صنم فيه صورة شجرة، عليها بناء وأستار بنَخْلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظِّمونها.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صخرة كانت بالمُشَلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خُزاعة والأَوْس والخَزْرج في جاهليتها يعظِّمونها، ويُهِلُّون منها للحج إلى الكعبة.

وكل هذه الأصنام معروفة عند العرب، وقد حكى تفصيلها ابن الكلبي في كتاب «الأصنام»(١).

فكانوا يعتقدون مثل هذه الصيغة الوثنية للعبودية، ويتعاطونها فيما بينهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقلهم عن هذا المستوى المنحط من العبودية للأحجار والجمادات التي هي أقل من مستوى الإنسان، ويرفع آفاقهم وعقولهم إلى عبادة الإله الواحد الأحد الصمد، وإلى الإيمان بالغيب والملائكة والوحي.

وما عبد مشركو الجاهلية أصنامهم إلا لتقرِّبهم إلى الله، وبعضهم يزعمون أنها بناته، ولذا أنكر عليهم وقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؟ وكأنهم جعلوها تماثيل للملائكة يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله، وكأنِ هذا سر كونها تقرِّبهم إلى الله؛ لأنها في السماء قريبة إلى الله، ومع زعم بنوَّتها يصبح الأمر أشد قُربًا، وكأنهم لفرط سذاجتهم وجهلهم قاسوا على الكينونة العائلية عندهم، وظنوا عبادتها لا تضير المعبود الأكبر، وقاسوها على طاعة أولاد المَلِك أو شيخ القبيلة!

---

(١) ينظر: «الأصنام» لابن الكلبي، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٠٨- ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٠- ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٩)، و«معجم البلدان» (٤/ ١١٦)، (٥/ ٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٥- ٤٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٤)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص٢٠٦، ٢٧١، ٣٠٢).

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ظالمة[١]، فإذا تجرَّأتم وجعلتم لله ولدًا، وهذا باطل قادح في الربوبية، فلِمَ جعلتم له البنات في الوقت الذي يتوارى أحدُكم من القوم حين يُبَشَّر بأنثى؟

وهذا كالنص على أنهم كلهم أو بعضهم يعبدون تماثيل يزعمونها للملائكة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، فالمعنى: أن هذه الأصنام ليس لها من الألوهية سوى ما صنعتموه وابتدعتموه[٢].

ولئن كان هذا قد وقع في الجاهلية حيث الحياة البدوية البدائية البسيطة، فقد وقع في عصرنا هذا طغيان الماديات ونفوذ العلم المادي بشرك قريب من ذلك أو مثله.

وكأن الدِّين في منطقة معزولة داخل العقل لم يصل إليها النور، ولم تستفد من التفوق في العلوم التجريبية؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، فهم يتَّبعون الظُّنون والتخرُّص في أصول الدِّين والاعتقاد التي لا يُقبل فيها الظنُّ ولا بد من اليقين، واللهُ تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول النبيُّ ﷺ: «إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[٣]. فهؤلاء يتبعون الظَّنَّ في أعظم القضايا وأقدسها؛ وهي قضية الألوهية والعبودية، وهو ظن موروث، ليس قائمًا على شبهة أو احتمال.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ أي: ويتَّبعون ما تهواه نفوسُهم وتميل إليه، ومجرد ميل النفس لا يعني شيئًا[٤]؛ فالنفس تميل إلى السهل، وإلى المألوف، وإلى ما

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٦).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٦١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٨).

يعزِّز جانبها وجانب القبيلة أو البلد أو الجنس أو العائلة.

والنفس إذ اعتادت شيئًا وتربَّت عليه أذعنت له وأحبَّته، ولذا أحبَّ بنو إسرائيل العجلَ، وكان الفراعنة يعبدونه، فلما مروا على لَخْم وجُذام[1]، وكانوا يتراقصون حول صنم بقرة منحوتة حنَوا إلى مألوفهم و﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ولما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ميقات ربه صنع لهم السامري العجل فعبدوه، ولما أمرهم ربُّهم بذبح البقرة تردَّدوا وأكثروا الأسئلة، قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: فإعراضهم عن الهُدَى بميل النفس والهوى والظنِّ هو غاية الخطأ، نعم الظَّنُّ يمكن أن يُعمل به في مجاله، إذا لم يكن ثَمَّةَ ما يعارضه؛ ويُؤخذ بغلبة الظَّنِّ في الأحكام الفقهية إذا لم يُوجد ما هو أقوى منه[2]، ولكن أن يجعلوا الظَّنَّ المجرَّد العارض في قضية قطعية يعارضون به وحيًا قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فهذه غاية الضلال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾!

* ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾:

الاستفهام إنكاري، قُصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمنَّاه، وأن يجعل ما يتمنَّاه باعثًا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلَّب الحقَّ من دلائله وعلاماته، وإن خالف ما يتمنَّاه، وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد شمل قوله: ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ كلَّ هوًى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول ﷺ، فشمل تمنِّيهم شفاعة الأصنام، وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم، وذلك

---

(١) لَخْم: بطن عظيم، ينتسب إلى لَخم بن عدي، وجُذام: بطن من كهلان، من القحطانية، وكانوا يعبدون المشتري ويحجون إلى صنم في مشارف الشام، يقال له: الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم. ينظر: «الإنباه على قبائل الرواة» (ص٩٨)، و«نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص٢٠٥- ٢٠٦)، (ص٤١١)، و«معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (١/ ١٧٤)، (٣/ ١٠١١- ١٠١٢).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٠٩)، و«تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (١/ ١٤٨)، و«القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير» (٢/ ٦٣٥).

ما يُؤذن به قوله بعد هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ...﴾.
وتمنِّيهم أن يكون الرسول مَلَكًا، وغير ذلك، نحو قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وقولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمُّل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفًا للهوى، وليحمل نفسه عليه حتى تتخلَّق به.

وفُرِّع على الإنكار أن يكون للإنسان ما تمنَّاه، وأن الله مالك الآخرة والأولى، أي: فهو يتصرف في أحوال أهلهما بحسب إرادته، لا بحسب تمنِّي الإنسان، وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم(١).

* ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾:

بعدما ذكر الآلهة التي يعبدونها بزعمهم أنها تشفع لهم، ذكَّرهم بحدود قدرة الملائكة، وأن علو مكانهم لا تعني عبادتهم، فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨]، ولو بذلوا شفاعتهم لم تغن شيئًا، ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، فهم لا يتقدَّمون بالشفاعة بين يدي الله سبحانه، إلا إذا أذن لهم، ولا يأذن إلا لمَن يرضى الله تعالى أن تدركه الشفاعة(٢).

فإذا كان هذا شأن الملائكة في السماء، فما بالكم تعبدون آلهة في الأرض من الحجارة مما لا يضُرُّ ولا ينفع، فضلًا عن أن يشفع؟! وما أنزل الله تعالى بهذه الآلهة المدَّعاة من سلطان، ولا أذن لكم بعبادتها؛ وحتى لو كانت هذه المعبودات

(١) باختصار من «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١١)، وينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٣٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٤)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٩٣).

تماثيل للملائكة في أصل بنائها، أو كانت كذلك في اعتقاد عابديها، فهذا لا يغيِّر من الحقيقة شيئًا؛ فالملائكة ليسوا إناثًا، بل ﴿عِبَادٌ﴾، وهم بهذه المنزلة من الذل والطاعة فكيف عبدتموهم؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾: سجَّل عليهم أنهم لا يؤمنون بالبعث، وهذا حال غالبهم أو كلهم، وما يخطر ببال أحدهم من احتمال أو خيال لا يُسَمَّى إيمانًا؛ فالإيمان هو اليقين الصادق باعتقاد خروج الناس من قبورهم إلى ربهم يوم الدِّين(١).

* ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾:

فلم يبنوا هذا الزعم الكاذب بأنوثة الملائكة ولا ببنوتها لله على علم، بل هو أمر أخذوه من الفلاسفة، وتوارثوه فيما بينهم، أو من بعض الأمم السابقة قبلهم، وهم بذلك يتَّبعون الظَّنَّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، ولم يذكر هنا ما تهوى الأنفس؛ لأن هوى النفوس في هذه المسألة غير ظاهر(٢).

* ثم وجَّه الخطاب إلى نبيِّه ﷺ فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أعرض عن هؤلاء المصرِّين على كفرهم، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ هو مثل قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣) [المؤمنون: ٥٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٤- ١٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٩)، و ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٤)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٥١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١١٧).

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهم لما كانوا موصوفين بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ فقُصارى هممهم وإرادتهم لا يتعدَّى هذه العاجلة، وهذا حرمان أي حرمان، أن يقطع المرء نفسه عن ذلك الامتداد العظيم الفسيح اللائق بالإنسان، ويقصر إيمانه وحلمه وطموحه على مدى العمر المحدود الذي يقضيه على الأرض، وهو قد لا يتجاوز عشرات السنين! كيف يحرم العاقل نفسه من حلم الخلود وجوار الرب العظيم في جنات النعيم؟! ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

* ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾:

فعلمهم ضعيف محدود، فالآخرة ليس لها اعتبار عندهم، وقد جعلوا جهدهم وعقلهم للعاجلة، أما الآخرة فهم لا يؤمنون بها، فإن هم بُعثوا فظنهم أن هذه الآلهة سوف تشفع لهم[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: وهذا تقرير لعلم الله الذي لا يخطئ ولا يجهل، فحين يقول: إنهم ضالون، فهم ضالون، وحين يبيِّن الهُدى لهم ويأمرهم به، فهو الحق بلا ريب.

وفي الآية تهديد ووعيد بأن يأخذ الله العليم أولئك الضالين، فهو بهم محيط وإليه المصير.

* ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾:

وهذا في شأن الفصل بين هؤلاء المكذِّبين وأولئك المؤمنين، وهو تفريع على الآية السابقة التي بيَّنت علم الله بالضالين والمهتدين.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٥٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٢٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٩- ٢٠).

وفيها بيان أنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما يُؤخذون بأعمالهم، ويجزي الله المؤمنين بالحسنى؛ لأنهم أحسنوا تقبُّل وحي الله، وأحسنوا طاعة رسله، وأحسنوا إلى عباده بالبر والخير والعطاء والبذل، فـ«الجزاء من جنس العمل»، وحتى إذا أدركتهم الشفاعة، فقد أدركتهم بأعمالهم التي جعلتهم أهلًا بأن يرضى الله تعالى عنهم، ويأذن لمَن يشفع فيهم.

* ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾:

بعد ما وصفهم بالإحسان، الذي يعني: فعل الحسنات، في مقابل الذين أساؤوا بفعل السيئات، وصفهم ثانيًا بالتجنب والترك للكبائر والفواحش.

والترك بحدِّ ذاته لا يعتبر إحسانًا، إنما الإحسان الأصلي بالفعل، ولكن الاجتناب من آثار الإحسان، ثم فيه تعمد الترك ومجاهدة النفس مع الرغبة الفطرية في الميل لبعض ذلك.

وفيه أيضًا النية الحسنة ومراقبة الباري جل وتعالى والخوف منه، فبذلك يصبح الترك فعلًا، وتتمحَّض النفس للخير والطاعة وتتوحَّد وجهتها.

و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ تعني: الذنوب العظيمة[1]، كالسبع الموبقات الواردة في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**اجْتَنِبُوا السبعَ الْمُوبقات**». قيل: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: «**الشركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النفس التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ مال اليتيم، وأكلُ الرِّبا، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحف، وقذفُ الْمُحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

وقد سُئل ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الكبائر: أسبع هي؟ فقال: «هي إلى السبعينَ

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

أقربُ»[1].

وهي: الذنوب العظيمة التي تُوبق صاحبها، وقال تعالى مصداقًا لهذه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ومن العلماء مَن ضبط حدَّ الكبائر بما له حدٌّ في الدنيا، كالسَّرقة، والزِّنا، وقتل النفس، والقذف[2].

ويندرج فيها: ما تُوُعِّد عليه بلعن أو وعيد في الآخرة[3]، كقوله تعالى في شأن الكذب على الله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وكذلك الرِّشْوة: «لعنَ اللهُ الرَّاشي والمُرْتَشي»[4]. وأشياء ورد عليها اللَّعن في القرآن الكريم، أو في سنة النبي ﷺ، فإذا تعلَّق بهذا الذنب عقوبة منصوصة في الآخرة أو في الدنيا دلَّ على أنه من كبائر الذنوب.

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٠٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٤٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٥١)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٦٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٠).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٢٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٨٥)، و«الكبائر» للذهبي (ص٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤١٠)، و«تفسير السعدي» (ص١٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (١/ ٥٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ٢٦)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٣٩٠)، وأحمد (٦٥٣٢، ٦٩٨٤)، وأبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وابن الجارود (٥٨٦)، وابن حبان (٥٠٧٧)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٩٣)، والحاكم (٤/ ١٠٢ - ١٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه أحمد (٩٠٢٣)، والترمذي (١٣٣٦)، وابن الجارود (٥٨٥)، وابن حبان (٥٠٧٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٩٥)، والحاكم (٤/ ١٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أوجه الخلاف على أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأحسنها حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله شواهد. ينظر: «البدر المنير» (٩/ ٥٧٣)، و«إرواء الغليل» (٢٦٢٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٢٣٥، ٦٨٦٩).

وقد يقع للمرء تردد في بعض الذنوب بين كونها كبيرة أو ليست بكبيرة، وحينئذ عليه أن يتذكر مقولة بعض السلف: «لا تنظرْ إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عَصَيْتَ»[1].

بل ليتذكَّر قوله ﷺ: «إيَّاكُم ومُحَقَّرات الذنوب؛ فإنما مَثَلُ مُحَقَّرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهم، وإن مُحَقَّرات الذنوب متى يُؤْخَذْ بها صاحبُها تُهْلِكْهُ»[2].

وكان بعض السلف يقول: «لا صغيرةَ مع الإصرار، ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[3].

وهذا لا يصح حديثًا عن النبي ﷺ[4]، ولكن له معنى جيد.

والمعنى: أن الذنب الصغير إذا أدمن العبدُ عليه وأكثر منه، فإنه يُوجِد في القلب وحشة، وجُرأة على المعاصي، كالشاب الذي يتساهل بإطلاق النظر، ومحادثة النساء، ويقضي في ذلك الساعات الطوال، فلا يزال الأمر به حتى يُجرِّئه ويُغْرِيه ويغرس في قلبه حب الزنا، وكل شيء يمهِّد لما هو أشد منه، ما لم يكن المسلم يقظًا.

---

(١) كما قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٧١)، و«الزهد» لأحمد (ص٣١١- ٣١٢)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٠٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٨٥٤)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢٢٣)، و«شعب الإيمان» (٢٨٢، ٧٥٩، ٦٨٨٥).

وبنحوه عن أُويس القَرْني رَحِمَهُ اللَّهُ. ينظر: «تاريخ دمشق» (٩/ ٤٤٨)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٣١).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٨)، والرُّوياني (١٠٦٥)، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٨١)، والبغوي (٤٢٠٣) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٨٩).

(٣) ينظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَالَكائي (٦/ ١١١٠)، و«شعب الإيمان» (٦٨٨٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٣٠٤).

(٤) وقد روي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «التوبة» لابن أبي الدنيا (١٧٣)، و«الترغيب في فضائل الأعمال» لابن شاهين (١٨٧)، و«مسند الشهاب القضاعي» (٨٥٣)، و«معجم ابن عساكر» (١٤٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٢٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٨١٠).

وكذلك في قوله: «لا كبيرة مع الاستغفار» ليس على إطلاقه؛ فقد جاء في أحاديث صحيحة كثيرة عن بعض الفضائل التي تكفِّر الذنوب؛ كحديث: «مَن حجَّ لله، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجعَ كيوم ولدتْهُ أُمُّه»[1]. وقوله ﷺ: «الصلاةُ المكتوبةُ إلى الصلاة التي بعدها، كفارةٌ لما بينهما- قال- والجمعةُ إلى الجمعة، والشهرُ إلى الشهر- يعني: رمضانَ إلى رمضانَ- كفارةٌ لما بينهما»[2]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وفي بعض الأحاديث ورد اشتراط «اجتناب الكبائر» لاستحقاق الوعد، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق[3].

ومال بعض أهل العلم إلى أن العمل الصالح يُكفِّر بعض الكبائر، إذا توفَّرت الأسباب؛ كأن يكون عند العبد انكسار تام لله، وأن يأتي بالعمل على أكمل وجه في أسبابه ومقدِّماته وأحواله، ولا يخالطه شيء من الإعجاب أو الغرور أو الغفلة، فربما يكون هذا سببًا في توبة العبد إلى ربه، وإقلاعه عن الذنب، وتخفيف الذنب أو التكفير، وفضل الله تبارك وتعالى واسع.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عبد البر وابن تيمية وابن رجب وغيرهم[4].

وأما ﴿ٱللَّمَمَ﴾ فيشمل شيئين:

الأول: الذنوب الصغار المنصوص على تحريمها، ولذلك مثَّل له بعض العلماء بالقبلة والغمزة والضَّمَّة والنظرة، فهي داخلة في دائرة المحرَّم، ولكنها

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٧١٢٩)، والحاكم (١/ ١١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٣٣)، ولفظه: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ، إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ».

(٤) ينظر: «التمهيد» (٧/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٨٩)، و«الفروع وتصحيح الفروع» (١٠/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢٥)، و«الفتاوى الفقهية الكبرى» (٢/ ٩٩)، و«الفواكه الدواني» (٣٧٥).

ليست من قَبِيل «الفواحش»، بل من قَبِيل المقدِّمات والممهِّدات التي قد تفضي إلى ما هو أشد منها(١).

وقد ورد في «الصحيحين» قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ، وذكر أنه أصابَ من امرأة قبلةً، فأتى النبيَّ ﷺ، فذكرَ ذلك له، فنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال رجلٌ من القوم: يا نبيَّ الله، هذا له خاصةً؟ قال: «بل للناس كافَّةً»(٢).

فعلى مَن ابتلى بهذه الذنوب أَلَّا ييأس من رحمة الله؛ فاليأس خطره أعظم، وقد حذَّر سبحانه من اليأس من رحمة الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، و﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وأن يجعل قلبه معلَّقًا بالله؛ يرجو رحمته، ولا يغتر بعمله، ولا ييأس من رحمته، وأن يكثر الدعاء، والعمل الصالح؛ كالمبادرة إلى الصلاة، وصحبة الأخيار، والاستغفار، وبر الوالدين، والصدقة، والإحسان إلى الزوجة والأولاد والجيران، فالميزان له كِفَّتان، وإن أنت ابتُليتَ بشيء من هذه القاذورات فاجتهد في التوبة، وأكثر من الطاعة؛ عسى أن ترجح كِفَّتها على كِفَّة الذنوب، وعسى أن تكون سببًا في توبة الله ومغفرته لك، ولهذا قال ﷺ لحكيم بن حِزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أسلمتَ على ما أَسْلَفْتَ من خير»(٣). ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، فالله تعالى يصطفي للتوبة الذين يعلم رغبتهم في الخير، ونفرتهم من الشر، وحبهم للخلاص.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٢٦، ٤٦٨٧، ٦٨٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣) من حديث حَكِيم بن حِزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: المرور العابر[1]، ومنه تقول: أَلَمَّ بالمكان، أي: مرَّ عليه مرورًا سريعًا[2]، وقال القائل[3]:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وأيُّ عَبْدٍ لكَ لا أَلَمَّا

فالمقصود هنا بـ﴿ٱللَّمَمَ﴾: إلمام سريع لم يتحوَّل عنده إلى عادة أو إدمان، بل كانت زلَّة قاهرة وسقطة عابرة أفاق بعدها وندم وتاب وأناب، وهذا شأن ذنوب المقرَّبين والسابقين، حتى ربما حمل أحدهم الذنب على الاستزادة من الصالحات وقهر النفس على الطاعات والقربات، وربما وقع المؤمن في الذنب؛ لكنه لا يقيم عليه، وإنما يُسرع النهوض والخلاص، ويستنجد بالله، ويتحرَّر من أسبابه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: وما أحسن التعرف إليه سبحانه بأسمائه الحُسنى التي معظمها يدور على الرَّحْمة، فمن أسمائه: الرَّحْمن، الرَّحِيم، الغفور، التَّوَّاب.. وليس من أسمائه: الباطش، ولا المُعَذِّب، ولا شديد العقاب، فهذا على القول الراجح ليس من الأسماء الحسنى[4]، وإنما أسماء الله الحسنى هي التي فيها الرَّحْمَة، والبِرُّ، واللُّطف بالعباد؛ ترغيبًا وتحبيبًا لهم ألَّا تغلبهم نفوسهم الأمَّارة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٦٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٨).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٥٠)، و«لسان العرب» (١٢/ ٥٤٩) «ل م م»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٢).

(٣) ينظر: «ديوان أُميَّة بن أبي الصَّلْت» (ص٥٨).

ونُسب إلى أبي خِراش الهُذَلي. ينظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٤٣١)، و«خزانة الأدب» (٧/ ١٩٠)، و«شرح أشعار الهذليين» (٣/ ١٣٤٦)، و«لسان العرب» (١٢/ ١٠٤) «ج م م».

ورُوي مرفوعًا. أخرجه الترمذي (٣٢٨٤)، والبزار (٤٩٥٩، ٤٩٦٠)، وأبو يعلى (١٩٠)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (١٢٦)، والحاكم (١/ ٥٤)، (٢/ ٤٦٩)، والبيهقي (١٠/ ٣١٢)، وفي «شعب الإيمان» (٦٦٥٤)، والضياء (١١/ ١٩٥) (١٨٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٥- ١٨)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

بالسوء، أو شياطينهم على الإصرار على الذنب، أو اليأس من التوب.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: فهو أعلم بكم قبل أن تكونوا[1]، وهو أعلم بكم يوم أن كنتم ﴿أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أو مواليد صغارًا، لا يوجد هوى في نفوسكم، ولا ميل ولا شهوة، ولكنها كانت كامنة لم تفعَّل بعد، لأنكم خلقتم من الأرض، ففيكم ثقلة الطين وداعي الهوى ومركب الشهوة والميل والغريزة، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾: فلا تقولوا عن أنفسكم ما يزكِّيها من الادِّعاء، وإنما عليكم التواضع لله سبحانه، وهذا خطاب للفرد أَلَّا يندفع في ادِّعاء لا يتناسب مع حقيقته، أو يتظاهر بما ليس فيه؛ فيجمع بين المعصية الباطنة والكذب الظاهر؛ فإنه ربما أورث الذنب تواضعًا وازدراءً بالنفس، وحمى صاحبه من الكِبْر أو الاغترار أو التعاظم، ما دام يعرف أن الذنب ذنب، وأنه عاصٍ مستحق للعقاب، إلا أن يتجاوز الله عنه.

كما يدخل في هذا النهي أن تزكِّي قبيلة نفسها، أو عِرْق، أو شعب بمثل هذه الدعاوى العريضة، كما كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فتتحوَّل بذلك الديانة عصبيات قومية وعِرْقية وقَبَلِيَّة، وهو سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

* ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾:

نزلت هذه الآيات في شأن رجل معيَّن، قيل: الوليد بن المغيرة[3]، همَّ أن يُسلم، وقدَّم شيئًا من الخير، وكاد أن ينقاد للهُدى، ثم نكس على عقبه[4]، فالله

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢١).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٥).

(٣) وقيل: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي، وقيل: في النَّضْر بن الحارث، وقيل: في أبي جهل.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٧١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٧).

يُوَبِّخه وأمثاله، على أنه أعرض بعد ما اقترب، ولم يغتنم الفرصة التي سنحت له[1].

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ من الخير، أو من التوجه والاستعداد[2]. ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ أي: توقَّف[3]، والكُدْيَة هي: الصخرة، كأنه تحوَّل إلى صخرة، لا تَبِضُّ بقطرة من الماء، أو واجه صخرة من ظلمة نفسه ومجاملتها لمَن حولها وعزوفها عن الانتقال استمرارًا للحال![4].

* ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

وكأنه ممن قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وعزف عن الإيمان اغترارًا بهذا الظن الموهوم المبني على غير أساس من علم أو تقوى[5].

* ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

وهذا التعقيب يرجِّح أنه كان ممن يزعم أن له في الآخرة مردًّا حسنًا وعقبى صالحة!

و﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كانت عشر ورقات، في كل صفحة نحو أربع آيات من جنس

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٣)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٩)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣١٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٤).

(٤) ينظر: «الصحاح» (٦/ ٢٤٧١) «ك د ى»، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٨).

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٣٧).

آيات القرآن الكريم، فهي نحو أربعين آية[1]، وإنما ذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن صُحُفه أشهر[2]، والتوراة معروفة، وفيها كثير من البيان والهُدى، وموسى من الرسل الذين لهم أمة قائمة، وصحفهم تشمل التوراة التي أثنى عليها الله تعالى بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وتشمل الألواح التي فيها الوصايا العشر وغيرها.

وإنما بدأ بموسى ثم ثنَّى بإبراهيم لأجل هذا، والله أعلم، أو لأنه يريد أن يثني على إبراهيم بالمزيد، فذكر موسى إجمالًا ثم انتقل إلى الخليل ليبني على ذكره أخبارًا وثناءً بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾: أي: أنجز ووفَّى بوعده[3]، ومن ذلك: ذبحه لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أما ماذا في «صحف إبراهيم وموسى» في هذا السياق؛ فهو: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فلا يُؤخذ أحد بذنب غيره، وهذا الذي أعطى قليلًا وأكْدَى، وظنَّ أن ثمةَ أحدًا سوف يفديه أو ينفعه، قد رَكَنَ إلى وَهْم لا أصل له في الشرائع كلها، فالله تعالى يخبره بأن هذا لا ينفعه، وهذا معنى قرآني عظيم، فيه غاية العدل، فلا يُؤخذ أحد بجَريرة غيره، ولا يُعيَّر القوم أو القبيلة بخطأ أحدهم.

وهذه معاني لا تختص بالملأ من قريش، بل هي قواعد أخلاقية دنيوية وأخروية، ألَّا يُؤاخذ أحدٌ بجَرِيرة أحد، ولو كان أقرب قريب؛ حتى الزوجة لا تُؤخذ بذنب زوجها، ولا الزوج بذنب زوجته، ولا الابن بأبيه، ولا الأب بابنه، ولا الجار بجاره، ولا ينبغي أن نصدر الأحكام العامة على الناس؛ بناءً على سلوك فردي، فنقول: أئمة المساجد فاسدون، أو: المدرِّسون مهملون، أو: الدُّعاة منافقون، أو: الأطباء غشاشون، أو: التجار طمَّاعون.. فهذا التعميم لا ينبغي؛ لأنه لا ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٠)، و«التفسير المنير» (٢٧/ ١٢٥).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٣).

وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

* ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾:

فمسؤولية الإنسان تقتصر على فعله، وهذا من «صحف إبراهيم وموسى»[١]، وهو مقرَّرٌ في شريعتنا من حيث الجملة، وإن كان الله تعالى جعل في معنى «سعي الإنسان» سعي ولده، كما قال ﷺ: «**إن أطيبَ ما أَكَلَ الرجلُ من كسبه، وإن ولدَهُ من كسبه**»[٢]. و«**إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُهُ إِلَّا من ثلاث: إِلَّا من صدقة جارية، أو علم يُنتفعُ به، أو ولد صالح يدعُو له**»[٣]. والحج عن المتوفَّى، والصوم عنه، والصدقة عنه.. كل ذلك ثابت في السنة[٤]، وبعض الأعمال الصالحة يصل ثوابها إن شاء الله، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، وهذا كله لا يتنافى مع الآية الكريمة، ولا حاجة إلى أن نقول: هذا شرع مَن قبلنا، وهو منسوخ؛ لأن الله تعالى ساقه لنا في سياق الاعتبار به[٥].

* ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

سوف يراه الله تعالى والمؤمنون والناس، ويُعرض يوم القيامة[٦].

* ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾:

إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والجزاء الأوفى تقتضي استيعاب الجزاء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٧٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٣٢).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٦٨٥)، وأحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢١٣٧)، والنسائي (٧/ ٢٤٠)، وابن حبان (٤٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «البدر المنير» (٨/ ٣٠٨)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٦)، و«إرواء الغليل» (٢١٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٨٨، ١٨٥٢، ١٩٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٤، ١١٤٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٥).

على الصالح وتمامه مع الفضل، والجزاء على الشيء مع العدل، وربما التسامح والعفو[1].

* ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾:

أصح معاني الآية: أن الناس صائرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي من الآيات الدالة على البعث[2].

وقيل: معناها: أن كل تفكير رشيد عاقل يوصل الإنسان إلى الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وعبوديته[3].

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾:

أي: خلق غريزة الضحك والبُكاء[4]، وهذه من خصائص الإنسان، ينفرد بها دون عامة الحيوان، إلا ما ندر[5].

وقولنا: الحمامة تنوح على كذا، فهو على سبيل المجاز، والله خلق لبكاء الإنسان أسبابه، ولضحكه أسبابه، وفي ذلك صناعة السعادة؛ ولهذا قدَّم «الضحك» على «البكاء»، وهذه مِنَّةٌ على الناس؛ أن الحياة فيها كثير من الجماليات، وأسباب السعادة والسرور، والرضا وقرة العين، وحتى البكاء فيه معنى التنفيس والإحساس بمشاعر الآخرين، وربما بكى المرء بسبب طغيان السرور، كما قيل[6]:

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٧٢)، و«روح البيان» (٩/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٦)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٧٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٤)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧).

(٦) ينظر: «ديوان صفي الدين الحِلِّي» (ص٩٩).

طفحَ السـرورُ عليَّ حتى إنه   من عظم ما قد سرَّني أبكاني

ومن جمالية الحياة أن نتعامل مع تغيرات الحياة بقدر من الرضا والإيجابية، والسعادة والتفاؤل، والأمل والإشراق، هذا معنى يجب أن نتدرَّب عليه، ومما يدرِّبنا عليه ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتطهر والتوبة من الذنوب والمعاصي، دون أن يغلبنا معها يأس أو قنوط من رحمة الله، أو أمن من مكره سبحانه.

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

فالموت والحياة له سبحانه، وذلك وفق حكمة عليا يعلمها الله وقد يجهلها الناس، والموت عبور قنطرة إلى عالم آخر، فليس فناءً محضًا ولا عدمًا ولا انقراضًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[1] [المؤمنون: ٨٠].

* ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فهذا من حكمته سبحانه، وهي عامة في الإنسان والحيوان والطير، **والأقرب أن المقصود هنا: الإنسان**؛ لأنه قال بعدها: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، وهذا ما لا يكون للطيور، وبعض الحيوانات، فهذه **النُّطْفَة** من الماء الذي يُراق ويُمنى هو يتصل ببويضة المرأة، فيكون من ذلك خلق الإنسان[2].

والمقصود: امتنانه سبحانه على الناس بخلق الزوجية، والاستمتاع بها، وعلاقة الحبِّ والمودة والشراكة التي هي شراكة في بناء البيت، والعمل، والاقتصاد، والمشورة والرأي، والفكر والثقافة، والحياة والوفاء.

وكثير من البيوت إنما تعاني ما تعاني بسبب الأنانية وتجاهل معاناة الطرف

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧).

(٢) وقيل: المقصود: آدم وحواء، وقيل: الذكر والأنثى من أولاد آدم، وقيل: الذكر والأنثى من كل حيوان. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٥).

الآخر في هذه الشراكة، مما يوجب علينا أن نعيد النظر في طبيعة العلاقة القائمة بين الزوجين.

* ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

فالله الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم للنشأة الأخرى يوم القيامة[١]، والذي قَدَرَ على أن يخلق الإنسان من عدم قادر أن يعيد خلقه يومَ القيامة، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهذه جملة مناسبة لما قبلها؛ حيث جاءت تعقيبًا على الخلق الأول لتذكِّر بالخلق الآخر يوم القيامة[٢].

* ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى الناس الغِنَى والمال[٣]، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أعطاهم القُنْيَة التي يقتنونها، فـ«أَقْنى» متمِّمة لـ«أَغْنَى»، وليست مقابلها، كما في قوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، فأعطاهم الغنى، وأعطاهم الأشياء التي يقتنونها[٤]، أو أعطاهم الرضا بهذا الغنى، على التفسير الآخر[٥].

* ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

هذا كلام مستأنف جديد، فالواو للاستئناف؛ لأن عبادة الشِّعْرَى لم تكن موجودة في عهد إبراهيم وموسى، وإنما وُجدت في العرب بعد ذلك، وهذا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٨ - ١١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «العين» (٥/ ٢١٨)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٦٧ - ٢٤٦٨)، و«مختار الصحاح» (ص٢٦١)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢٠٢) «ق ن ا»، و«تاج العروس» (٣٩/ ٣٥٧) «ق ن ي».

(٥) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٠)، والمصادر السابقة.

عطف في نهاية السورة إلى بدايتها، حيث أقسم بـ«النَّجْم إذا هَوَى»؛ لينكر على عابديها، فعاد ليذكِّر بالمعنى الأول[1].

* ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾:

و«عاد» واحدة، ولكن سماها: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنها قديمة، ولأنها القبيلة العربية المشهورة، ولأنها ذات عظمة وقوة[2]، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وهم متقدِّمون؛ كانوا بعد قوم نوح.

* ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: أكثر ظلمًا، وأكثر طغيانًا[3].

* ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

تلحظ هنا تسارع السياق، وكأنك أمام مشاهد سريعة متلاحقة في آية واحدة، تختصر السورة قصة كاملة مفصَّلة في موضع آخر.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾: قوم لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقراهم تسمَّى: «المُؤْتَفِكات»، أي: المنقلبات[4]؛ لأنهم غيَّروا الفطرة، فعُوقبوا بقلب قراهم وتدميرها، ثم رماهم الله تعالى بـ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢١)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٦٩).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٣- ٢٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: من تلك الحجارة[1]، وهي قُرى سَدُوم[2]، ويمر الحديث عن بعض أخبارها وتفصيلها في مواضع مختلفة من التفسير.

* ثم يأتي السؤال العظيم المزلزِل: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

وقد يكون هذا خطابًا للنبي ﷺ، فيكون المعنى: أيُّ آلاء ربك أعظم عندك؟ فكلها آلاء حسنة عظيمة، وهم يريدون أن تتمارَى فيها، فبأيٍّ هذه الآلاء تتمارَى أو تشك؟[3]، هذا ما لا مجال فيه.

أو يكون خطابًا للناس كلهم، ولكل مَن يصلح له الخطاب: أن هذه الآلاء العظيمة التي تراها؛ بأيِّها تكذِّب أو تشك أو تجادل؟[4].

* ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: هذا القرآن من جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، والنبيُّ ﷺ ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[5] [آل عمران: ١٤٤].

* ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: حقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وأزف: اقترب[6]، و﴿ٱلْءَازِفَةُ﴾: الساعة،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٣٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٥).

(٢) سدوم: قرية من قرى قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كانت أكبر القرى، وهي بين الحجاز والشام، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا وأشجارًا وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين؛ بعد أن أهلكها الله عز وجل؛ حيث كان أهلها يعملون الخبائث، كما ذكر ذلك في كتابه. ينظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» (ص٢٠٢)، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص٣٠٨).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٨٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢١)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٧).

(٦) ينظر: «مقاييس اللغة» (١/ ٩٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٥)، و«لسان العرب» (٩/ ٤) «أ ز ف».

فهي بمعنى السورة التالية لها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1].

* ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾:

لا يكشفها أحد إلا الله عَزَّوَجَلَّ[2].

* ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ يا معشر قريش المكذِّبين؟[3]، ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾: غافلون لاهون مشغولون بالطَّرب واللَّعب والضحك، بينما الأمر جدٌّ، وفيه كرب وأهوال[4].

* وهنا بلغ التأثير نهايته، وجاء الختم الرَّبَّاني العظيم: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾:

وهذا موضع سجود عند طائفة من أهل العلم، خلافًا للإمام مالك[5].

وقد قرأ النبيُّ ﷺ هذه السورة مرةً، ولم يسجد[6]، وقرأها في مكة وسجد،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢٩)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٥٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٥٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٨٤).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٢).

وينظر أيضًا: «الهداية في شرح البداية» (١/ ٧٨)، و«الاختيار لتعليل المختار» (١/ ٧٥)، و«التاج والإكليل» (٢/ ٣٦١)، و«المجموع» (٤/ ٥٩- ٦٠)، و«مغني المحتاج» (١/ ٤٤١- ٤٤٢)، و«المغني» (١/ ٤٤١).

(٦) كما في صحيح البخاري (١٠٧٢)، و«صحيح مسلم» (٥٧٧) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ[1].

والعجيب أن يسجد المشركون، وقد أخذتهم روعة السورة ووهلتها وقوَّتها وسرعتها وتأثيرها وحصارها لهم بالسؤالات المتتابعة التي تهزُّهم من أعماقهم، وتكشف الغفلة عنهم، فأفاقوا قليلًا على وقعها وصداها وسجدوا دون تأمُّل، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد.

○○○

(١) أخرجه البخاري (١٠٧١، ٤٨٦٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتقدم أول السورة.

سُورَةُ القَمَرِ

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «سورة القمر»؛ لذكره في صدرها، وهو الاسم الغالب في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

ومن أسمائها: «سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾»، وتختصر إلى: «سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾»، و«سورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾»[2].

وقد جاء هذا في حديث أبي واقد اللَّيْثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ كان يقرأُ بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ في الفطر والأضحى[3].

*** عدد آياتها:** خمس وخمسون آية باتفاق علماء العدِّ[4].

*** وهي مكية عند الجمهور**[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٩٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١)، وتقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٦)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٨١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٥).

وذكر **بعضهم** أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1]، وأنها كانت في مناسبة غزوة بدر.

والصحيح أن النبيَّ ﷺ استشهد بهذه الآية في غزوة بدر، وإلا فالسورة كلها مكية، نزلت قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد صحَّ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «لقد أُنزلَ على محمد ﷺ بمكةَ، وإني لجاريةٌ ألعبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾»[2].

وحادثة انشقاق القمر كانت عند المحقِّقين من أهل العلم قبل الهجرة بنحو خمس سنوات[3].

* ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾:

اقتراب الساعة: دُنُوُّها، فهو اقتراب زمني[4]، وقد جاء هذا مسجَّلًا في القرآن في مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقول النبي ﷺ: «**بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين**». وقرن بين السبَّابة والوسطى[5]. وفي لفظ: «**إن كادتْ لتسبِقُني**»[6].

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٦)، و«الإتقان» (١/ ٦٥)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٦).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٦٣٢)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٠).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٤٩٣٦، ٥٣٠١)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٧) من حديث بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وثَمَّ قربٌ عام من حيث إن كل وقت يمضي يقرِّب الساعة، والنبيُّ ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين؛ وكانت بعثته من علامات الساعة الدالة على قربها، وقد ألَّف السُّيوطيُّ رسالة سماها: «الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف»، وساق فيها أحاديث وروايات تدل على أن هذه الأمة قد تتجاوز ألف سنة، وهذا صار تاريخًا ماثلًا، والسُّيوطي حين كتب كان قريبًا تاريخيًّا من الألف، حيث توفي سنة (٩١١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.

إن موضوع «نهاية العالم»، وتحديد ميقات ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ من الموضوعات التي تشغل بال كثيرين، وقد ينسجون حولها الأساطير والروايات، وكل شعوب العالم تتحدَّث عن موقعة «هرمجدون»، وهي المعركة بين الحقِّ والباطل، وهذا معتقد عند النصارى واليهود، والمسلمون يؤمنون أن للساعة أشراطًا وعلامات، ولكن هذا لا ينبغي أن يكون أداة لترويج القصص الخيالية ونسج الحكايات الوهمية، ولا أن يكون سببًا في عزوف الناس عن مصالحهم وتحقيق مقاصدهم؛ فإن النبيَّ ﷺ يقول: «**إن قامت الساعةُ، وبيد أحدكم فَسِيلةٌ**[1]**، فإن استطاعَ أن لا يقومَ حتى يغرسَها فليفعلْ**»[2]. فالشرع يؤكِّد أهمية العمل والانغماس فيه والدأب، حتى ولو قامت الساعة، وحفز الناس على العمل الصالح ومصالح الحياة الدنيا التي لا يقوم معاشهم إلا بها[3].

أما انشقاق القمر: فقد ورد عن الحسن البصري وعطاء أن المراد بالانشقاق في الآية: انشقاق القمر يوم القيامة، ونسبه بعض المفسرين إلى الجمهور[4].

---

(١) أي: نخلة صغيرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢١٨١)، وأحمد (١٢٩٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٧٩)، والضياء (٧/ ٢٦٢- ٢٦٤) (٢٧١١- ٢٧١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٦٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٨).

والأقرب أن هذا قول لبعض الأئمة، وأما الجمهور فذهبوا إلى أن المقصود حادثة وقعت في مكة قبل الهجرة، حيث طلب المشركون- كعادتهم- من النبي ﷺ آيةً، فأراهم اللهُ تعالى انشقاق القمر، وأخبرهم النبيُّ ﷺ أن القمر سوف ينشق، ونظر الناسُ إليه فيما يشبه الخسوف، فرأوه فِلْقتين[1]، وقال النبيُّ ﷺ للصحابة: «اشهدوا». كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في الصحيح[2].

وجاء هذا المعنى عن جمع من الصحابة، كابن عباس، وابن مسعود، وحُذيفة ابن اليمان، وابن عمر، وأنس، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[3].

وادَّعى بعضهم أن الخبر متواتر، والصحيح أنه مشهور وليس بمتواتر[4].

وقد تردَّد البعض في صحة الرواية؛ بأن الانشقاق لو كان وقع فعلًا لذكره الفلكيون والمؤرِّخون من غير المسلمين والعرب، ويبعد أن يقع هذا ثم لا يستفيض خبره في أرجاء الأرض.

فيقال جوابًا لذلك: إن القمر في تلك الساعة قد يكون لآخرين مختفيًا غائبًا، أو يكون حدوث ذلك لبلد آخرَ في آخرِ الليل والناس نيام، أو تكون لحظة الانشقاق قصيرة، كما يحتمل أن يقدِّر الله الانشقاق بطريقة لا يتأثر بها جِرْم القمر، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٧)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٤/ ١٥٨١- ١٥٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٥- ١٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٦٩)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٠٠٣)، و«مصنف عبد الرزاق» (٥٢٨٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٧٩٨)، و«مسند أحمد» (١٣٩١٨، ١٦٧٤٩)، و«صحيح البخاري» (٣٨٧٠، ٤٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٣،٢٨٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٢٨٩)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (٦٩٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٤٩٧)، و«المستدرك» (٤/ ٦٠٩).

(٤) ينظر: «الشفا» (١/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٢)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٥٢٢)، و«روح البيان» (٩/ ٢٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٤)، و«نظم المتناثر» (ص٢١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٦٧- ١٦٨).

لقد اختار الله سبحانه أن يكون محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يمهل الناس ولو كذَّبوا، حيث موعدهم يوم القيامة، كما قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، أما الأمم السابقة فكانت تُؤخذ عادة بما يُسمَّى: عذاب الاستئصال، فإذا لم يؤمنوا نزلت عليهم العقوبة، واستأصل الله تعالى شأفتهم وأبادهم وانتهوا، أما هذه الأمة فإن الله تعالى يمدُّ لهم بحيث لا يهلكهم بسَنَة بعامة[1] حتى يأتي أمر الله.

* ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾:

فإذا رأى هؤلاء المشركون آيةً من آيات الله تعالى، فإنهم يُعرضون عن تدبرها، ويكتفون بنسبتها إلى السِّحْر، كما قالوا عن القرآن ذاته- وهو أعظم الآيات-: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: دائم[2]، فكأنهم يقولون إن هذا الرجل يأتينا بألوان وأنماط من السِّحْر متغيِّرة، فالسِّحْر مستمر وإن تغيرت مظاهره.

* ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾:

فهم يكذِّبون بالرسل، ويكذِّبون بالآيات، ويتَّبعون أهواءهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وأما قوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: فهو يجري مجرى الحكمة، فلكل أَمْرٍ قرار ونهاية ينتهي إليها، فالحقُّ نهايته البقاء والتمكين، والباطل نهايته الزوال والبَوار، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وكما قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، فكل نبأ من الأنباء أو خبر من الأخبار له مستقر ونهاية يتَّضح بعدها[3]، فالآية تقرِّر السُّنَّة الإلهية في

(١) وقد دعا النبيُّ ﷺ ربَّه عَزَّوَجَلَّ أن لا يهلك أمته بسَنَة عامة، فاستجاب الله له ذلك. ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣١١)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٥٦)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٣٣)، و«روح البيان» (٩/ ٢٦٨)، و«تفسير القاسمي» (٤/ ٣٩٢).

الصراع بين الحق والباطل، وهذا تنبيه للناس ألَّا يغترُّوا بالظواهر، ولا يستعجلوا: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]؛ فإن من طبيعة البشر الاستعجال، وهم بحكم جِبِلَّتهم يرون باطلًا ينتشر، فيدعون الله تعالى أن يزيله، ويرون حقًّا يُضَّطهد، فيدعون الله تعالى أن ينصره، وهم متعبِّدون بهذا الإحساس وبهذه الروح وبهذا الدعاء، ولكنه سبحانه يريد مع هذا الدعاء الذي تُعبِّدوا به، ومع فعل الأسباب المادية الممكنة، أن تتشبَّع نفوسهم بالحكمة الإلهية والاختيار الرباني والتوقيت الحكيم: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

* ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾:

الأنباء جمع: نبأ، وغالب ما يُطلق في القرآن الكريم على الخبر العظيم[1]، كقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وكقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، فهو خبر له أهمية وتتوافر الدَّواعي على نقله، وهؤلاء الناس جاءهم من الأنباء المذكورة في السورة وغيرها، ومنها إهلاك الأمم السابقة، ما هو كافٍ للزجر أن تزدجر قلوبهم عن الباطل وتتَّعظ وتتعامل بصدق مع الوعيد والوعد والأخبار والنبوة[2].

* ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾:

والحكمة هي: البصيرة التي تضع الشيء في موضعه، وهي المعنى العظيم في عبارة موجزة مُحْكَمة[3].

وهي هنا بالغة منتهاها في جودتها وإتقانها وضبطها، والمقصود: حكمته

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٣٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤١٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٥).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٢٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ٢٧٧)، و«تفسير الرازي» (٦/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣/ ٦٣).

سبحانه، فمن أسمائه: الحَكِيم؛ ولهذه الآية معنيين:

الأول: حكمته تعالى في تصريف الأمور، وخلق الإنسان بنفسية وعقلية وطبيعة قابلة للهُدى والضلال والخير والشر: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وحكمته في إرسال الرسل، وحكمته في منح الناس مشيئة بأن يصدِّقوا أو يكذِّبوا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وحكمته في إنزال العذاب بالأمم السابقة، وفي إمهال آخرين[١].

ومنها: الحكمة في صنعه، الحكمة في خَلْقه، وكل ما يحدث في الكون له حكمة وإن كان الناس يغفلون عنها لا سيما في المجريات التي يعيشونها أو يشاهدونها، فنحن نسمع من الأنباء ما فيه مزدجر؛ من حوادث وفواجع وزلازل، وبراكين، وفياضانات.. إلخ، ولكن كثير من الناس يكتفون بالامْتِعاض دون الاتِّعاظ.

والناس يغفلون عن الحكمة في حوادث الكون، ولكل شيء ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾.

إن الإيمان بالحكمة يمنح المسلم عصمةً من اليأس والقنوط والكفر؛ لأن من الناس مَن قد يرتد بسبب ما يراه من تسلط الأعداء على الأمة أو تسلط الظالمين وكثرة الفساد وانتشار التخلف في مجتمعات المسلمين، وقد يدفعه هذا إلى الشك في الدين أو كره لأهله.

وهذه الحكمة يمكن أن نسميها: الحكمة الكونية، أو: القدرية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٣- ٤].

الثاني: حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يرسله إلى عباده في القرآن؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٢]. ولذا سَمَّى القرآن: حكيمًا؛ لأنه مبني على الحكمة في الأوامر

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢١٨).

والنواهي والأحكام والأخبار والسياق والترتيب والوصل والفصل.. والشريعة كلها حكمة منزَّهة عن العبث، ويدرك المتأمِّل من أسرار التشريع والبيان بقدر سعة علمه وقوة نظره وطول وقوفه عند الأسرار الربانية المذهلة.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل أن تكون «ما» نافية، والتقدير: فلا تغني عنهم النذر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فهؤلاء طبعوا على الكفر والإعراض، فلا تنفعهم النذر(١).

ويجوز أن تكون «ما» هنا استفهامية، وفيها معنى الإنكار، ويكون المعنى: أيُّ شيء تغني النذر عن هؤلاء القوم؟ ماذا تغني النذر(٢)؟

والنُّذُر جمع: نذير، ويشمل: نذير القرآن، ونذير الآيات، ونذير العذاب(٣).

* ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⁽٦⁾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⁽٧⁾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⁽٨⁾﴾:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هنا وقف، كما قال ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، وقد تقدَّم معنى التولِّي(٤).

ومن معانيها: عدم الإلحاح، وإلا فالدعوة واجبة.

ومن معانيها: عدم الدخول في مجادلات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وإنما الواجب دعوتهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

ومن معانيها: الإعراض عن فئة منهم من أشخاصهم وأعيانهم ممن علم الله

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٢)، و«الدر المصون» (١٠/ ١٢٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٩٨) «ن ذ ر».

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ⁽٢٩⁾﴾.

أنهم لا يهتدون، وهؤلاء ماتوا على الكفر، من أمثال أبي جهل وأبي لهب.

ومن معانيها: تصبير النبي ﷺ، فلا يحزن ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، فقد بلَّغ البلاغ المبين، وأقام حجة الله على المعاندين، فدعهم وأَنْظِرهم إلى يوم الدين[1].

ثم استأنف حديثًا جديدًا بقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، وإذا قُدِّر للإنسان أن يسمع هذه الآيات المزلزِلة بصوت مقرئ جيد، ويعيد استماعها، وينصت لها بجوارحه كلها، فإنها سوف تعيد ترتيب نفسيته من جديد، وتهزُّه هزًّا، حيث ذكر تعالى قرابة عشر مفردات متسلسِلة، لا يشعر بها السامع إلا إذا وقف عندها متأمِّلًا:

الأولى: ﴿يَوْمَ﴾، وفيه أنه أجَّلهم وأمهلهم وأَنْظَرهم إلى ذلك اليوم، وفي كلمة: ﴿يَوْمَ﴾ تهديد، والتنكير في اللغة من معانيه التخويف والتضخيم[2]، فهذا يوم واحد، ولكن له ما بعده!

الثانية: وَصَفَه بقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، فها هنا داعٍ يدعو من قِبل الله تعالى، ولعله إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكأنه يدعو الخلق جميعًا إلى شيء واحد[3].

الثالثة: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ﴾، و﴿شَيْءٍ﴾ هنا منكَّر، فهو مهول عظيم[4]، فلو اقتصر على قوله ﴿شَيْءٍ﴾ لكان كافيًا ولو قيل لك: «إنه في ذلك اليوم سوف يدعو الدَّاعي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٦).

(٢) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (٣/ ١٥٥)، و«الإتقان» (٢/ ٣٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٨)، و«مفاتيح الغيب» (٢٩/ ٢٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٦).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٨).

إلى شيء» كان هذا كافيًا ولم يحدِّد ماهيته، بل اقتصر على وصفه بأنه ﴿شَيۡءٖ﴾ يُدعى الناس إليه.

الرابعة: ثم وصفه بأنه ﴿نُّكُرٍ﴾ أي: منكر عظيم هائل يستنكره الناس؛ لأنهم لم يعرفوه ولم يتعوَّدوا عليه ولم ينتظروه؛ ولهذا إذا بُعثوا قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ثم يعودون إلى أنفسهم ويقولون أو يسمعون مَن يقول لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾(١) [يس: ٥٢].

الخامسة: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ [القلم: ٤٣]، والخشوع هنا تعريض بهم أنهم كانوا معرضين عن الخشوع لله تعالى في الدنيا، ففي ذلك اليوم أصبحوا خاشعين بأبصارهم، خشوع مَذَلَّة وانكسار وهوان وشعور بأن الفرصة فاتت عليهم(٢).

السادسة: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ جمع: جَدَث، وهو القبر(٣)، كقول عبد الله ابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤):

حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي: أرشَدكَ اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا

أن ترى الناس يخرجون من قبورهم سِراعًا بعدما نُفخت فيهم الأرواح وأذن الله تعالى بعودتهم إلى البَسِيطة؛ كما قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٥٧- ٤٥٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٩/ ٦٠٥١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٧).

وينظر أيضًا: «كتاب فيه لغات القرآن» (ص٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٩٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٨)، و«تاج العروس» (٢٣/ ٧٤) «ج د ث».

(٤) ينظر: «ديوان عبد الله بن رواحة» (ص٩٨)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣، ١٤/ ٣٧٧) (١٥٠١١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥٩).

﴿١٤﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، أي: على ظهر الأرض أحياء بعدما كانوا في بطنها أمواتًا(١).

السابعة: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، **والجراد:** حشرة معروفة، تطير أفواجًا، فتأتي على الحرث الأخضر واليابس.

الثامنة: وصف الجراد بأنه ﴿مُّنتَشِرٌ﴾، وقد يكون معناه من النُّشُور، تشبيهًا بالجراد الصغير الذي تخلَّق صغيرًا، فكأن الإشارة إلى أنهم خرجوا من الأرض ونُشروا إلى الأرض إلى ظاهرها، **والنُّشُور** هو: الحياة أو البعث(٢).

أو معنى ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ أي: متفرِّق(٣)، والجراد هنا يهيم على وجهه، ويضرب بعضه بعضًا، ويطأ بعضه بعضًا، وهذا من طبيعة الجراد.

وفيه إشارة إلى أنهم هائمون على وجوههم، ليس لهم وجهة معيَّنة، ولا يلتفت أحد لأحد.

التاسعة: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾، **والإِهْطاع** فيه معنى الإسراع والرَّكْض على غير بصيرة، وفيه معنى الذُّل والخضوع، **والمُهْطِع** يتَّجه ببصره صوب وجهة واحدة، لا يكاد يلتفت إلى غيرها.

والإِهْطاع لا يكون إلا مع خوف ووَجَل(٤)، ومثله قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ويقال: بعير مُهْطِع،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧٩)، وما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٦٨)، وما سيأتي في «سورة القارعة»: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٤٣)، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٣٣٠)، و«تاج العروس» (٢٢/ ٣٩٨) «هـ ط ع».

إذا مشى وقد مدَّ عنقه وصوَّب رأسه[1]!

العاشرة: ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، فهم ذاهبون إلى جهة الصوت الذي يدعوهم أو يناديهم، غافلون عما حولهم، ومن عادة الذي يسمع صوت مستغيث أو مستنجد ويسرع إليه أنه يكون رافع الرأس، وقد يظهر مع ذلك ميل في رقبته وهو متجه إلى الصوت، كما تقول العرب: «لا يَلْوِي على شيء». أما هؤلاء فهم مقنعوا رؤوسهم مطأطئوها؛ لأنهم خائفون وجلون مكروبون[2].

الحادية عشرة: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: عسير، كما قال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وفي قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أن عُسْره، ليس على عامة الناس، بل هو خاصٌّ بالكافرين، أما المؤمنون فيصبهم منه ما يصيبهم، ولكن ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[3] [إبراهيم: ٢٧].

* ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾:

ينتقل السياق إلى عدد من القصص، ويسوقها مساقًا عجيبًا سريع الوَتِيرة، عظيم التأثير، بما يتضح معه أن المقصود ليس حكاية تفصيل القصص؛ بل هز القلوب الغافلة، وتحريك النفوس المعرضة، وإحداث الاعتبار والحَفْز على التفكر؛ احتجاجًا على الملأ من قريش.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: إنما نسبهم إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ- كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز- لأن هذا أسرع في البيان والبلاغ، ولم يكن لهم اسم معين، وإنما هم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٤٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٧)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٩٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«تفسير المظهري» (٩/ ١٣٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١١٩)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

قومه[1].

﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾: وصفه بالعبودية، وجاء بضمير العظمة؛ تمهيدًا لذكر النجاة له وإجابة دعوته، فهو عبده الذي يستغيث به، وتمهيدًا لذكر هلاك المكذِّبين المعاندين، والغالب في القرآن الكريم أن نسبة العبيد إليه سبحانه نسبة تشريف وثناء[2].

﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾: وصفوه بالجنون، واختار الله تعالى هذا المقطع من كلامهم عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن المشركين في مكة كانوا يصفون النبيَّ ﷺ بمثل هذا، فكأنه يقول: إن قيل لك هذا فقد قيل هذا لمَن قبلك من الرسل والأنبياء، فلا تحزن، ولا تجزع، كأنهم تواصوا به، فهي كلمة قديمة يردِّدونها[3].

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي: أنهم زجروه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يرعوا منزلته[4]، وما بعث اللهُ بعده نبيًّا إلَّا وله مكانة في قومه[5]، ومع ذلك لم يرعوا منزلته، وإنما زجروه وهدَّدوه بالقتل وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

ورُوي عن مجاهد أن قوله تعالى: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي هذا من تمام قولهم له فيكون تقدير الكلام: هذا مجنون ومع جنونه قد ألمَّ به شيء يزيده اندفاعًا وعتوًا،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٥/ ٥٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٥/ ٣٥٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٠/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩١)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾، و«سورة الطور»: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾.

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٨٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨١).

(٥) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «فما بعثَ اللهُ بعده نبيًّا إلَّا في ثَرْوَةٍ من قومه». أي: في عزَّة ومَنَعة. ينظر: «مسند أحمد» (٨٩٨٧)، و«الأدب المفرد» (٦٠٥)، و«جامع الترمذي» (٣١١٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٥١٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٦٤) (١١٠٧٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٠٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٦١)، و«السلسلة الصحيحة» (١٦١٧).

وقول الجمهور أقوى[1].

* ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾:

ولِمَ لا يدعو ربه وهو عبده! وقد لبث هذا النبي الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، والسياق اختصر هذه المُدد المتطاولة اختصارًا، فما بين تكذيبهم ووصفهم له بالجنون وما بين دعائه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فهو قد صبر عليهم هذه المدة الطويلة قبل أن يدعو عليهم[2].

ولكن السياق هنا ليس لتفصيل القصة وسرد أحداثها، بل هو للتخويف والتحذير، فناسب فيه طي تفصيلات الأحداث، وإبراز الأهم منها.

وتأمَّل قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾: غلبوه على الأجيال الناشئة، وحالوا بينه وبينها، ولم يمكِّنوه من الدعوة، وهدَّدوه بالرَّجْم، وإلا فهو لم يدخل معهم في حرب ولا منازلة، ولكن استأثروا بمنابر التوجيه، وسيطروا على أدوات التأثير، ولم يتركوا منقصة إلا وصموه وأتباعه بها، فها هو توصَّل إلى هذه النتيجة، أنه ﴿مَغْلُوبٌ﴾، ودلَّت النصوص الأخرى على أنه لم يدع عليهم حتى أخبره ربه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]!

فأين هذا من داعية عجول متسرِّع، لم ينزل عليه وحي، ولا جاء بآية من السماء، ولعله قصير الباع في العلم والتجربة والتربية، وسرعان ما يهجم على المدعوين بالدعاء عليهم أو وصمهم بالكفر أو الضلال دون بصيرة، أو الإسراع إلى المواجهة بالقوة والعنف ضد أُناس لعلهم لم يعرفوا دعوته ولا أدركوا غايته!

وقوله: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: لدينك يا رب، وليس لشخصه عَلَيْهِ السَّلَامُ[3]، ولأن نوحًا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٣- ٢١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨١).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة نوح».

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢١٨).

عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مخلصًا في دعوته، وبذل الأسباب، فإنه لم يَدْعُ عليهم إلا بعدما استفرغ الوُسع ونوَّع الأساليب.

وفي هذا درس عظيم للدُّعاة أَلَّا يستبطؤوا هداية الناس وييأسوا منهم، وأَلَّا يسارعوا إلى الدعاء عليهم، مع أن الدعاء هو التماس من الله، فمن باب أولى أَلَّا يتسرَّعوا في محاربتهم وقتالهم ومناجزتهم من أول وهلة يرون منهم فيها بغيًا أو ظلمًا.

* ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾:

كأن السماء استحالت أبوابًا، تصب الماء صبًّا كأفواه القرب[1]، وتأمَّل الاستجابة الإلهية العاجلة!

وكأن الأرض استحالت عيونًا تفيض، بل تتفجَّر.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ يعني: التقى الماءان: ماء السماء وماء الأرض، ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب[2]، وربما يقول بعض علماء الأفلاك أو غيرهم إن ذلك قد وافق نوءًا معينًا أو وافق ظرفًا خاصًّا، وأن ثمة أسبابًا أحدثت الفيضان من الأرض ونزول المطر من السماء، ومن ثَمَّ حصل الطوفان.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب، ونرجع هنا إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أول السورة ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾، حتى الأشياء التي تكون مرتَّبة ولها أسبابها الكونية لا يعني أنها عريَّة عن الحكمة الإلهية، بل هي مقصودة؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، فأين المفر وقد حق عليهم أمر الله تعالى؟

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

إنك حين تقرأ هذه الآيات فتحس تمثل المشهد أمام ناظريك طوفان عظيم بأمر خالقه، الذي إن شاء جعله عذابًا، كما في هذه القصة العظيمة، وإن شاء جعله رحمة وحفظًا، كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي خاطب الله فيها الماء بحفظ الأمانة، كما يفعل أحن البشر وأحرصهم: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ [طه: ٣٩].

* ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: حملنا نوحًا ذلك العبد الصابر، ولم يذكر مَن معه؛ لأنه هو الدَّاعي الأعظم، وهو المقصود، حملهم تعالى وحمل معهم ما تبقَّى به الحياة على الأرض على «سفينة»، وتُسمَّى: «فُلْكًا» أيضًا، فهما مترادفان تقريبًا(١)، ولعله أول مَن صنع الفُلك، والله تعالى ألهمه كيف يصنعها ولم يذكر هنا السفينة وإنما وصفها بأنها ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾.

والألواح معروفة، وهي تُصنع من الخشب غالبًا، وجاء ذكرها في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢)، فقيل: كانت ألواحه من خشب، وقيل: كانت من حجارة(٣)، والله أعلم.

أما الدُّسُر فهي- عند جمهور المفسرين-: المسامير، أو الروابط، من حبال أو عوارض يُشد بها بعض الألواح إلى بعض(٤).

* ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمَرْأى منا، فالله تعالى يراهم ويكلؤهم ويحفظهم.

---

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٤٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٧٩) «ف ل ك».

(٢) كما في «سورة الأعراف»: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٢/ ٢١٤)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (١٤/ ٣٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٨١).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٤).

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كفره قومه ولم يؤمنوا به[1].

* ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾:

أي: السفينة، بقيت ورأتها الأمم، حتى أوائل هذه الأمة، فقد ذكر قتادة وغيره أن السلف رأوا آثار هذه السفينة على جبل في العراق[2]، والله قال: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وهو: جبل في العراق، قريبٌ من المَوْصِل، وهناك مدينة لا زالت موجودة اسمها «بَاقِرْدَى» عندها جُبيل صغير يقال إنه الجُودِي، فهي في ذلك المكان، فتركها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آية[3].

ويمكن أن يكون المقصود: تركنا هذه القصة آية لمَن يعتبر، فهل من معتبرٍ متعظٍ؟ فهي دعوة للناس أن يعتبروا[4].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: ختام تكرر في السورة، وهو نوع من المناشدة، كما يقول مَن يعرض سلعته: هل من مشترٍ؟ وكما يقول الدَّاعي والسائل: هل من مجيب؟ وفيه دلالة على قلة المعتبرين، وأصلها «مذتكر» فأدغمت وقلبت الذال دالًا لتقاربهما[5].

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٧٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٣)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٩)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧١)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٦). وينظر أيضًا: «معجم البلدان» (١/ ٣٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٧)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٣٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٢).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠٧)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٨)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٤٩).

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾:

والسؤال يتكرر مع كل قصة: كيف ترى أيها القارئ أو المستمع العذاب الذي نزل بهؤلاء القوم والطوفان الذي اجتاحهم وأهلكهم[1]؟

وهنا وحَّد «العذاب»، وجمع «النُّذُر»، فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، ولعل هذا من الرحمة؛ لأن النُّذُر التي تسبق العذاب كثيرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعاجل عباده، بل يبعث إليهم نُذُرًا كثيرة وحُجُجًا عظيمة، أما «العذاب» فكان واحدًا، ولكنه الضربة القاضية؛ فلذلك وحَّد «العذاب» وجمع «النُّذُر» قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[2].

والعذاب واضح، وهو الطوفان، لكن ما سرُّ مجيء «النُّذُر» هنا؟

والجواب: أن الذي حدث هو من آثار النُّذُر، فهم قد توعَّدوا بها مرارًا وتكرارًا إن لم يؤمنوا، فلم يؤمنوا، فجاءهم العذاب الذي أنذروه.

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾:

وهذه لازمة في السياق بعد كل قصة يُذكِّر تعالى بهذا المعنى؛ دعوة إلى الناس أن يعتبروا.

وتيسير القرآن هنا هو: تيسيره للتدبر والاتعاظ في المقام الأول، فتتلقَّاه القلوب والعقول والأسماع[3].

وهي دعوة إلى الإيمان والبحث عنه، فهو يسير قريب ممن أراده وتخلَّى عن موروثه الفاسد ومصالحه العاجلة، وهي دعوة لأن تستجيب له النفوس، وترق القلوب.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٢).

ومن التيسير: تسهيل تلاوته وحفظه، حتى يحفظه الطفل الصغير والأُمِّيُّ والأعجمي، وحتى يحفظ عامة المسلمين منه ما تصح به صلاتهم، وتطيب به حياتهم، وتعظم به أجورهم.

ومثله: تسهيل أحكامه، ومقاصده، وما يترتب على معانيه ودلالاته من الأوامر والنواهي وتفصيلات الحياة، فكان ذلك كله مما امتن الله تعالى به على هذه الأمة[1].

* ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾:

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يعطف عطفًا، وإنما ذكرها قصة جديدة مستأنفة، وكأنه لا علاقة لها بالتي قبلها، فكأنك في مشهد قصة جديدة منفصلة، مع ختم كل قصة بخاتمة واحدة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ إشارة إلى أن كل قصة بمفردها لو لم يُذكر غيرها لكانت كافية لمَن يعتبر، فكيف إذا اجتمعت كلها؟ ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولأن السياق تهديد ووعيد كانت القصة تبدأ بذكر التكذيب؛ تحضيرًا لذكر الجزاء، وفي هذا تنبيه لقريش ومَن بعدهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يصيبهم ما أصابهم.

ولم يقل: «كذبت قوم هود»، بخلاف ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، والذي يظهر أن السبب هو أن اسم «عاد» معروف مشهور، أشهر من أن يُقال: «قوم هود»، وهم من العرب العاربة، وهم العرب الأولى المعروفون القريبون من ذاكرة المخاطبين؛ ولذلك كان ذكر اسمهم الأول أدعى إلى الذهن وأبلغ تأثيرًا.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: وهذا تعجيب من العذاب، مع أنه لم يذكره، ولعل ذلك لأنهم قريبون من أهل مكة، وهم يعرفون قصتهم[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٤٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٦٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩١).

* ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾:

والرِّيح نفسها حين تكون مرسلة، فسوف تكون مُهلكة، فكيف إذا كانت ﴿صَرۡصَرٗا﴾ قوية شديدة، حتى إنه يُسمع لها صفيرٌ شديد، فهذا هو «الصَّرْصَر»، وكذلك هي شديدة البرودة، ومنه الرِّيح الصِّرُّ، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾[1] [آل عمران: ١١٧]، ومن هذا قول العربي[2] لغلامه:

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرُّ ... والرِّيحُ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ

علَّ يرى نارَك مَن يمرُّ ... إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنت حرُّ

﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ وليس المعنى أنها في يوم واحد فحسب، كلا؛ فإن الله تعالى ذكر أن عذابهم كان في أيام، فقال: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة: ٧]، والجمع بينهما- والله أعلم- أن ذكر اليوم إشارة لبداية العذاب، ولذلك ذكر ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ مما يدل على أن بداية الرِّيح كانت في النهار، وذكر اليوم يدل على أن الرِّيح استمرت فلم تتوقف، فكأن الأيام يوم واحد، وعلى وتيرة واحدة لم تتغيَّر، ولذا وصفه بأنه ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾[3].

والنحس إنما يكون من فعل الإنسان، وليس من شأن اليوم.

وهذا دليل على أن وصف ﴿يَوۡمِ﴾ بأنه ﴿نَحۡسٖ﴾ لا يعتبر من سبِّ الدَّهر، كما قد يظن بعضهم، بل هو وصف للحال التي تصيب الناس.

واعتقاد أن هذا اليوم كان «يوم أربعاء» اعتمادًا على حديث: «آخِرُ أربعاء من

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٢).

(٢) ينظر: «العقد الفريد» (١/ ٢٤٢)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٠٨) منسوبًا إلى حاتم الطائي.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة».

الشهر يومُ نحسٍ مستمر». اعتقاد باطل ولو كان هذا اليوم بعينه يوم نحس لكانت أيام الأسبوع كلها أيام نحس لأن الله تعالى سخرها عليهم ثمانية أيام فيكون كل الأسبوع كذلك! والحديث موضوع(١).

والذي نعتقده هو أن الحياة كلها نحس على المأسور بالجهل والتشاؤم والإحباط واليأس المنقطع عن الله سبحانه، وإلا فليس في الأيام شيء نحس في نفسه، والتَّطَيُّر من عمل الجاهلية.

ولله در القائل(٢):

أَلَا إنما الأيـــامُ أبـنــاءُ واحـدٍ وهَـذِي الليالي كلُّها أخَـواتُ

الأيام كلها كأنها أبناء رجل واحد، والليالي كأنها أخوات، فلا فرق بين ليلة وليلة، **أيام السعد**: تلك الأيام التي أحسن الإنسان توظيفها واستمتع بها، **وأيام النحس**: تلك التي أخطأ الإنسان فيها أو عصى أو تشاءم أو انقطع وصله بحبل الله سبحانه أو نظر بسوء ظن إلى الحياة، والله تعالى يقول: «**أنا عند ظَنِّ عَبْدي بِي**»(٣).

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: **والمستمر**: وصفٌ للنَّحْس، أي: دائم، أو: شديدٌ وقويٌّ(٤).

* ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: فالرِّيح مرسلة إلى الناس، ليست إلى النَّخل أو المباني، فيصبح الرجل الطويل الشديد مطروحًا ساقطًا بلا حراك، كأنما هو عَجُز نخلة خاوٍ!

---

(١) ينظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ٧٣)، و«السلسلة الضعيفة» (١٥٨١).

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٥٠)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣٣٣) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٤٩٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٢).

وأنت حين تسمع كلمة ﴿تَنزِعُ﴾ تعرف أن هؤلاء ليسوا ناسًا عاديين، فإن الله تعالى أعطاهم قوة في أبدانهم وبَسْطة؛ فكأن هذه الرِّيح تنزع شيئًا متأصِّلًا متجذِّرًا في الأرض.

وقد ورد أنهم لما رأوا الرِّيح شرعوا يدفنون أنفسهم في الأرض، فتنزعهم منها نزعًا، ثم ترميهم على ظهرها ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي «سورة الحاقة»: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾[1].

وكل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[2]، فهنا قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي الموضع الآخر قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وأعجازُ النخل هي: أواخر النخل ونهايتها، والأليق بوصف العجز هو طرف النخلة من جهة الأرض، وهو يناسب النزع، فكأنما أحدهم نخلة قلعت من أسفلها.

ويجوز أن يكون المعنى: قطع النخل من أعلاه، وانفصال أغصانه وعسبه عنه، وهذا يشعر بأن رؤوسهم فارقت أجسادهم بسبب الضربات الشديدة الموجعة، فتراهم على الأرض صرعى.

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١﴾:

يعيد السؤال مرة أخرى بعدما عرفت العذاب، ورأيته أصابهم، وشاهدت هؤلاء الأشدَّاء كيف صاروا كالنَّخل الطوال المُلقى على الأرض[3].

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾:

وكان بإمكانهم أن يتجنَّبوا مثل هذا المصير إذا أَصْغَوْا وأصاخوا لداعي الله

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤).

(٢) ينظر: «شرح المفصل» لابن يعيش (٣/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٢٩٨).

(٣) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٤).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤)﴾:
فصَّل الله في شأن ﴿ثَمُودُ﴾؛ لأنهم يُشبهون قريشًا فيما قالوه من استنكافهم، وقولهم: كيف نتبع شخصًا واحدًا هو منا ومثلنا لا يتميَّز علينا بشيء ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن اتَّبعناه وأطعناه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[١]، فالضلال في عقولهم، والسُّعُر إما أن يكون الجنون، فإن من معاني المسعور: المجنون، ولذلك يقال: «ناقة مَسْعُورة»، إذا كانت تمشي بسرعة، ومن غير انتظام، أصابها سُعار[٢].

ويمكن أن يكون المقصود بالسُّعُر: النار، سواء كان مقصودهم نار الدنيا أو نار الآخرة، فهو شبيه بقول قريش: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[٣] [القصص: ٥٧].

* ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦)﴾:

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾: استفهام استنكاري منهم، كيف يختص من بيننا بالرسالة[٤]؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: وصفوه بالمبالغة في الكذب، فما قالوا: «كاذب»، بل ﴿كَذَّابٌ﴾ على صيغة المبالغة الدالة على كثرة الكذب، فهو يكرِّر الكذب ويُكثر منه[٥]، و﴿أَشِرٌ﴾ فيه الأَشَر والبَطَر والكِبْر، هذا أصح المعاني[٦]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٣٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٥٣) «س ع ر»، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٣٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٧).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٨).

فادَّعَوا أنه مع الكذب بَطِر متكبِّر متعاظم معجبٌ بذاته؛ ولهذا ادَّعى النبوة، وهو فعل ذلك ليكون سيِّدًا أو زعيمًا علينا.

هكذا واجهوا نبيَّهم، مع أن الرسل الذين يختارهم الله عَزَّوَجَلَّ معروفون بالصدق والوضوح في سيرتهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم، مجبولون على التواضع والانكسار، ولم يكن أحد منهم يترقَّب الرسالة ولا يستشرف لها، كما قال عن محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وكما فوجئ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخطاب الإلهي دون انتظار: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الدخان: ٣٢]، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالرسل أناس متميِّزون بمكانتهم في قومهم، وبسعة عقولهم وعلمهم وصدقهم وأخلاقهم، ويتميَّزون بصفاء نفوسهم وقلوبهم، حتى قبل الرسالة، فضلًا عما يكون بعدها.

ولذا قال تعالى تأديبًا وتأنيبًا وتهديدًا: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[2].

والسياق يتحدَّث عن الغد، ويستعمل حرف السين الدال على المستقبل، وفيه إلماح لما سوف يصيب قريشًا وكل المكذِّبين المجترئين على الرسل، إن لم يرعووا ويندموا ويتداركوا يومهم قبل غدهم، ولأن ردَّهم كان سفهًا لا طائل من ورائه ولا حجة فيه كان مناسبًا أن يقابلَ بالتهديد في الآية، ورد الأمر عليهم فيما نسبوه إلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهم أولى به، ولكنه ترك الأمر مرسلًا مفتوحًا محتملًا في الظاهر، فلم يقل: «هم الكاذبون»...!

* ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

قد طلبوا منه آية، فأخرج الله تعالى لهم من عرض الجبل ناقة، فكانت آية بينة، ولذا قال: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ستكون سببًا في الاختلاف بينهم ما بين مؤمن

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾، وأول «سورة العلق».

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩).

وكافر، وستكون سببًا في هلاكهم[1]، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أي: ارقبهم وأَنْظِرهم، و«ارتَقِبْ» أبلغ من «ارقب»، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي: اصبر، ولكنه أبلغ، بالغ في الصبر والانتظار ولا تعجل عليهم[2].

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بينهم وبين الناقة، فكانت تشرب من الماء يومًا، وهم يشربون منه يومًا، وربما كانت خلقًا عظيمًا، فإذا جاءت إلى الماء نفرت مواشيهم فلم تشرب منه، فأمرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون الشِّرْب يومًا للناقة ويومًا لهم، فاختلفوا في ذلك وأصبحت بعض قبائلهم يقولون لبعض لا تشربوا في يومنا لأن يومكم هو اليوم الذي تشرب فيه الناقة، اذهبوا واطردوها واشربوا الماء، فوقع بسبب ذلك اختلاف عندهم.

﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ يعني: يشرب هؤلاء الناس اليوم، وتشرب الناقة غدًا، ويحضر هؤلاء لشربهم، وتحضر الناقة لشربها، ولا يجوز لهم أن يشربوا في يوم الناقة[3].

* ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾: ضجروا من هذه القسمة، وأجمعوا أمرهم على عَقْر الناقة، ولكنهم تهيَّبوا أن يباشروا ذلك، فعمدوا إلى صاحب لهم مشهور بالجرأة والطيش والعجلة، ومن طبيعته مباشرة المهمات التي يتردَّد الناس فيها دون مبالاة، وليس شخصًا عاديًا، بل هو زعيم في قومه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**انبعثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ في رَهْطه، مثلُ أبي زَمْعَةَ**»[4]. واسم هذا الرجل: قُدَار بن سالِف، وفي

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«روح البيان» (٩/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٢- ٤٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤١)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زَمْعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وصفه بـ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ إشارة إلى أن العمل لم يكن مبادرة فردية بل عمل جماعي تواطؤوا عليه وإن باشره واحد منهم[1].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: إما أن يكون المعنى: تعاطى السلاح، أو تعاطى الكلام معهم، ووصل إلى هذه النتيجة، أو تعاطى هذه المهمة، فعقَر الناقة، فرماها بسهم فقتلها[2].

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: أعاد السؤال هنا قبل العذاب، ويلاحظ أنه في هذه القصة ذكره مرتين، قبل العذاب وبعده[3].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: فأُهلكوا بالصيحة، وماتوا عن آخرهم؛ فأصبحوا مثل الهَشِيم الذي تذروه الرياح، كبقايا التبن والأشياء اليابسة، **والمحتظر** هو الذي يبني حِظارًا، أي: بناءً من القَشّ، فيبقى من القَشّ بقية مبثوثة في الأرض بعد استعماله في البناء[4].

أو يكون المقصود: هَشِيم الحِظار الذي تسقطه الريح، ومع الوقت يسقط مثلما يسقط من الجدار بعض الرمل أو الطين، هؤلاء الناس بقوا في الزوايا مثل هَشِيم المحتظر الذي وطئته الأقدام؛ إشارة إلى تفاهتهم وأنه لا يعبأ بهم أحدٌ[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٧٢).

(٣) ينظر: «ملاك التأويل» (٢/ ٤٥٩- ٤٦٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٣).

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٣).

* ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾:

لم يذكر فعلتهم، فالمقام يستدعي طيَّها والاختصار والعناية بنوع العذاب الذي نزل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترميهم بالحصباء، أو: المقصود الحجارة التي أنزلت عليهم(١).

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾: وآل لوط: هم أسرته الذين آمنوا معه، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر: ٦٠]، فقد أصابها ما أصابهم(٢).

﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: قبل الفجر؛ لأن العذاب سوف يباغت قومه صباحًا(٣).

* ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: على لوط ومَن معه، فلوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنذر قومه بطشة الله سبحانه، وهذا مناسب لقوله تعالى تهديدًا لقريش: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، والبَطْش هو: الأخذ القوي الشديد بغضب وانتقام، ولم يقل: «بطشنا»، بل عبَّر بالمفرد: ﴿بَطْشَتَنَا﴾، فإنما كانت واحدة، لم يستدع الأمر أكثر منها، فهي بالغة المنتهى في قوتها وشدتها وأخذها(٤).

﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ مع أن الرسول أنذرهم، وذكَّرهم أنها بشطة الله القوي القادر، إلا أنهم جادلوا وشكَّكوا وأنكروا(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٧-٤١٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«روح البيان» (٩/ ٢٨٠).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٤)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٤٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٠).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣).

* ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ من الملائكة[1]، والمراودة تعني: أن يريد المرء الشيء مرة بعد أخرى على سبيل الإلحاح في الطلب، وغالبًا ما تكون في سياق الفاحشة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[2] [يوسف: ٢٣].

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: الطمس هنا يحتمل أن يكون الله تعالى أعماهم أو سوَّى أعينهم بوجوههم، وكأن عيونهم مُحيت وطُمست، أو يكون المعنى أن الله تعالى غطَّى عليهم بحيث لم يروا هؤلاء الرسل.

وقد نُقل الوجهان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والأقرب أن الله تعالى ذهب بأبصارهم، وذهبوا لا يعرفون الباب حتى أخرجهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من بيته[3].

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فكانت هذه بداية العذاب، ولذا كرَّر الأمر بعد نزول العذاب العام.

* ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: صبَّح القوم كلهم هذا العذاب، إلا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن خرج معه، والعذاب المستقر هو: العذاب اللازم اللازب الذي لا يغادرهم ولا يفارقهم، وكأن العذاب الأول بطمس الأعين مقدِّمة وليس هو العذاب الذي أنذرهم إياه رسولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ[4].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٢/ ٤٥٤)، و«تفسير النسفي» (٢/ ١٠٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٢٥٦)، و«تفسير النيسابوري» (٤/ ٧٧)، و«روح البيان» (٤/ ٢٣٤)، و«التفسير المظهري» (٥/ ١٥٢)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٥).

(٤) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٠٧)، والمصادر السابقة.

* ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩﴾:

وعبَّر بالذَّوْق، من باب السخرية والتنكيل بهم[1].

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾:

هذه القصص هي من تيسير القرآن، ففيها آيات وعبر يستدل الناس بها على الطريق، ومن تيسير الله للذكر أن يكون القرآن بهذه البلاغة والتجانس في المعاني والآيات، أو التقابل والتشاكل؛ ليسهل فهمه وحفظه وتدبره، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

* ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾:

بدأ قصة فرعون بذكر النُّذُر؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعث إلى فرعون وهامان وقارون بالإنذار والتحذير، ثم أتاهم بالآيات التسع العظيمة، ومنها: ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. ومنها: اليد والعصا، والسِّنين ونقص الثمرات، والطاعون، وهو الرِّجْز، والله أعلم[2].

ومَن كذَّب بآية فكأنما كذَّب بجميع الآيات، فالمقصود أن كل آية ترد عليهم حقيقة وجديرة بالتصديق، ولكنهم يكذِّبون بها، ثم إنهم قد يتردَّدون أو يخافون أو يعدون موسى بالإيمان والتصديق، فإذا رُفع البأس عنهم نكلوا وعادوا لما كانوا عليه، كما بينت ذلك «سورة الأعراف»، و«سورة الزخرف»: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف:٤٩].

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فأخذهم الله أخذ قوي قادر، وأهلكهم هلاكًا عامًّا شديدًا يناسب قوتهم وطغيانهم واغترارهم بالجنود والأعوان.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٤)، و«التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٤٢).

* ثم عقَّب على ذلك كله بالمقصد من السياق فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾:

وهو خطاب لكفار قريش: هل كفاركم المعاصرون خير من أولئك الناس الذين أهلكهم سبحانه، فلا يستحقون العقوبة كما استحقها أولئك؟

كلا، ليسوا خيرًا منهم وقد كفروا بأفضل الرُّسل وخاتم الأنبياء، وجحدوا القرآن الذي هو أعظم الآيات وأتم الحجج[1].

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ هل عندكم من الله تعالى كتاب أو ميثاق يجعلكم بمأمن ألّا يصيبكم ما أصابهم[2]؟!

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أم يحتجون بأنهم جماعة وقبائل، وأن اجتماعهم سيكون سببًا لنصرتهم[3]؟

* ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾:

وهذا وعيد في المستقبل القريب، وهو إشارة إلى أنه إذا كان إهلاك الأمم السابقة بالاستئصال؛ فإهلاك الناس بعد بعثة النبي ﷺ يكون وفق النواميس والسنن، كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

والسورة مكية؛ لأن ذلك وعد أُنجز وعده في معركة بدر؛ ولذلك ورد أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقولُ: أيُّ جمع سيُهزم؟ فلم يكن يعرف تأويل هذه الآية حتى رآه بعينه في معركة بدر، ورأى النبيَّ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٠).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٢)، والمصادر السابقة.

ﷺ وهو يتلو هذه الآية ويقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[1].

* ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾:

الساعة: يوم القيامة في لغة القرآن والسنة، وورد هذا الاستعمال في مئات المواضع، سُمِّيت بذلك لتوقيتها، وسرعتها، والله أعلم[2].

والمعنى: أنه لم ينته الأمر عند عذاب الدنيا، بل لهم موعد لا يتخلفون عنه، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد وأعظم[3]، وقوله: ﴿أَدۡهَىٰ﴾ من الدَّاهية، إذا دهاه، أي: أصابه أمر عظيم، ﴿وَأَمَرُّ﴾ يعني: أشد مرارة، أو أشد قوة، فعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى وأهول وأطول[4].

* ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ ﴾:

﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ في الدنيا، ﴿وَسُعُرٖ﴾ في الآخرة، جمع: سَعِير، وهو: النار[5].

* ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾:

أي تسحبهم الملائكة، وهذا بعض العذاب، وهو إهانة لهم أن يُسحبوا على وجوههم في النار، فليس ثَمَّ عذاب ولا هوان يحيط بهم أشد وأعظم منه، ومع

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦١)، وابن سعد (٢/ ٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٥٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٢٩)، وأصله في «صحيح البخاري» (٤٨٧٥). وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٩١)، و«فتح الباري» (٨/ ٦١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٤)، و«اللباب» (١٨/ ٢٧٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٤)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٦٤٦).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣١٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٥).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤١٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٤).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٥١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

هذا يُبَكَّتون ويوبَّخون، ويُقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ على سبيل السخرية بهم، و﴿سَقَرَ﴾: اسم من أسماء النار، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾(١) [المدثر: ٢٦- ٣٠].

* ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

إنهم جاحدون معرضون، قد امتلأت قلوبهم كِبْرًا وعنادًا، وامتلأت حياتهم ظُلْمًا وبغيًا وعدوانًا، وتمحَّضوا للشر، فمهما جاءتهم الآيات، والحجج، والقصص.. فهي لا تزيدهم إلا طغيانًا، وحين يسمعون هذا الوعيد البليغ، فإنهم يصدون عنه، ويسألون سؤال الساخر المستهزئ: أليس الله بقادرٍ على منعنا من الشرك والكفر؟ ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾(٢) [الأنعام: ١٤٨]، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

وهذه من الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وهو من أركان الإيمان: أن تؤمن بالقدر خيره وشره، فهو الركن السادس منها(٣)، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ الإشارة إلى أن كل الأشياء خلقها الله تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والخلق من القدر، فإن الله تعالى هو الخالق، وهذه مرتبة من مراتب القدر، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ من معانيه: خلقناه بتقدير لا يزيد ولا ينقص، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، والآجال معروفة، وكل شيء له نواميس وسنن وأسباب، وكل شيء مكتوب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٦).

(٢) وفي «صحيح مسلم» (٢٦٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القدر، فنَزَلَتْ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾». وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٠١).

(٣) أركان الإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه. وينظر ما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ [الحجرات: ١٤].

فالكتابة هي من مراتب القدر أيضًا[1].

والقدر سرُّ الله تعالى في الأرض، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ جانب الإلهية الذي لا يدركه البشر، ولا بد من التسليم والإيمان بالله الخالق الذي كل شيء بإرادته، ولا يقع شيء إلا بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، والقدر لا ينافي إرادة الإنسان ولا يصادرها، فليس أحد يشعر بأن ثمة قوة غيبية تجبره على شيء هو لا يريده، أنا أريد أن أتكلم فأتكلم، وأريد أن أحمل القلم فأحمله، وأريد أن أضعه فأضعه، وأريد أن أشرب أو آكل شيئًا يلذ لي، أو أقوم أو أقعد فافعل ذلك كله، وأنا مسؤول عنه، ولو أن أحدًا قهرني على ما لا أريد وأجبرني عليه لكانت التبعة مرفوعة عني، وكان هو المسؤول عن فعلي القسري الذي لا اختيار لي فيه ألبتة.

فالمكلَّف يشعر بداخله بأن ثمة مشيئة خاصة به تتيح له مساحة واسعة من الاختيارات مما يحب وما يكره، وبناءً على هذا الاختيار البشري يحاسب، فيكافأ أو يعاقب أو يجازى، فأهل الجنة يقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]، وأهل النار يقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]، فلم يعاقبوا على ما لم يذنبوه.

فالقدر ليس حجة تسوِّغ فعل المعصية وركوب الضلال وتنكب الصراط، ولا حجة للفاشلين والجاهلين والمتخلِّفين بالقدر، فهم لم يحاولوا الأمر ولم يعالجوه، ولا تعاطوا أسبابه فأخفقوا، لماذا يكون الجهل والفقر والمرض «قدرًا»، ولا يكون العلم والسعي والتخطيط «قدرًا» كذلك؟!

إن من أعظم الأخطاء توظيف القضاء والقدر للاحتجاج به على المعايب وعلى الذنوب وعلى الأخطاء، وإنما القضاء والقدر يُحتج به- كما يقول العلماء- في المصائب، لا في المعايب[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٠٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٢٣)، و«شفاء العليل» (ص١٨).

ومعنى ذلك: أن المرء إذا أُصيب بموت قريب، أو شيء خارج عن إرادته، فله أن يحتج بالقدر: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، أما أن نجعل القضاء والقدر تكأة نهرب إليه من مواجهة مسؤولياتنا التي كلَّفنا تعالى بها، فهذا تشبُّه بالمشركين، ولو كان العبد مجبورًا جبرية مطلقة على الفعل لم يكن للأمر الشرعي ولا للنهي معنى؛ فالتكليف دليل على أن الإنسان قادر على ذلك، مختار مستطيع أن يفعل أو لا يفعل، فهذه من الأشياء التي ينبغي على الإنسان أن يرعاها بصورة جيدة، وألَّا يجعل مسألة القضاء والقدر سببًا في قعوده عن العمل، أو تأخره، أو كثرة التفكير والجدل حولها، بما لا طائل تحته!

* ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ ﴾:

فالله تعالى على كل شيء قدير، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿ وَٰحِدَةٌ ﴾ أي: كلمة واحدة، وهي ﴿ كُن ﴾(١).

﴿ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ ومن ذلك: الساعة التي ذكرها هنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧]، يعني: بل هو أقرب من لمح البصر، فلما يقول: ﴿ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أي: مثلما تغمض عينك وتفتحها، أو تلمح بسرعة، فهكذا يقع أمر الله سبحانه، فهو أقرب من ذلك، ولكن هذا لتقريب الأمر إلى عقولنا(٢).

* ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ ﴾:

أي: أهلكنا الذين من قبلكم، أفلا تعتبرون بهلاكهم؟! وسماهم: أشياعًا؛ لأنهم مثلهم في الجهل والضلال والإعراض(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨٢٨).

(٢) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٨٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٨٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٥٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٥٥).

* ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾، و﴿الزُّبُرِ﴾ جمع: زَبُور، والزَّبْر- بفتح الزاي وسكون الباء-: الكتابة، فكل ما فعلوه مكتوب عنده سبحانه محصى ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1].

* ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: مسطور مكتوب، صغيرًا كان أو كبيرًا، من أحوال الأمم والأفراد، والحركة، والنظرة، إلا اللَّغو الذي ليس فيه حساب ولا تكذيب، ولا ثواب ولا عقاب[2].

والله تعالى يذكر هذه الأشياء ليس من أجل أن نتجادل، ما معنى مكتوب؟ وأين؟ وما هذا الكتاب؟ وما شكله؟ وما لونه؟ وهل هي كتابة حقيقية مثل الكتابة التي نعقلها نحن أم شيء مختلف؟

هذا غيب عند الله سبحانه، والمقصود أن يكون في قلوبنا يقظة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فكل شيء مكتوب، وحين تستحضر هذه الحقيقة الغيبية فإنك تكون على نفسك رقيبًا تحجزها عن التعدِّي باللِّسان أو الجوارح.

إنها قيمة عظيمة للإنسان أن تكون أعماله كلها مكتوبة مَحْصيَّة عليه، وإذا كان الناس يستميتون لأن يُكتب عنهم في التاريخ، ولو سطر أو سطور، فكيف يغفلون عن أنهم مكتوبون بالتفصيل في كتاب حافظ، لا تزوير فيه ولا تردد، و﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويُنشر بين الخلق ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، والصالح البار يعرضه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٢)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٧٤)، و«تهذيب اللغة» (١٣/ ١٣٥)، و«مختار الصحاح» (ص١٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٤).

[الحاقة: ١٩]، والفاجر الشارد يتأوّه ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦].

* ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾:

ختم تعالى بهذا الختام العظيم الرائع، والآية وإن جاءت بـ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بصيغة الجمع، ﴿وَنَهَرٖ﴾ بصيغة المفرد، إلا أن المقصود الجنس، أي: وأنهار، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(١) [البقرة: ٢٥].

فعندهم المآكل والمشارب من الجنات والأنهار، وعندهم الأُنس والفرح الذي لا ينقطع في مقعد الصدق، وهذا وعد الصدق، والله تعالى صادق لا يخلف الميعاد، والذين قعدوا هذا المقعد هم الصادقون، ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

فالصدق خُلق نبيل نَفِيس، يريد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ممن ينتظرون هذا المقعد أن يتحلّوا به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) [التوبة: ١١٩].

○○○

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١١)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٥١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٤)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٢).

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

*** تسمية السورة:**

تُسَمَّى: «سورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾» في المصاحف، وكتب السنة، والتفسير، وجاء هذا مرفوعًا في غير ما حديث[1].

وسمَّاها السُّيوطي، وغيره: «عروس القرآن»[2]، وقد جاء في ذلك حديث عند البيهقي[3]، وعلى القول بصحته فهذا وصف للسورة وبيان لفضلها، وليس اسمًا؛ ولذا لم يذكره المعنيون بأسماء السور[4].

*** عدد آياتها:** ثمان وسبعون آية، أو سبع وسبعون؛ باعتبار أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ عند بعضهم لا تُعدُّ آية مستقلة، أو ست وسبعون آية؛ باعتبار أنهم مختلفون في عدد من الآيات فصلًا ووصلًا، كآية: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ هل هي آية أم آيتان، ثلاثة أقوال لعلماء العدِّ[5].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٤)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٥٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥١)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٤٤)، و«نظم الدرر في تناسب الآي والسور» (١٩/ ١٣٩)، و«الإتقان» (١/ ١٩٥).

(٣) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٥) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعدَّه الفيروز آبادي من المنكرات التي وردت في فضل السورة. ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٤٩)، و«فيض القدير» (٥/ ٢٨٦)، و«السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٠)، و«روح البيان» (٩/ ٢٨٨).

* **وهي مكية** على الراجح[1].

وقد قيل في سبب نزولها: أن النبيَّ ﷺ لما أراد أن يعقد مع المشركين صلح الحُدَيْبِيَة قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهيل بن عمرو: أما «الرحمنُ» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهمَّ، كما كنتَ تكتبُ. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: باسمك اللهمَّ». ونزلت هذه السورة[2].

فعلى هذا تكون مدنية، ولكن الراجح أن السورة مكية، ولا يلزم أن يكون لها سبب نزول خاص، لكن العرب كانوا لا يعرفون هذا الاسم في الجاهلية.

وأقرب من ذلك أن يكون نزول السورة جوابًا على استنكارهم لعبادة الله الرحمن، كما في «سورة الفرقان»: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]، فجاء الجواب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

وقد ورد أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ هذه السورة في مكة عند الكعبة، فضربوه وكادوا يقتلونه[3].

وهذا من العجب، فالنفوس المليئة بالظلمة لا تطيق الحديث عن الرحمة ومتعلَّقاتها، وتكاد تسطو بالذين يتلون عليها آيات الله الرحمن الرحيم.

* ومن لطائف الكتاب العزيز أن تكون سورة كاملة تسمى بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وأن يختار الله تعالى هذا الاسم ليجعله افتتاحًا لها، وهو اسم يتضمَّن صفة الرحمة،

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٤٥)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٤٤)، و«الإتقان» (١/ ٤٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٢٨).

وقصة صلح الحُدَيْبِيَة أخرجها البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٤)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٥٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٢٩٠)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٤٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٦).

ولا يُسَمَّى به غير الله عَزَّوَجَلَّ، بخلاف بقية الأسماء، كالرَّحيم، أو العزيز، أو الحَكِيم، فإنه قد يُوصف بها بعض العباد، أما ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فلا يُسمَّى بهما إلا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾[1] [الإسراء: ١١٠].

هذا التخصيص فيه كثير من الإيحاءات والمعاني: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، التعرُّف إلى الله تعالى برحمته، الطمع في رحمته، الشعور برحمته في كل ما حولنا، انتظار رحمته، وهو يقول: «**أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، فليظُنَّ بي ما شاءَ**»[2]. فلنظن بربنا الرَّحمن الرَّحيم أن يسرع إلينا بالخير، وأن يفيض علينا من جُوده وبركته ورحمته، وأن يعفو عن ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، وأن يصلح أحوالنا، وأن يجمع شملنا، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا.

إن التعرف إليه سبحانه من بوابة الرحمة، فيه معنى جميل، وهو لا ينافي الخوف؛ ولهذا تضمَّنت السورة الكريمة تلك الآية العظيمة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

* ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾﴾:

ها هنا كلمة وآية واسم ومبتدأ وخبر، يمتلأ بها الفم نطقًا، والعقل تألهًا، والرُّوح إشراقًا، والقلب إخباتًا.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: الرحمة صفته، وفعله، وشأنه، وخلقه، وشرعه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، وبرحمته يتراحم العباد والدَّواب والبهائم والطير والوحش والجن والإنس.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: الذي خلق مائة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، تشمل كل مظاهر اللُّطف والفضل والعطف، وادَّخر منها تسعًا وتسعين ليوم الحساب، ولم

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٣٣)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: «**فليَظُنَّ بي ما شاءَ**».

يرد هذا الوصف والتعداد لشيء آخر من صفاته، فجدير بقارئ القرآن أن يقف طويلًا عند تخصيص هذه السورة وهذا الاسم؛ ليدرك طرفًا من أهميته ومركزيته في معرفة الله والتقرب إليه والدعوة إلى دينه وفتح الأبواب لخلقه.

استفتاح بديع يمكِّن القارئ من إفراد الآية الأولى بنَفَس خاص، ومد الميم، والوقوف على النون؛ لتكون الكلمة مستغنية بذاتها عن كل إضافة، وليأتي بعدها إسناد المجد والحمد والفضل لصاحب الاسم الشريف العظيم المحمود الممدوح.

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾:

وهذا أول ما نعت به نفسه، وهو يربط القرآن بالرحمة، فهو رحمة وشفاء للعقول والقلوب والأبدان، للأفراد والجماعات والأمم، رحمة عامة وخاصة، عاجلة وآجلة، ظاهرة وباطنة، فمَن أقبل عليه ظفر، ومَن أعرض عنه حُرم.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أعطى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته القدرات والعقول والمواهب والمَلَكات اللُّغوية والعقلية على الفهم والتفكير والنطق.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أنزل الوحي على رسله وأنبيائه عليهم السلام، وختمهم بمحمد ﷺ، وأيَّدهم بالكتب، وختمها بكتابه العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، فهو تأسيس وتفريع، وتأكيد للنبوة عامة، ونبوة محمد ﷺ خاصة، وامتنان وفضل.

يدخل فيه معرفة الحروف والألفاظ والتجويد، ومعرفة المعاني والدلالات والأسرار بما يتفاوت الناس فيه تفاوت ما بين السماء والأرض.

ويدخل فيه تيسيره للذكر والتلاوة والفهم والعمل والدعوة، وهو خبر ووعد بأن يظل القرآن حيًّا في نفوس أهله ممن اختارهم الله، فلا يزال فيهم من يعلِّم القرآن ويتعلَّمه ويدعو إليه ويهتدي به، ويهدي إليه، وينشر رحمته في العالمين.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾:

فهو الخالق سبحانه، وهذه من نعمه وآلائه، وهذا الخلق منطلق من الرحمة،

ولذا بدأ بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

خَلْق الإنسان رحمة، وهذا يُحسب للتصور الإسلامي؛ ففي كثير من عقائد الشعوب يتصورن الآلهة الأُسطورية الوثنية تطاردهم وتلاحقهم وتحاربهم وتمنعهم من العلم والمعرفة، في حين يقرِّر القرآن اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أولًا ليخبر عنه بأنه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾، والبيان يشمل الفهم والعقل واللغة؛ لأنه لا قيمة للبيان إذا كان مجرد كلمات وحروف بلا معنى[1].

فمن تعليم البيان: أن يُعطي الإنسان العقل الذي يُفكِّر ويبدع المعاني والتعبير عنها، وأن يزوِّده بمَلَكات الإبداع والتخيل والقياس والنظر والتحليل والتساؤل والاكتشاف.

ومن تعليم البيان: وضع اللغات، وإلهام الإنسان اللغة؛ ليعبِّر بها عما يريد[2].

ولذلك يشعر الأصم بنقص كبير بالقياس إلى القادر على الكلام، فالكلام نعمة إبداعية عظيمة، وسبب للتواصل بين الناس، وأداة للتفاهم والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبه ينعقد البيع والشراء والنكاح وسائر العقود والمواثيق، حتى الحرب أولها كلام.

وكما أن السورة أُسِّست بذكر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وثنَّت بتعليمه القرآن، فقد أُسِّست مرة أخرى بخَلْق الإنسان، وثنَّت بتعليمه البيان؛ ليكون دليلًا على أن البيان وما يتعلق به من العقل والإنسانية والفهم هو أعظم نعمة وجودية، ولا تتم هذه النعمة إلا بتعلم القرآن وتدبره واتِّباعه.

* ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾:

السورة سورة الآلاء والنِّعَم، ولذلك بدأت بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان؛ إشارة إلى أن الإنسان خُلق لعبادة الله، وانتقل إلى الحديث عن نِعَم في الكون،

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٥٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٣)، و«اللباب» (١٨/ ٢٩٤)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٥).

وبدأ بهذه الأجرام الضخمة التي يراها الناس ويحسون أثرها.

وقوله: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ أي: بحساب[1]؛ فإن للشمس في طلوعها وغروبها حسابًا، وللقمر حسابًا يعرفه المختصون، ويعرفه الذين يحتاجون إلى ذلك، فهو بحساب لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

وفي الآية إشارة إلى الكون المضبوط بنواميس دقيقة يدركها الإنسان بعقله وتجربته، والقرآن هو الهادي والحادي والمحفِّز إلى النظر والتفكير والتأمل والكشف.

* ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾:

النجم هي: النجوم المعروفة[2]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١]، **والشجر** معروف، أخبر عنهما بأنهما ﴿يَسۡجُدَانِ﴾، وهذا فيه معنى السجود لله؛ لأنها تطيع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكلها تسجد لله، والكون يسبِّح له، فليكن الإنسان منسجمًا مع هذا الكون في عبوديته وسجوده، ولا يشذ فيعصي ويخالف.

ويجوز أن يكون المقصود بالنجم هنا: النبات الصغير الملتصق بالأرض، **والشجر هو**: الشجر الذي له ساق[3].

ولك أن تتخيَّل هذا الشجر وذلك النبت والزرع يؤدِّي واجب الشكر والسجود للخالق المُنعم جلَّ وعزَّ، أليس خَلِيقًا بالإنسان الذي أُوتي مشاعر وعقلًا أن يكون كذلك؟!

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٩)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢١٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٣)، والمصادر السابقة.

وفي الآية تناسب مع خلق الإنسان وتعليمه البيان؛ لأن البيان ومتعلِّقاته يدل على العقل والتفكير والاختيار الممنوح للإنسان، والذي بمقتضاه حصل التكليف وترتَّب الإيمان والكفر، فناسب أن يذكر المخلوقات الأخرى الشريكة له في الوجود والخلق، والمنفردة بالتسخير، حيث تطع الله وتمضي وفق ناموسه ساجدة لا تتردَّد.. أفيجدر بالإنسان المميِّز المكلَّف أن يكون أقل مرتبة منها؟!

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾:

وهنا تناسب بين رفع السماء والناس يرونها، وبين وضع الميزان.

والميزان يجوز أن يكون هو الآلة التي يزن الناس بها الأشياء(١).

ويجوز أن يكون المقصود بالميزان العدل نفسه(٢)، وهو الأولى؛ لأن الميزان ليس سوى آلة العدل.

ولك أن تفكِّر: ما سر المزاوجة بين السماء والميزان؟ لتدرك أن السماء رُفعت بالحقِّ والعدل أيضًا، فبالعدل قامت السماوات والأرض، فالسياق إذًا حديث عن عدالة الله الكونية القدرية، وعن عدالة الإنسان التي ائتُمن عليها وكُلِّف بها.

إن وضع «الميزان» في الأرض مقابل «رفع السماء»، وأن عدالة الأرض دنيوية عابرة يعتريها ظلم الإنسان وجَوْره وأنانيته، ويقابلها الآخرة والميزان القِسْط: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾:

فأمرهم أن يَعْدِلوا، فلا يزيدوا ولا ينقصوا، فقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ يعني: بالزيادة، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ بالنقص؛ ولهذا قال سبحانه ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣]، **أمرهم بالعدل الذي يكون في كل شيء:**

العدل في المشاعر، فلا يبالغ المرء في الحب، فيعميه ذلك عن العيوب والأخطاء، ولا يبالغ في البغض مبالغة تعميه عن الحسنات والفضائل، وإنما «أَحْبِبْ حبيبَك هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون بَغِيْضَكَ يومًا ما، وأَبْغِض بَغِيْضَكَ هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون حَبِيْبَكَ يومًا ما»، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويُروى مرفوعًا، والموقوف أصح[1].

والعدل في الحكم على العدو؛ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، والحكم على الصديق، فلا يحابيه ولا يجامله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

العدل مع النفس ومع الآخرين، العدل في القول والفعل، العدل في الأخذ والترك، العدل في العطاء والمنع، العدل في الأخلاق والموازين والمواقف، ولذا قيل: إن العدل مطلوب في كل حال، وفي كل وقت، ولكل أحد، فلا يوجد حالة يتخلَّف فيها العدل، حتى الحرب والعداوة والبغضاء..

ومن دلالة الميزان ومعناه: التوازن في إعطاء الأشياء قدرها، فقد ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وأكثر ما يواجه الناس عدم القدرة على معرفة «فقه المقادير»، دون مبالغة وإسراف، فثَمَّ مَن يتَّجه للعلم، فيهمل العبادة، أو يتَّجه للعبادة، فيهمل الدنيا، أو يهتم بأولاده وأسرته وزوجته، فيهمل عمله، أو يهتم بعمله على حساب صحته، أو يهتم بالصحة على حساب العمل والإنجاز، أو

---

(١) أخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٣٥٨٧٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٤٨٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٦٨).

وأخرجه مرفوعًا: الترمذي (١٩٩٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٣٩٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٣٩). وينظر: «علل الدارقطني» (٨/ ١١٠)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٢٤٨).

يهمل جانبًا ما كالسياسة، أو ينغمس فيها دون حساب، أو يختلط بالناس فيكثر، أو يباعدهم فينعزل.

والقدرة على الانضباط والتوازن بين المتقابلات لا تتأتى بين يوم وليلة، بل هي محاولة دائمة متراكمة يصل بها المرء إلى مقاربة العدل والوسط الخيار، كما في حديث: «سدِّدوا، وقاربوا، واغْدُوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلْجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»[1].

وهذا جزء من معاني قوله سبحانه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي نقوله في كل ركعة، وعلى مدى الحياة، فأنت على صراط مستقيم، لكن هناك ما هو أكثر دقة وأكثر استقامة مما أنت فيه، وقد يبدو للإنسان أنه منضبط متوازن، وقد أَعْطَى كلَّ شيء حقَّه، فأعطى العلم حقَّه، والعبادة حقَّها، والدنيا حقَّها، والآخرة حقَّها، والوالدين حقَّهما، والزوجة حقَّها، والعمل حقَّه، وقد يكون ذلك صحيحًا، ولكن بعد تجارب يكتشف أن ثمة مستوى من الميزان والانضباط والتوازن أفضل وأحسن مما هو فيه، وهذا يجعل المؤمن مستغرقًا في تطوير ذاته وتحسين أدائه حتى آخر لحظة: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

* ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾:

لا يوجد في القرآن الكريم لفظ: «الأنام» إلا في هذا الموضع، وكثير من علماء اللغة لم يذكروا كلمة «الأنام».

وقد اختلفوا في المقصود بها: فقيل: الأحياء، ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2].

وأجود منه- وهو مروي عن ابن عباس أيضًا وغيره-: أنهم البشر، وسياق الآية يرجِّحه؛ لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نحوه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤١).

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1] [البقرة: ٢٩].

وهذا يشبه دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فقال له ربه سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، فمتاع الحياة الدنيا لا يختص به المسلم دون غيره، والأرض لله تعالى ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ للبشر كلهم.

إنها دعوة إلى التعايش بين البشر، وألَّا يتزاحموا، بل يتراحموا، فالأرض تتَّسع لهم جميعًا، أحياءً وأمواتًا، ولهم فيها معايش ومنافع، وقد سلك الله لهم فيها سُبُلًا وطرائق في الضرب والانتفاع.

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾:

وضع تعالى الأرض وأودع فيها ما يكفل للناس غذاءهم ومصالحهم.

والفاكهة مفرد، يعني: الفواكه، وهي: الثمار النباتية التي تُؤكل عادة دون طبخ، كالتفاح والبرتقال، وإنما ذكرها تعالى هنا على سبيل أن ما فوقها مما تقوم به الحياة موجود؛ لأنها تُؤكل تفكُّهًا وتلذُّذًا، فوجود الضروري أولى، وفي الفواكه منافع صحية جمة مما امتن تعالى به علينا، ولذلك ذكر وجوده في الجنة.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾: **النخل** من الفاكهة، بل هي سيدة الفواكه، ووصفها بـ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ إشارة إلى الجانب الجمالي فيها، وهي الأوعية التي يكون فيها الطلع، ومفردها: كِم، بكسر الكاف، والجمع: أكمام[2].

يُروى أن قيصرَ ملكَ الرُّوم كتبَ إلى عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رُسُلي أتتني من قِبَلك، فزعمتْ أن قِبَلَكم شجرةً ليست بخَلِيقة لشيء من الخير، يخرجُ مثلُ آذان الحمير،

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٣٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٢٦)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٢٠).

ثم تَشَقَّقُ عن مثل اللُّؤلؤ، ثم يخضرُّ فيكونُ مثلَ الزُّمُرُّد الأخضر، ثم يحمرُّ فيكونُ كالياقوت الأحمر، ثم ينضجُ فيكونُ كأطيب فالُوذَج يُؤكلُ، ثم تَشَقَّقُ فتيبسُ فتكونُ عصمةً للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن تكن رُسلي صدقتني، فلا أرى هذه الشجرةَ إلَّا من شجر الجنة.

فكتبَ إليه عمرُ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «من عَبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين إلى قيصرَ ملك الرُّوم: إن رُسلكَ قد صَدَقَتْكَ؛ هذه الشجرةُ عندنا التي أنبتها اللهُ عَزَّوَجَلَّ على مريمَ عَلَيْهَاالسَّلَامُ حتى نَفَسَتْ بعيسى ابنها، فاتَّقِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا تتَّخذ عيسى إلَهًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فـ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]»[(١)].

وذكر ﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾ هو إشارة أيضًا إلى الجانب المنفعي الجوهري في النخل، حيث هي الثمرة التي تطلع كل سنة مرة، فتكون قوتًا للناس سنتهم كلها.

* ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَٱلْحَبُّ﴾: كثير الأصناف، كالرُّز والشَّعير والحِنطة وغيرها مما يُدَّخر ويقوم عليه غذاءُ الناس، عبر العصور وعبر القارات.

و﴿ٱلْعَصْفِ﴾: الأعواد التي تُكوِّن أشجار الحبوب، وكذلك الورق الذي ييبس، ثم يكون طعامًا للحيوانات أو تبنًا[(٢)]، فهذا ملمح جميل أن يذكِّرنا تعالى بالحَبِّ الذي نأكله والعصف الذي يكون طعامًا لأنعامنا، كقوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢].

والمتاع المادي ليس خاصًّا بالإنسان، بل يشاركه فيه الحيوان، فخَلِيق بالعاقل

---

(١) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (١٨٢) عن الشعبي. وينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (١٠/ ٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠- ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢)، وما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة عبس».

أن يبحث عما يميِّزه من العقل والعلم، والعبودية لله سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ معطوف على «الحَب» عند الجمهور، فيكون معناه مستقلًّا، وأنه من ضمن ما امتن الله به على البشر مما خلقه في الأرض.

وفي قراءة سبعية يُقرأ مجرورًا، معطوفًا على ﴿ٱلْعَصْفِ﴾: ﴿وَٱلرَّيْحَانِ﴾[1]، فيكون تقدير الكلام: والحبُّ ذو العَصْف وذو الرَّيْحانِ[2].

والرَّيحان معروف، وهو الورد ذو الرائحة الطيبة[3]، ولذلك سمي الرَّيْحان، وهو أنواع، منه: الأصفر والأبيض والأحمر، يمتن تعالى على الناس بهذا الشجر الذي لا يُؤكل، ولكن يبعث الرائحة الطيبة الزَّكية، فالجمال والمتعة بالمنظر أو المسمع أو الرائحة الطيبة مقصد إلهي في الكون، ولهذا أمرنا تعالى أن ننظر في الكون ونتملَّى ما بثه فيه من جمال في نجومه وكواكبه وشمسه وقمره وأشجاره وجباله...، فالحسن مقصد إلهي في الخلق وتربية الناس على ملاحظته وإدراكه والاستمتاع به سواء كان مُشْتَمًّا كما في الريحان أو كان مسموعًا أو مرئيًّا فإن ذلك من كمال شكر الإنسان لنعمة الله، وهو استجابة لغريزة فطرية تتطلب الإشباع والجور عليها تأهيل لتدمير الإنسان والحياة.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾:

هذه الكلمة العظيمة تكرَّرت في «سورة الرحمن» إحدى وثلاثين مرة بعد كل نعمة لله تعالى.

وقد ورد أن رسولَ الله ﷺ خرج على أصحابه، فقرأ عليهم «سورةَ الرحمنِ»

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٨- ١٨٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦١٩)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٤٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٣٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٤٥)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٢).

من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردُودًا منكم، كنتُ كُلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نعمكَ ربَّنا نكذِّبُ فلك الحمدُ»[(١)].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لمثنى، والجمهور على أنه للإنس والجن[(٢)]، وقلَّما ما يخاطب تعالى الجن مع الإنس، والأكثر في الخطاب أن يأتي الجن تبعًا، وفي هذه السورة كان لهم خطاب خاص مباشر، ولعلَّ الله أراد التذكير بأنهم من سائر عباد الله المأمورين بعبادته وطاعته سبحانه، فكيف تظنون أنهم شركاء لله في ألوهيته، وهم عبيد مخاطبون مربوبون، وليس لهم من الأمر شيء، ولذلك كانوا مشمولين بالخطاب، بأي آلاء الله تعالى ونعمه تكذبون يا معشر الجن والإنس؟

وقال بعضهم: إن الخطاب للرجال والنساء، أو للمكذِّبين والمؤمنين[(٣)]، والصحيح قول الجمهور: أن الخطاب للجن والإنس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٤، ٤١٠٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتكلموا فيه من أجل: زُهير بن محمد المَرْوَزي، قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زُهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يُروى عنه بالعراق، كأنه رجل آخر قلبوا اسمه. يعني: لما يروون عنه من المناكير.

وسمعتُ محمدَ بنَ إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زُهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة».

وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٣٥): «فيه نظر». وقال ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٧٩): «وهذه الأحاديث لزُهير بن محمد فيها بعض النُّكْرة». وذكره الذهبي في «الميزان» (٢/ ٨٥) من منكرات زُهير، وأورده في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٠١) وقال: «زُهير ضعيف». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٢٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٣).

* ويؤكِّد هذا أنه ذكر خلق الإنسان والجان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾:

والمقصود بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أصل خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

فإذا قلت: إن الإنسان مخلوق من ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، فذلك باعتبار خلق آدم، وتستطيع أن تقول: إنه مخلوق من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، أو مخلوق من طين، أو مخلوق من تراب، وكل هذه صياغات وردت في القرآن الكريم، ولا اختلاف بينها[2]، وهي مراحل تكوينية مر فيها ذلك التمثال المسجَّى على الأرض، حتى استوى لحمًا ودمًا وعظمًا، ونُفخت فيه الروح[3].

والصَّلْصال هو الطين اليابس الذي يكون له صوت وصلصلة[4]، فيُسمَّى: طينًا، ويُسمَّى: صَلْصالًا، ويُسمَّى: ترابًا.

وقوله: ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾: الفخار هو الطين المطبوخ، والذي يُسمَّى: الخزف، فهذا الطين الذي خُلق منه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يابسًا، وكأنه مطبوخ يشبه الفخَّار، وكأن خلق الإنسان من الطين تأهيل لعمارة الأرض وبنائها، وتربية على التواضع ومباعدة العنصرية، فكلهم بنو الأرض يطؤونها بأقدامهم، فكيف يتعالَى بعضهم على بعض، وهو تدريب على الترقِّي في معارج الكمال كما ترقَّى الإنسان في الخلق الأول؛ من تراب، إلى طين، إلى صَلْصال، إلى حَمأ مسنون، إلى جسد وروح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٨)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٠- ١٦١).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٥).

والمارج هو: اللَّهب الصافي الذي ينقطع من النار في نهايتها وأعلاها[1]، فهو مخلوق من النار، ومن مارجها على وجه التخصيص، ولذا فهو لا ينتسب إلى جنس هذه الأرض، كما أن من صفة النار الطيش والعجلة.

* ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾:

أي: مشرق الشتاء والصيف ومغرب الشتاء والصيف[2]، وهو رب ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، فإن للشمس كل يوم مشرقًا ومغربًا يختلف عما قبله باعتبار اختلاف المطالع، ويعرف هذا المتخصِّصون، وفي ذلك إشارة إلى الحسبان الذي للشمس، وإلى تعدد المطالع، وإلى الامتنان على الناس في خلق هذه الأجرام التي من الممكن أن تكون سببًا في العذاب عليهم، فالشمس كتلة من اللَّهب، ويوم القيامة تدنو من الناس حتى يلجمهم العرق إِلْجامًا[3]، ولكن الله تعالى سخرَّها لخلقه بحيث ينتفع الناس والحيوان والنبات بها دون ضير.

* ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أرسل البحرين[4]، والمقصود: البحار المتصل بعضها ببعض، وهذا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢١٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٢).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٧).

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ». قال سُليمُ بنُ عامر- راوي الحديث عن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فوالله ما أدري ما يعني بالمِيل، أمسافة الأرض، أم المِيل الذي تُكْتَحل به العينُ؟- قال: «فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إِلْجامًا». وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فِيهِ، وينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ [الحديد:١٢].

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٨).

المعنى اختاره بعض المفسرين(١).

والأصوب أن المقصود: البحر المالح والبحر العذب(٢)، أي: البحر والنهر، فالله تعالى يرسل الأنهار إلى البحار لتصب فيها، كنهر النيل ودِجْلة والفُرات، ومع ذلك فبينهما برزخ إلهي بسنة التمايز يحول دون امتزاجهما، فلا البحر المالح يتحوَّل إلى عذب، ولا العذب يتحوَّل إلى مالح، وكلٌّ له خصائصه التي لا تمتزج بخصائص الآخر.

ويحتمل أن يشمل المعنى البحار المالحة التي تلتقي مع اختلافها، مثل التقاء المحيطات بالبحار العظيمة، ففي أماكن الالتقاء يوجد حدٌّ يكون به نهاية البحر وبداية المحيط، فلا يبغى أحدهما على الآخر، فهذا من حكمته سبحانه، لا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلك الحمد!

* ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾:

يخرج من البحرين معًا أو من أحدهما، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرُّسل إنما يأتون من الإنس، فعليه يكون المعنى أن اللُّؤلُؤ والمَرْجان يخرجان من البحر المالح فحسب.

وقيل: إنهما يخرجان من البحر الحلو أيضًا، وقال بعضهم: إن الصَّدَف الذي يكون فيه اللُّؤلُؤ يتكون من المطر وهو من الماء العذب.

والأولى حمل الآية على ظاهرها، ويؤيِّده: قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فهذا نص على أن الحلية تخرج من كلا البحرين، وفي بعض الأنهار تُوجد اللآلئ، وكذلك الألماس والياقوت يوجدان في الرواسب النهرية، وقد تحدَّث عدد من المختصين عن وجود اللُّؤلُؤ وغيره من

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٦٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٤٨).

المعادن الكريمة في البحار والأنهار، وهذا هو الأقرب للصواب والأكثر تماشيًا مع وضوح النص القرآني المحكم، والله أعلم.

* ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿الْجَوَارِ﴾ جمع: جارية، وهي السفن ﴿الْمُنشَآتُ﴾[1]، وفي قراءة سبعية: ﴿الْمُنشِئَاتُ﴾[2]، أي: أنشأت السير في عرض البحر.

والأعلام هي: الجبال الشواهق، يشاهدها الناس من بعيد[3].

ويرتسم لخيال القارئ صورة السفن كالشاخصة أمام ناظريه تمخر عُباب البحر، ولكنها تشبه الجبل الرَّاسي الثابت بعظمتها وشموخها!

* ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾: وهذه من الآيات التي تجري على ألسنة الناس كثيرًا، والحق الذي ليس فيه امتراء أن مصير المخلوقات إلى فناء وموت، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، يبقى الله تعالى الحيُّ القيوم الذي لا يموت؛ لأن وجوده قائم بذاته، بخلاف البشر فوجودهم فضل من ربهم الذي خلق الإنسان.

وفي قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الإنسان بقدر قُربه من الله وعمله الذي يريد به وجه الله يتحقَّق له النعيم والخلود، فالذي يريد الخلود في الدنيا بحيث تصبح الدقيقة عمرًا طويلًا بالأُنس والسعادة والرِّضا والإنجاز، أو يريد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٣)، و«التحرير التنوير» (٢٧/ ٣٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦١٩- ٦٢٠)، و«حجة القراءات» (٦٩١- ٦٩٢)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٣)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٢).

الخلود في الآخرة برضوان الله تعالى والجنة، عليه أن يُكثر من الأعمال التي يريد بها وجه الله تعالى، ولا يحتقر شيئًا من العمل ولو كان صغيرًا؛ فإن النية تُزكِّي الأشياء، وكان معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لأحتسبُ في نومتي، كما أحتسبُ في قومتي»[1]. والنبيُّ ﷺ يقول: «في كُلِّ كبد رَطْبَةٍ أجرٌ»[2].

ومعنى الآية: أن ما سوى الله تعالى فهو عرضة للفناء؛ لأن وجوده ليس قائمًا بذاته، بل بإيجاد الله له، وهو زائل في الدنيا، ولا خلود إلَّا لَمن كتب الله لهم الخلود في الدار الآخرة، وليس المعنى إطلاق الفناء التام على كل شيء كما زعمه طائفة من الجاهلين، والذين بَنَوْا عليه القول الفاسد بفناء الجنة والنار[3].

و﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ أي: ذو العظمة[4]، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: الذي يُكرم مَن يشاء من عباده[5]، لذلك ناسب أن يُعقِّب بقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، الفاني يسأل الحي الباقي الذي لا يموت ﴿يَسْأَلُهُ﴾ يا لعظمة الدعاء! حينما يعجز الإنسان عن شيء يلجأ إلى الحي القيوم القدير الذي لا يعجزه شيء، فلا يعتمد على قوته وقدرته بل على قوة الله تعالى الذي لا يغلب ولا يعجز ولا يمل ولا يتبرَّم بكثرة السؤال.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة النبأ»: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٥١)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٥٠).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٦٣).

(٦) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٩٣)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ١٠٣)، و«الفوائد» لابن القيم (ص٩٧).

وحقيقة فناء الخلق وبقاء الرب الجليل الكريم يمكن أن تمر ببعضهم عابرة لا تهز الضمير ولا تغيِّر السلوك كما يقع للأغلب، ويمكن أن تتحوَّل إلى معرفة قلبية راسخة مؤثِّرة مسيطرة، بحيث تحدِّد مسارات الإنسان وأولوياته، وتحكم سلوكه وتصرفه في الدقيق والجليل، ولعلها أهم حقيقة كفيلة بتغيير وجهة الإنسان متى صدَّق بها وآمن ولامست شِغاف قلبه وأعماق وجدانه.

* ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾:

أما مَن في السماوات: فتشمل الملائكة شمولًا أوليًّا، وقد علَّمنا الله تعالى أن سؤالهم في الغالب يتعلَّق بمَن في الأرض: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فهم يسألونه تعالى لأهل الأرض، وتشمل غيرهم ممن يعلمهم الله ولا نعلمهم، ليبقى النص واسعًا، ويبقى الذهن متحفِّزًا مفتوحًا على كل ما يدخل في النص الإلهي بلا تكلف.

أما من في الأرض: فكل الناس يسألونه، حتى الكافر: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ..﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فيعطيهم تعالى ما شاء مما يطلبون، ويمهلهم، ويُنْظِرهم.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾: وهذه آية عظيمة تفتح العقل والنظر على التحولات الفردية والجماعية والأممية، فلا يخلد المرء إلى حال هو يملها ولا ييأس من تغيرات الأحداث فيما يطمع أن يتغيَّر.

وليس المقصود «اليوم» الذي نعرفه، والذي هو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما المقصود مطلق الزمن، يعني: كل لحظة، وكل ومضة، وكل وقت[١] ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ سبحانه، وهو شأن يُبْدِيه وليس شيئًا يبتديه، بمعنى أنه معلوم عنده، ولكنه يبديه للبشر، فهذا الشأن الذي ذكره الله تعالى هو تحولات الأحوال

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٤٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٠٦).

من الغنى والفقر والقوة، والضعف والصحة والمرض، والوَحدة والكثرة، والحياة والموت، والرفعة والضعة، والعلم والجهل، والسفر والإقامة، والإيمان والكفر، وغير ذلك مما يحدث في هذا الكون من التنوع والتغيُّر والتجدُّد المستمر بإذن ربي سبحانه، وفيه تحفيز للإنسان أن يسأله سبحانه، وألَّا يكون أسيرًا لحالة يعاني منها من هم أو غم أو مرضٍ أو فقر أو سجن أو حرمان.. فهو يُذكِّرك بأن الله تعالى يُسأل وكل الناس يسألونه، فلا تيأس، ولا يكون سؤالك سؤال العاجز.

* تأتي بعد ذلك آية مُزَلزِلة مُجَلجِلة مُخيفة منطوية على وعيد لا نظير له ولا عهد لقارئ الكتاب العظيم بمثله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾:

هذا ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ الخالق المُعلِّم المُلهم الذي خلق السماء والأرض والمشرقين والمغربين، يتوعَّد الثقلين، وهما الجن والإنس، المخاطبان بسياق الآيات، وهو تعالى لا يلهيه شأن عن شأن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، ولكن هذا لفظ جارٍ على مقتضى لغة العرب، والعربي يفهم من هذا المعنى التهديد، وكأن المقصود أن الدنيا قد انقضت، وأسدل على حوادثها الستار، ونحن الآن في الآخرة حيث الجزاء والحساب(١).

والآية دليل على أن الجن محاسبون مجزيون كالإنس.

* ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾:

الخطاب للثقلين، وكأنهم الآن في عَرَصات القيامة قد جمعهم تعالى وبعثهم لحسابهم، يخاطبهم متحدِّيًا: إن استطعتم أن تجاوزوا نواحي السماوات والأرض

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٧).

فافعلوا[١]، وهذا على سبيل التعجيز.

والأقطار جمع: قُطْر، وهو الناحية العظيمة[٢]، ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا يمكن أن تنفذوا إلا بقوة، وهذا متعذِّر، فالله تعالى قد فرغ لكم، والموقِف موقِف حساب.

* والسياق يدل على أنها تُقال يوم القيامة، ولهذا قال سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾:

فلو همَّ أحد منكم أن يهرب لأرسل الله تعالى عليه شُواظًا من نار ونحاسًا.

ويمكن أن يكون المعنى: أنه تعالى يعاجل الكافرين يوم القيامة قبل أن يدخلوا النار بذلك حتى من دون أن يحاولوا الهرب، فيُرسل عليهم شُواظًا من نار، والشُّواظ هو: اللَّهب الخالص، أما النُّحاس فهو: الدُّخان، وهو يُسمَّى: نُحاسًا في اللغة، كما قال النابغة[٣]:

يُضِيءُ كضَوْءِ سراج السَّلِيطِ ... لـم يـجـعـلِ اللهُ فـيـه نُـحـاسًـا

فيرسل الله تعالى عليكم شواظًا من نار ودخانًا، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠- ٣١]. فكأنه يرسل عليهم نارًا فيهربون منها إلى ظل الدُّخان، فيجدونه هو الآخر عذابًا لا ظل فيه ولا غَناء[٤].

ويجوز أن يكون المقصود بالنُّحاس: المعدن المُذاب[٥]، يُعذَّب به الكافرون

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٦)، و«الكشاف» (٤/ ٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٦) «ق ط ر»، و«لسان العرب» (٥/ ١٠٦) «ق ط ر»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٥٩).

(٣) ينظر: «ديوان النابغة الجعدي» (ص١٠٠).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٠).

في العَرَصات قبل أن يصيروا إلى نار جهنم.

* ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾:

هذه السماء التي رفعها، وامتن بها عليكم، وجعلها مصدر خير وبركة وجمال يتغيَّر حالها حتى تبدو ﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾، وأقرب ما يكون المعنى: أن السماء تصبح مثل الوردة التي نعلم شكلها وهيئتها وطبقاتها وألوانها[1].

وهو إشارة إلى بقاء قدر من الجمال فيها، ولكن مع وهن وضعف وتشقق، قال مجاهد: «كألوان الدِّهان». وقال عطاء: «كلون دُهْن الورد في الصُّفرة».

والوردة معناها: حمراء، كما قال زُهير يصف فرسه[2]:

وصاحبي وردة نَهْد مَرَاكلها[3] جرداء لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ[4]

فالوردة هي حمراء اللون.

* ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾:

الموقف الآن لا سؤال فيه، ويوم القيامة يوم عظيم طويل: ﴿كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤]، يجري فيه أحداث متخالفة؛ فمرة هم يُسألون: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ومرة لا يُسألون: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يُسألون سؤال استبصار، سؤال الذي يريد أن يعرف[5]، فالملائكة قد دوَّنت عليهم، وأوثقتهم، ولذلك ينكرون ويكذِّبون

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص٧٩).

(٣) المراكل جمع: مَرْكل، وهو موضع رِجل الفارس.

(٤) أي: متباعد ما بين اليدين والرجلين.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٢)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٧٢)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٦٦- ٣٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٢).

ويجحدون، فـ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فالسؤال ليس سؤال تثبيت للمعلومة، وإنما هو سؤال إقرار، وإقامة الحجة عليهم من أنفسهم.

* ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾:

فلا يحتاج إلى سؤال، بل الملائكة تعرف المجرمين بسيماهم وعلامتهم، فتأخذهم بنواصيهم وأقدامهم.

والنواصي: مقدِّمات الرؤوس[1]، فالملائكة يأخذون الكافر بالناصية من أعلى رأسه ومن أسفل قدميه ويصبح مُحْدَوْدَب الظهر في قبضة الملائكة، فليس له مخلص أبدًا، فكيف لمثل هذا أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض؟ كيف سيتحدى الله سبحانه؟

* ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أشار إليها كأنها جسم مرئي مشهود يراه الناس ويسمعونه ويحسونه، ومثل هذا يتكرر كثيرًا في القرآن، سواء فيما يتعلق بوعد الآخرة أو بقصص الأنبياء أو غيرهما، وفيه تنشيط للخيال وتنمية لمَلَكة التصور والتصوير، وبهذه المَلَكة يتحوَّل العلم النظري إلى ما يشبه رأي العين، ويحدث التأثير في القلب، وتتحوَّل المعرفة إلى يقين وإيمان.

* ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾:

والطواف هو: التردد والدوران[2]، فهم يتردَّدون بين جهنم ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]، وإذا ضاقوا منها طلبوا الماء كما يفعل

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ٣٢٧)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٠٩) «ن ص ى»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٣/ ٤٣٢) «ط و ف»، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣).

العطشان، فيُذهب بهم إلى ماء حميم شديد الحرارة[1]، و﴿ءَانٍ﴾ أي: بالغٌ في الحرارة مبلغًا عظيمًا[2]، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فهذا هو الماء الذي يُغاثون به، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، فما موقفك أنت أيها المؤمن بيوم القيامة من هذا الوعيد؟ هذا دعوة للناس إلى تجديد إيمانهم.

وجاء بجملة معترضة من حيث المعنى تشير إلى تكذيب المجرمين بها، فهم يكذِّبون بحقيقة مرئية مشهودة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ هي أمامكم ترونها وتقاسون حرَّها، أو تطوفون بينها وبين نوع آخر من العذاب، وهذا التكذيب هو الذي جعلهم مجرمين، حيث لم يقيموا وزنًا لموعد لقائه ولا لوعده ووعيده.

* و﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه لا يهلك عليه إلا هالك، ولا يدخل أحدٌ النارَ إلا وقد أعذر من نفسه، ولهذا قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ولأن السورة «سورة الرحمن»، فقد ساق الوعيد بآية واحدة، بينما فصَّل الوعد في بقية السورة في أزيد من ثلاثين آية.

والمقصود بالجنتين مفسَّر في قوله ﷺ: «جنَّتان من فضة، آنِيَتُهما وما فيهما، وجنَّتان من ذهبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلَّا رداءُ الكِبْر على وجهه في جنَّةِ عَدْن»[3]. فالجنان أربع، هؤلاء جنتان، ومن دونهما جنتان؛ الجنتان الأوليان من ذهب أنياتهما وما فيهما، والجنتان الأخريان من فضة آنيتهما وما فيهما، هذه للسابقين وتلك لأصحاب اليمين.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٣٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٣- ٢٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٩)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾:

والأفنان هي: الغصون المخضرَّة[1]، فشجر الجنة كثير الأغصان، كثير الورق، كثير الثمر.

* ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾:

والعيون هنا تجري بقوة، فيكون للواحد منهم بيت وقصر وجنة عن يمينه، وجنة عن شماله، وعين في تلك الجنة، وعين في تلك الجنة، كما ثبت عن النبي ﷺ: «ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[2]. و«إن أهلَ الجنة لَيَتَراءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما تَتَراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ من الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضُل ما بينهم». قالوا: يا رسولَ الله، تلكَ منازلُ الأنبياء، لا يبلُغُها غيرُهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ»[3].

* ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾:

فكل الفواكه موجودة، والفاكهة الواحدة فيها زوجان، والمعنى: تنوع الفاكهة ذاتها، ويمكن أن تكون فاكهة يابسة وفاكهة رطبة، أو كبيرة وصغيرة، أو مختلفة في لونها، أو في طعمها، أو في جميع ذلك[4].

* ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾:

والاتِّكاء علامة التنعم والراحة والاسترخاء والمُلْك، والإستبرق- بالهمزة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٦).

المقطوعة- هو أفخر أنواع الحرير[1]، فإذا كان هذا هو حال البطائن، فكيف بظواهرها؟ والإستبرق عادةً ما يُغزل بخيوط الذهب[2].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: ثمرها قريب منهم يتناولونه حيث شاؤوا[3].

* ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: في الجنتين، أو في الفُرش[4]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وهذا يشمل الُحور، ويشمل نساء الدنيا المؤمنات الوفيات الصابرات على حفظ العهود[5].

والمعنى: أنها قصرت طرفها في الدنيا، فهي لا ترى جمالًا غير زوجها، وهو كل عالمها، وفيه دلالة ظاهرة على عفتها، وأنها قصرت طرفها بإرادتها مع قدرتها على ألَّا تفعل ذلك.

ومن المعنى: أن المرأة تُمدح بالكَسَل في عينيها وانكسار العين، وهذا ضرب من الجمال، وهو يشمل الحُور التي خلقهن الله تعالى لمتعة أهل الجنة، ويشمل نساء الدنيا اللاتي أنشأهن الله تعالى: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٨].

والعرب يمدحون المرأة بطرفها الناعس، وهو يوحي بالخضوع والسماح

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ٣٠٧)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٩٦)، و«لسان العرب» (١٠/ ١٥٦)، و«تاج العروس» (٢٥/ ٦٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٩).

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٣٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٠).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣١).

والمطاوعة.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: الطمث هو: الدم[1]، ويُطلق على دم الحيض، ويُطلق على دم البكارة.

والمعنى: لم يعاشرهن قبلهم إنس، بالنسبة لنساء الإنس، ولا جن، بالنسبة لنساء الجنّ[2].

وليس في الآية دليل على أن الإنس ينكحون الجن أو العكس، فهذه أشياء غريبة على لغة القرآن، بعيدة عن دلالاته التي فيها تحريك للقلوب ومخاطبة الأرواح، فمثل هذه المباحث ينبغي ألَّا تُقحم في التفسير، وألَّا يتكلَّف لها الاستدلال، حتى لكأنما نزل القرآن من أجلها، ويصبح شغل القارئ للقرآن هو هذه المسائل المتكلَّفة التي لا جَدْوى من ورائها، ولا قيمة لها تُذكر.

* ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: في جمالهن وصونهن وتنوع ألوانهن[3].

* ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾:

لقد كانوا محسنين في طاعتهم، فأحسن الله تعالى جزاءهم، وكانوا محسنين إلى عباده، فأحسن إليهم، فهم ممن أَعْطَى فأُعْطِي، وأَنْفَق فأَنْفَقَ الله عليه، وجاد فجاد الله له، والله أكرم وأجود، وحتى إحسانهم هو فضل من الله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فمن فضله عليهم أن وفَّقهم للطاعة والعبادة، ثم كافأهم عليها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩١)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«التفسير القيم» (ص٥٠٥)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٤٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٤).

وقوله: ﴿ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ هذا يرجِّح أن هاتين الجنتين فوق الجنتين التاليتين، فهما جنتان من ذهب للمحسنين؛ لأن الإحسان أعلى الدرجات، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بدأ بالإسلام، ثم ارتقى إلى الإيمان، ثم انتهى إلى الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه[1].

* ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾:

إما أن يكون من دونهما في المكان، أو من دونهما في المنزلة لَمن هو متأخِّر عن رتبة الإحسان من أهل الإيمان والخير، وهو قوي[2].

* ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾:

يعني لونهما يميل للسواد، من كثرة الخضرة وجودة الشجرة ورِوائه[3].

* ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾:

في الأولى عينان تجريان، والجريان أقوى من النضخ[4]، فهذه العيون تفيض، ولكن الأولى أقوى منها.

* ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾:

وهذا إشادة بما ذكر تعالى من الفاكهة، ولكن في الجنتين الأوليين وصفهما بأن ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، ففيهما كل الفواكه، ومن الفاكهة الواحدة أزواج، أما هنا فذكر الفاكهة إجمالًا، وخصَّ منها: النَّخل والرُّمَّان[5].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨، ٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ١٩٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٨٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣١)، و«روح البيان» (٩/ ٣١١).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٧).

* ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾:

في الأولى ذكر ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وفي هذه وصفهن بأنهن ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾، كما قيل[(١)]:

قُصِرْنَ على حبِّ أزواجهنـ ـنَ مُشتاقةٌ تَتَلَقَّى مَشُوقَا

ولكن متعلّق القصر في الأولى واضح، وهو الطَّرف والنَّظَر، وفي الثانية لم يذكر، فيحتمل أن يكون عامًّا، مقصورات الطرف والمشي وغير ذلك.

والخيام ليست كخيام الدنيا، ولكنها خيام من لُؤلُؤ، ومن ذهب[(٢)]، بما لا يمكن تصوره، ولكن في حكمة الله أن يُقرِّب لنا هذه المعاني حتى نتشوَّف ونتشوَّق، والشيء الذي في الجنة ليس بالذي يخطر في بالك مطلقًا؛ ولذلك يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»[(٣)]. فكل ما ذكره الله تعالى من فواكه الجنة مما نعرفه في الدنيا، فهي ليست كمثلها في الطعم والحلاوة والجمال، إنما التوافق في الاسم فحسب، وكذلك ما يتعلّق بالمتعة بين الزوجين.. والذي في الجنة شيء آخر مختلف؛ لأنك لا تعرف جنسه، ولم تر مثله ولا شبهه؛ وهذا لا ينافي أن يتخيَّل المرء نفسه مقبلًا على إحدى هذه الخيام الجميلة الفارهة، ثم داخلًا من بوابتها، مذهولًا بجمالها، وجمال أثاثها النادر، وجمال مَن فيها، متعجِّبًا أنها له، وله هو دون سواه.

والخيام معروفة، وهي نمط من المسكن الخاص في البر، أو للمتعة، أو للضيوف، ولهم في الجنة مساكن أخرى وقصور وغرف ودور وما شاء الله مما

---

(١) ينظر: «التبصرة» (١/ ٤٤٢)، و«بساتين الواعظين ورياض السامعين» لابن الجوزي (ص٤٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢). وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

نعلم وما لا نعلم.

* ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾:

والرَّفْرَف هي: البُسُط أو الوسائد[1]، يعني متَّكئين على ألوان مما يُتَّكأ عليه مما يحتاجه الناس في الاتّكاء، وعادةً ما يكون اللون الأخضر أجمل وأكثر من يستعمله الملوك والعظماء.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: والعَبْقَري هو: الشيء النَّفيس الذي يصعب تصوره، والعرب إذا رأوا شيئًا عظيمًا نسبوه إلى وادي عَبْقَر، وهو وادٍ يعتقدون أنه للجن[2]؛ وذكر النبيُّ ﷺ هذا اللَّفظ في قصة الرُّؤيا، قال: «فلم أرَ عَبْقَرِيًّا في الناس يَفْرِي فَرِيَّهُ»[3]. يقصد: عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أي: لم أرَ إنسانًا عظيمًا منجزًا قويًّا[4]، مثل عمله، فأهل الجنة متَّكئون على متَّكآت وبُسط ووسائد حسنة جميلة، لا تخطر على بال.

* ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾:

والبركة هي: الخير الكثير العظيم[5]، تبارك ربك، وتباركت أسماؤه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن أسمائه ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فله الجلال

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٥).

وينظر أيضًا: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (١/ ٨٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٥٣٥)، و«تاج العروس» (١٢/ ٥١٤) «ع ب ق ر».

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «شرح المشكل من أحاديث الصحيحين» (٢/ ٥٠٤)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١٦٢)، و«فتح الباري» (١٢/ ٤١٣).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٨٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٦)، وما سيأتي في أول «سورة الملك».

والعظمة والكبرياء، وهو الذي يفيض الخير والفضل على عباده، ويجازي الإحسان بالإحسان، ويجازي الذنب للنادم بالصفح والغفران؛ لأنه الرحيم الرحمن[١].

○○○

(١) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٥).

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

*** تسمية السورة:**

تُعرف بـ«سورة الواقعة»؛ نظرًا للكلمة ذاتها في الآية الأولى، باعتبار ورودها في الآية الأولى.

وهو في المصاحف، وكتب التفسير[1]، والحديث، وورد في غير ما حديث عن النبي ﷺ، منها الحديث المشهور: قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: «شَيَّبَتْني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[2]. وهو حديث مضطرب، كما ذكر الحافظ ابن الصلاح، وغيره[3].

وكذلك الحديث المروي أن عثمانَ زار عبدَ الله بنَ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مرض موته، وقال له: ألَا ندعو لك الطَّبيبَ؟ قال: الطَّبيبُ أمرضني. قال: هل تُوصي لأهلك وبناتك بشيء؟ قال: إني أوصيتُهم بما سمعتُه من رسول الله ﷺ، أنه «مَن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٤٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٣)، والضياء (١٢/ ٢٠٢) (٢١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٨٢٦، ١٨٩٤)، و«علل الدارقطني» (١/ ١٩٣- ٢١١)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ١١٨)، و«فتح المغيث» (١/ ٢٩٤)، و«تدريب الراوي» (١/ ٣١٢)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» (ص٣٥١- ٣٥٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

قرأ سورةَ الواقعة كلَّ ليلة لم تصبه فاقةٌ»[١].

والحديث على تعدد طرقه، إلا أنه لا يثبت، والصحيح أن الفاقة إنما تُدفع بالأسباب التي خلقها الله تعالى، وأرشد عباده إليها لطلب الرزق، ومن ذلك الضرب في الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وتُدفع بالإحسان والإنفاق؛ فإن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «يا ابنَ آدمَ، أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك»[٢]. و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وأما قراءة القرآن فللعلم والعمل، ورجاء الآخرة، وإصلاح النفس والمجتمع، وليس تواكلًا ليأتي الرزق به دون سعي، فالحديث لا يصح سندًا ولا متنًا.

ومن أمثل ما ورد في الباب ما رواه أحمد عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر بالواقعة ونحوها من السور[٣].

* **عدد آياتها:** تسع وتسعون آية، وهو الموجود في مصاحف المدينة النبوية[٤].

وقيل: سبع وتسعون آية، أو ست وتسعون، على اختلاف علماء العدِّ[٥].

* **وهي مكية** عند جمهور المفسرين، وهو الراجح، واستثنى بعضهم آيات

---

(١) أخرجه القاسم بن سلاَّم في «فضائل القرآن» (ص٢٥٧)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٤٧)، والحارث في «مسنده» (٧٢١ - بغية)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٩٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢٥).
وينظر: «المنتخب من علل الخلال» (٤٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤١١)، و«نتائج الأفكار» (٣/ ٢٦٢- ٢٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٩٩٥)، وابن خزيمة (٥٣١)، وابن حبان (١٨٢٣)، والحاكم (١/ ٢٤٠)، والبيهقي (٣/ ١٦٩).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٣٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١١)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٨)، و«مصاعد النظر» (٣/ ٥٠).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٠)، والمصادر السابقة.

منها، والراجح أن السورة كلها مكيَّة[1].

* ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾:

و﴿إِذَا﴾: ظرفٌ لما يُستقبَل من الزمان[2]، أنه شيء سوف يأتي، وفيه معنى الشرط فـ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ حدث عظيم فيه خفض ورفع، وجزاء وحساب.

و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، مثل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، و﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، و﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾، و﴿ٱلسَّاعَةُ﴾[3].

* والآية إشارة إلى عظم هذا الأمر، فهو شيء له دَوِيٌّ وهزة عنيفة؛ ولهذا قال بعدها مباشرة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي: أن وقوعها حقٌّ، لا ريب فيه ولا تكذيب.

وجاء التعبير بقوله: ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾، ولم يقل: «**لوقوعها**»؛ لأن كلمة «**وقعتها**» أسرع، كأنها وقعة واحدة سريعة مفاجأة.

ويحتمل أيضًا أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس فيها تراجع[4]، وأنها إذا وقعت فإنها لا تُرفع[5]؛ ولهذا قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢١٥)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٧٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٩)، و«الجدول في إعراب القرآن» (٢٧/ ١٠٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٧٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٦).

(٥) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨).

ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٥ - ١٧]، فهي إذا وقعت لا تُرفع ولا تُدفع، وإنما تمضي في أحداثها المرسومة دون تعديل.

والعرب تُسمِّي المعركة الحربية: الوقعة، أو الواقعة، وقد تعلن الحرب أو تبدؤها على سبيل التهديد والزجر والوعيد، بينما يؤكِّد النص هنا أن تلك ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ صادقة حاقة ماحقة ماضية، لا تُقال للتهديد فحسب، بل هي محقَّقة الوقوع، وحين وقوعها تراها العيون والقلوب فتصدِّق ولا تكذِّب.

* ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣﴾:

وهذا من أخص معانيها، قال بعضهم: إنها رفعت الصوت فأسمعت البعيد، وخفضت فأسمعت القريب(١).

ومن معانيها: أنها تخفض أقوامًا، وترفع آخرين.

وهذا جاء عن عمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، فإن الموازين يوم القيامة تتغيَّر؛ فيُؤتى بالرجل السَّمين العظيم، فلا يَزِنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة(٣)، ويُؤتى بالفقير الضعيف المغمور ذي الثياب البالية، لا يُؤْبَه له، فيكون ثقيل الميزان عند الله، وفي أعظم المنازل في الجنة(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٧٥)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١)، والمصادر السابقة.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٥]».

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخُزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «ألَا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف متضعِّف، لو أقسمَ على الله لأَبَرَّه».

ونلحظ أن الوصف جاء مطلقًا، فلم يقل: «إنها خافضة لشيء أو رافعة لشيء»؛ ليكون المعنى شاملًا لكل ما يحتمله الرفع والخفض؛ رفع الأشخاص وخفضهم، ورفع الأعمال وخفضها، ورفع الصوت وخفضه، ورفع الميزان وخفضه، ورفع الحق وخفض الباطل.

* **أما متى حينها؟ فجوابه:** ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾:

والرَّجُّ هو: الحركة الشديدة[1]، وهو تعبير عن الزلزال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

* ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾:

والبَسُّ يحتمل معنيين:

التفتيت[2]، فتصبح ﴿ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وتكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، فليست كما هي الآن بمتانتها وقوتها وتماسكها وصلابتها.

والمعنى الثاني: ﴿وَبُسَّتِ﴾ أي: ﴿سُيِّرَتْ﴾ وسيقت[3]: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، بأمر الله تعالى.

ومنه قول النبي ﷺ عن آخر الزمان: «**فيأتي قومٌ يُبِسُّونَ، فيتحمَّلُونَ بأهليهم ومَن أطاعهم**»[4]. أي: يخرجون بأموالهم وأهليهم وإبلهم من المدينة يسوقونها سَوْقًا[5].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٨)، و«لسان العرب» (٢/ ٢٨٢)، و«تاج العروس» (٥/ ٥٩٤) «ر ج ج».

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٠)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٤).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢٤٥) «ب س».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨) من حديث سفيان بن أبي زُهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «إرشاد الساري» (٣/ ٣٣٥)، و«فيض القدير» (٣/ ٢٦٠).

والبَسُّ عند العرب يحتمل هذا وهذا، فتقول: بسَّ الشيء، إذا فتَّته، وتقول: بسَّ عقاربه على فلان، إذا أرسلها، بمعنى الوقيعة والأذى.

* ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾:

والهباء هو: الشيء التافه الذي لا قيمة له، وهو الغبار(١).

وقال بعضهم: هو الغبار إذا تسلَّطت عليه أشعة الشمس، فأصبح يُرى في الجو متطايرًا(٢).

والمُنبَث: المنتشر، وهذا التغير للظواهر الكونية مقصود من أجل الإنسان الذي هو محل التكليف، فذكره وتكراره خَلِيق أن يوقظ النائم، ويصحِّي السكران، وينبِّه الغافل.

* ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾:

والعادة أن الله تعالى يذكر زوجين ويسمِّيهم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، وهو في معظم آيات القرآن الكريم، وفي هذه السورة قسَّم الناس إلى ثلاثة أزواج أو مجموعات أو طبقات، والخطاب للناس كلهم، للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

والسبب في ذلك أنه هنا قسَّم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ إلى فئتين: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، و﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وأما في «سورة فاطر» قسَّمهم ثلاثة أقسام: ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، و﴿مُّقْتَصِدٌ﴾، و﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وفي «سورة المطففين» ذكر ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾، و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وفي «سورة الإنسان» ذكر قريبًا من ذلك، وهو من باب التنويع والتفصيل والتمييز.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤- ٥١٥)، و«روح البيان» (٩/ ٣١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٤)، و«مقاييس اللغة» (٦/ ٣١ «هـ ب و»)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٨٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٤).

* ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨﴾:

سمَّاهم: «أصحاب الميمنة»، وسمَّاهم: «أصحاب اليمين»، وهم في معظم آيات القرآن الكريم.

سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يكونون عن يمين الرحمن عَزَّوَجَلَّ، أو لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو لأنهم يُذهب بهم ذات اليمين إلى منازلهم في الجنة[1]، وسمُّوا كذلك تفاؤلًا؛ لأن العرب تقول: هذا فلان له يمنٌ وذاك له شؤم، فالذي له يمن أو يمين يكون خيرًا على نفسه وعلى أهله وعلى الناس الذين يلقاهم أو يعاملهم، ولذلك أصبح اليمين محمودًا في الشريعة؛ في الأكل والشرب والقيام والقعود والدخول والخروج واللُّبس وغيرها، وكان النبيُّ ﷺ يعجبُه التيمُّنُ في تنعُّله وترجُّله وطُهوره وفي شأنه كلِّه[2].

والمقصود من السؤال في قوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ التفخيم والتعظيم[3]، وكأنه مبتدأ وخبر، قال «أصحاب الميمنة»، وأخبر عنهم بمثل السؤال: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، فالأمر أعظم وأكبر من أن يُوصف، ويكفي أن يقال عنهم؛ ليدل على تناهي ما هم فيه في الفضل والمكانة والمنزلة والرِّضا والسرور والحُبور وقرَّة العين.

* ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾:

أي: في العذاب والنَّكال والرُّعب والخوف، والمقصود: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، كما في السورة ذاتها، ومواضع أخرى من القرآن الكريم، وسمُّوا: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ لما سبق، ولأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم، ولأنهم كانوا عن شمال آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لما رآه

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٨).

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عند البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥١٧)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص٣٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٩)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٨)

النبيُّ ﷺ، وكان عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يساره أَسْوِدَةٌ، فإذا نظرَ قِبَلَ يمينه ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ شماله بَكَى[1]؛ ولأنهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الذين كتب الله عليهم الهلاك.

* ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾:

بدأ بـ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾، ثم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾، ومر عليهم دون أن يقف السياق عندهم إلا لمجرد التفخيم والتعظيم، ثم ذكر ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في المرحلة الثالثة، وهذا- والله أعلم- من أجل أن يفرغ السياق للكلام عنهم، لأنه لما ذكرهم استوفى الكلام المراد بشأنهم، ثم رجع إلى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، معناه: السابقون إلى الخيرات، السابقون إلى الجنات، هم السابقون إلى العمل، السابقون إلى الفضل، وكأنه أخبر بهم عنهم، وهذا معروف عند العرب، كما يقول قائلهم[2]:

أنا أبو النَّجْمِ، وشِعْرِي شِعْرِي

أي: فلان هو: فلان، ما يحتاج إلى المزيد من الكلام والتفصيل، فهنا إشارة إلى علو السابقين وفضلهم ومنزلتهم عند الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ جمع: مقرَّب، أي: مقرَّبون عنده سبحانه، والمقرَّب أفضل من القَرِيب، ففلان مقرَّب عندي، أي: أنني قرَّبته واصطفيته، أما القريب فقد يكون قريب نسب؛ أو هو الذي يحاول أن يتقرَّب مني[3]، فهؤلاء المقرَّبون هم ممن اختارهم واصطفاهم وفضَّلهم في الدنيا بلزوم الطاعة، وفي الآخرة بالفضل والمكانة.

وهذا لا ينافي ذكر أعمالهم الصالحة لأن الله تعالى لا يُقرِّب أحدًا لأنه يسكن في المدينة أو في مكة، أو لأنه من قريش أو من العرب، ولا لأنه أبيض

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٢) ينظر: «المنصف» لابن جني (ص١٠)، و«المفصل في صنعة الأعراب» (ص٤٦)، و«معاهد التنصيص» (١/ ٢٦) منسوبًا إلى أبي النَّجْم.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٨).

أو جميل الهيئة، وإنما ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فهو يختارهم على علم، ويقرِّبهم؛ لصفاء قلوبهم، وصدق نواياهم، وسلامة سرائرهم، وكمال إشراقهم وعملهم الصالح، ويُقرِّبهم لتواضعهم، ولهذا قيل في معاني: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أنها تخفض المرفوع وترفع المخفوض، تخفض المتكبِّر المتعجرف المتعالي، وترفع المتواضع المخبت لربه[1]، فكلما كان الإنسان أكثر ضعفًا وانكسارًا وتواضعًا وأبعد عن رؤية الذات، كان أقرب إلى النجاة.

* ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾:

يحتمل أن يكون هذا ظرف لتقريبهم، فهم مقرَّبون في الجنة.

ويحتمل أن يكون خبرًا ثانيًا أو ثالثًا عنهم بأن مقرَّهم ومصيرهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

* ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ١٤﴾:

الثُّلَّة: الجماعة من الناس، قلَّت أو كثرت[2].

و﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا يحتمل معنيين:

أنهم من أتباع الأنبياء السابقين، كنوح وموسى وعيسى وشعيب وصالح عليهم السلام، والرسل أنفسهم يدخلون دخولًا أوليًّا في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وعلى هذا يكون المقصود بـ﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾: أمة محمد ﷺ، وعليه يصبح ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ من الأمم السابقة أكثر منهم في هذه الأمة؛ لأن الأمم السابقة كثيرة، والأنبياء كثيرون، وثمة الأنبياء والرسل والشهداء والصِّدِّيقون والصالحون والحواريون، فكل هؤلاء من السابقين، وكلهم من المقرَّبين.

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٧٦)، وما تقدم في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ٣﴾.

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٨)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٦)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٣٦٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٧٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٠)، و«لسان العرب» (١١/ ٨٩)، و«تاج العروس» (٢٨/ ١٦٢) «ث ل ل»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٨٩).

وقد ذهب إلى هذا أكثر المفسرين، ونُقل عن جمع من السلف(١).

والقول الثاني: أن هؤلاء جميعًا هم من هذه الأمة، فـ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: من الذين صحبوا النبيَّ ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من التابعين ومَن بعدهم إلى قيام الساعة(٢).

وعليه، فالله تعالى لم يذكر الأمم السابقة، ليس لأنه لا سابقون فيها، ولكن لأن الخطاب موجَّه لهذه الأمة، فذكر تعالى من هذه الأمة من السابقين ثُلَّة من المتقدِّمين من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم»**(٣). وقال ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدَكم أَنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ»**(٤). وذكر في فضل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وسابقتهم، بل ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم مما يعزِّز هذا المعنى؛ قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨]، فهذا يعزِّز المعنى، ولا ينفي أن يكون من السابقين، ومن المقرَّبين الرُّسل والأنبياء وأتباعهم، لكنه طُوي ولم يُذكر هاهنا؛ لأن السياق يخص أمة محمد ﷺ.

وهذا المعنى نُقل عن الحسن البصري وابن سِيرين وجماعة(٥)، ورجَّحه ابن كثير في تفسيره(٦)؛ لفضل هذه الأمة، ولاستبعاد أن يكون ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٩).

(٦) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١٨).

الأمم السابقة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة، فهذا نوع من النقص في حق هذه الأمة، مع أن السياقات والنصوص لم يُعهد منها مثل هذا المعنى، وقد قال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونُوا رُبُعَ أهل الجنة». فكبّرْنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة». فكبّرْنا، فقال: «أرجو أن تكونُوا نصفَ أهل الجنة». فكبّرنا[1]، والنصوص تدل على فضلهم وسابقتهم.

وقد يقال بأن الأمم السابقة كثيرة ممتدة من عصر التكليف ونزول الرسل إلى بعثة الرسول ﷺ، وحتى مع ذلك فهذه الأمة ممتدة أيضًا، فهي من بعثة الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، فالأمة كثيرة جدًّا، وجاءت نصوص كثيرة تدل على ذلك، مثل قوله ﷺ: «إذ رُفِعَ لي سَوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومُه، ولكن انظرْ إلى الأُفُق. فنظرتُ فإذا سَوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظرْ إلى الأُفُق الآخر. فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتُكَ، ومعهم سبعونَ ألفًا يدخلونَ الجنةَ بغير حساب ولا عذاب». فسُئل عنهم النبيُّ ﷺ، فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطيَّرُونَ، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلُونَ»[2].

وفي رواية صحيحة قال ﷺ: «وعدني ربي سبحانه أن يُدْخِلَ الجنةَ من أمتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، مع كل ألف سبعونَ ألفًا..»[3]. وهذا عدد ضخم وكبير.

ومع أن الأمر محتمل، فالذي يظهر - والله تعالى أعلم - أن القول بأن ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ هم من هذه الأمة أليق بالسياق وبالنصوص الأخرى، مع غير بخسٍ لمَن جاؤوا قبل هذه الأمة.

وفي كل دعوة خير، فمن الناس مَن يبادر ويقول: أنا لها، ويندفع برغبة وبصيرة، ومنهم مَن يكون عنده تردد وإحجام، يراعي المصالح والمفاسد، فإذا رأى الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١٥٦)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وابن حبان (٧٢٤٦) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٧٩).

أقبلوا واندفعوا تنشَّط وصحبهم، وهذا فائدة الصحبة الطيبة، وإذا ثقل الناس فإنه يثقل معهم.

وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى المبادرة، وأن على المؤمن أن يسارع في عمل الخير، وإذا كان هؤلاء هم السابقون، فالله يأمرنا أن نجتهد أن نكون منهم فيقول: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فـ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ لديهم مسارعة وفتح لأبواب الخير وطرائقه وذرائعه، وتشجيع لغيرهم على سلوك الطريق؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان الصادق بالله، وبين شدة الرغبة والحماس في الخير، وقلة المبالاة بالمعوِّقين والمثبِّطين وغيرهم تبعٌ لهم في ذلك.

وفيها دليل على فضل هذه الأمة وفضل السابقين منها؛ لأنه تعالى جعلهم بخير المنازل والمكانة، فهم الذين جاهدوا مع الرسول ﷺ، ولذلك يصح أن نسمِّيهم جميعًا سابقين، كما سماهم ربهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ وحين جبن الناس وكذَّبوا وتأخَّروا وتراجعوا وتردَّدوا وخافوا أقدم هؤلاء وسبقوا غيرهم وتحمَّلوا التَّبعة وآمنوا بالرسول ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فسماهم تعالى: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا يشمل جمهور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد يشمل قريبًا أو قليلًا ممن كانوا بعدهم من التابعين، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولا غرابة؛ فهم الذين ربَّاهم الرسولُ ﷺ؛ بل اختارهم الله تعالى على عينه، وشهدوا التنزيل، وسمعوا القرآن رَطْبًا يُتلى من فم رسول الله ﷺ، وصلَّوْا خلفه، وقال النبيُّ ﷺ «سمعَ اللهُ لمَن حمدَه». فقالوا هم من ورائه: «ربنا ولك الحمدُ». وقال: «ولا الضالينَ». فقالوا من ورائه: «آمين». وأمرهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا. ونهاهم، فقالوا: انتهينا انتهينا. وجاهدوا معه، وقُتلوا بين يديه، وفضَّلوا الموت على الحياة؛ فداءً له ﷺ، كما قال عُبيدة بن الحارث وهو يُصرع بين يدي الرسول ﷺ: أما والله، لو أدرك أبو طالب هذا اليوم؛ لعلم أني أحق منه بما قال حين يقول:

كَذَبتُم وبَيتِ اللهِ نُبزى[1] مُحَمَّدًا ... ولَـمّـا نُطاعِن دونَـهُ وَنُناضِلِ
ونُسلِمهُ حَتّى نُصَـرَّعَ حَولَهُ ... وَنذهلَ عَن أَبنائِنا والحَلائِلِ[2]

وإذا كان هؤلاء يرتقي إليهم شك أو ريب، فمَن هو المربِّي أو القدوة أو السياسي أو القائد الذي سوف يصنع أتباعًا، ويقيم مجتمعًا، ويبني دولة بعد رسول الله ﷺ؟!

إن التشكيك في الجيل الأول هو تشكيك في جنس الإنسان، وإذا أصابنا شك في جدارة الأولين الذين ربَّاهم محمد ﷺ، فهل يمكن أن نثق بغيرهم، أو نتوقع نجاحًا من سواهم؟

وقد يحتج بعض الناس بمثل قول النبي ﷺ: **«مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُهُ»**[3].

وهذا الحديث رواه أحمد، وغيره من طرق، وهو حسن بمجموع الطرق، وهو دليل أيضًا على فضل آخر هذه الأمة، وأن فيها من السابقين فضلًا عن أصحاب اليمين، وفيها خير كثير، ولكن لا يدل الحديث على تساوي الأولين والآخرين، وإنما تشبيه الصالحين المتأخِّرين بالسابقين الأولين.

* ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾:

هذا طرف من نعيمهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

والمَوْضُون هو: المَرْمُول أو المنسوج[4]؛ لأن السُّرُر قد تُصنع من الخشب،

---

(١) أي: نُسلَب ونُغلَب عليه.

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه الطيالسي (٦٨٢)، وأحمد (١٨٨٨١)، وابن حبان (٧٢٢٦) من حديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الطيالسي (٢١٣٥)، وأحمد (١٢٣٢٧، ١٢٤٦١)، والترمذي (٢٨٦٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «العلل» لأحمد (٣/ ٣١٤- ٣١٥)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ٣٠٩)، و«شرح علل الترمذي» (٢/ ٥٠١- ٥٠٢)، و«تحقيق منيف الرتبة لمَن ثبت له شريف الصحبة» للعلائي (ص٨٤- ٩٠)، و«المنتخب من علل الخلال» لابن قدامة (١٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٦).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٧٩).

وقد تُصنع من الحديد، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا بيَّن أن سُرُرهم أنعم من ذلك، فهي منسوجة من خيوط من الذهب، ولا يذهب وَهْلك إلى أنه الذهب عيار واحد وعشرين، أو أربع وعشرين الذي عند الصَّاغة! اسمه ذهب، لكنه في الجنة شيء آخر؛ لأنه «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[1]، فهو منسوج من ذهب الجنة، وهكذا عادة الأَسِرَّة التي فيها كمال المتعة، تكون منسوجة من هذه الخيوط المتداخلة، ويقعد عليها أصحابها المنعَّمون.

ويُسَمَّى الحبل الذي في بطن النَّاقة: الوَضِين[2]، كما قال الشاعر في الناقة التي حجَّ عليها[3]:

إليـكَ تَـعْـدُو قَلِقًا وضِينُها مُعترضًا فـي بطنها جَنِينُها
مخالفًا دينَ النصارَى دينُها

* ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا ينظر بعضهم إلى ظهر بعض، وإنما ينظرون إلى وجوه إخوانهم[4].

وهذا من كمال الإكرام والاحترام والمتعة؛ أن بعضهم ينظر إلى بعض، وقد جعلهم تعالى في الجنان إخوانًا، كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا

---

(١) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ١٩٨).

وينظر أيضًا: «العين» (٧/ ٦١) «و ض ن»، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٩١٢) «ض ن و»، و«تاج العروس» (٣٦/ ٢٥٨) «و ض ن».

(٣) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٩٠)، و«سبل الهدى والرشاد» (٦/ ٤٢٢) منسوبًا إلى أبي علقمة بشر بن معاوية.

ونسبه في «نهاية الأرب في فنون الأدب» (١٨/ ١٢٢)، و«الإصابة» (٥/ ٤٣٨) إلى كُرْز بن علقمة النجراني.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٢)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠).

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فمن كمال المتعة المتعة بالمؤانسة والمجالسة، وهذه متعة محسوسة؛ فإن سهرة مع صديق تحبه ويحبك تعد من متع الدنيا، ولهذا ذكر هذا المعنى في الجنة بكونهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ يتحدَّثون ويتضاحكون ويتذكرون ويستمتعون، فهذا جمع النعيم الحسِّي والنعيم المعنوي.

* ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

يدورون عليهم مرة بعد مرة(١)، **والوِلْدَان** جمع: ولد، وهم الصبيان قبل سن البلوغ أو مع سن البلوغ(٢)، ذكرهم تعالى في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما في «سورة الإنسان»، **فمَن هؤلاء الولدان**؟ قال بعضهم: هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم قبل البلوغ(٣)، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا القول ليس بذاك.

وقيل: هم أولاد المشركين الذين ماتوا دون الحُلُم، وهذا قول جيد، ونُقل عن جمع من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واختاره البخاري، وجماعة من أهل العلم(٤).

وجاء في حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث الرُّؤيا، أن رسولَ الله ﷺ أخبر أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في روضة وحوله ولدان، وأنهم «**كلُّ مولود مات على الفطرة**». فقيل له: وأولادُ المشرِكين؟ قال: «**وأولادُ المشركين**»(٥). لأن هؤلاء غير

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: «المجموع المغيث» (٣/ ٤٥١)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٧١) «و ل د».

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«حادي الأرواح» (ص٢١٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٧٨)، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

(٥) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

مكلَّفين، فماتوا قبل سن التكليف.

وإذا تذكرت أن هؤلاء وأمثالهم ممن ماتوا قبل البلوغ أنهم إلى رحمة الله سبحانه، فإن هذا يسكب على قلبك سكينة وراحة، والمؤمن يفرح برحمة الله للعباد، ولذلك ذكر بعضهم هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨- ٩]، أن ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ ورد أنها في الجنة[١]، وإن كان الحديث في ذلك لا يصح؛ لكن يصدق على هذا القول الذي اخترناه، يعني ممن كانوا دون الحُلُم والبلوغ.

ويمكن أن يكون مع الوِلدان أيضًا ولدان ممن خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخدمة، كما خلق الحور العين في الجنة للتنعم، والحور العين فيهم نساء من نساء الدنيا، وفيهم ممن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكذلك الوِلدان يكون فيهم ممن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنشأهم لهذا العمل، وفيهم الوِلدان الذين ماتوا قبل البلوغ وقبل الحُلُم، وأمثالهم ممن وسعتهم رحمة الله ولم تقم عليهم حجة الرسالة.

ووصف هؤلاء الوِلدان بالخلود، أي: أنهم في عمر واحد، وأهل الجنة أعمارهم ثلاثة وثلاثون سنة[٢] في سنِّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رُفع، ذكورهم وإناثهم، وكأن هذا هو اكتمال النضج للإنسان- والله أعلم- وقبل بداية النقص فيه، أما هؤلاء الوِلدان فهم صغار، وهؤلاء وأولئك لا يجري عليهم الزمن ولا يصيبهم الضعف أو التغير في وجوههم أو أجسادهم، لا تجري عليهم نواميس الدنيا وقوانينها من الكبر والهَرَم والضعف والشيخوخة، وإنما هم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ في هذا السِّنِّ[٣].

وهؤلاء الوِلدان يطوفون على أهل الجنة ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾،

---

(١) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٦٥٧)، و«مسند أحمد» (٢٠٥٨٥)، و«سنن أبي دواد» (٢٥٢١).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٧٩٣٣)، و«جامع الترمذي» (٢٥٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٨- ٦٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٠٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٩٤- ٢٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣).

والأكواب هي: الأواني التي ليس لها يد تمسك بها، وليس لها خرطوم يصب منه الماء، وأما الأباريق فهي: الأواني التي يكون لها مقبض تمسك به، ولها خرطوم يصب منه الماء[1]، وكلمة «إبريق» فارسية معرَّبة[2].

والكلام هنا عن الخمر، وأفرد الكأس؛ لأنه هو المقصود، فالإنسان لا يشرب بأكواب ولا بأباريق، وكأن الأكواب والأباريق هي الوعاء الأصلي الذي تُوضع فيه الخمر، ثم يسكب منها بالكأس للشارب، وإنما يشرب بكأس واحد، ولذلك أفرده.

وأيضًا فكلمة «كؤوس» ثقيلة لأن فيها همزات متعدِّدة، ولذلك أفردها، فصارت ذات رشاقة وجمال.

والمَعِين ذكره الله تعالى في أكثر من موضع، والمقصود به هنا: الخمر؛ إشارة إلى أن هذه الخمر تجري، كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، فالكأس من هذا المَعِين، ومعناه أنها خمر صافية ليست كخمر الدنيا، ولذا عقَّب بقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يصيبهم الصُّداع الذي تسبِّبه خمر الدنيا[3]، ولذلك قال: ﴿عَنْهَا﴾ أي: بسببها[4].

ومن المعاني الصحيحة أنهم لا يتفرَّقون[5] عنها أو بسببها؛ لأن الذين يشربون في الدنيا إذا سَكِروا هَذَوْا، وربما تفرَّقوا بسبب تعكر المزاج أو عدوان بعضهم على

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٣- ٢٩٤).

(٢) ينظر: «فقه اللغة» للثعالبي (ص٢٠٨)، و«الإتقان» (٢/ ١٢٩).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢١).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢١)، و«الدر المصون» (١٠/ ٢٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ١٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٤).

(٥) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٠).

بعض.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تذهب عقولهم[1]، بخلاف خمر الدنيا فإنه يكون من جرائها السُّكر، فهذا المقصود به نزِيف العقول، ونزِيف العقول هذا مصطلح حديث، ولكن الخمر تنزف العقل وتذهب به.

* ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾:

بدأ بالفاكهة؛ لسرعة هضمها وسهولته، ولذا ينصح علماء التغذية وخبرائها بتقديم أكل الفاكهة قبل اللَّحم، ويقولون: إن أكل الفاكهة بعد اللحم يذهب بعض فوائده وخصائصه[2].

وفي قوله: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ إشارة إلى كثرة أنواعها: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢].

وأما اللَّحم فقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾، وذلك لأن لحم الطير مفضَّل على غيره، وقال: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لأن الفاكهة لا تمنع من اشتهاء اللَّحم، فسرعان ما تُهضم ويشعر الآكل بالفراغ والحاجة إلى الطعام.

* ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾:

قراءة الجمهور بالرفع: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾؛ لأنها معطوفة على ما قبلها، وفي قراءة بكسر الراء والنون: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾[3] على الإتباع اللَّفْظي[4]؛ لقوله: ﴿بِأَكْوَابٍ

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠١- ٣٠٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٤٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٧)، و«معجم القراءات» (٩/ ٢٩٦).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٥٥)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٥)، والمصادر السابقة.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾، وإن اختلفت في المعنى، فالحور لا يطوف بها الوِلدان المخلَّدون، بل هي معهم على السُّرُر متقابلين.

والحُور جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان[(١)]، وعِينٌ جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها[(٢)].

والجمال هنا في وجوه أهل الجنة، وفي أزواجهم، وفي مجالسهم، وفي متّكآتهم، وفي طعامهم، فهي جمال تام، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، مما يعطي متعة النظر والسمع والقلب وسائر الجوارح.

* ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ٢٣﴾:

أي: في جمالهن وصفائهن وصيانتهن[(٣)].

* ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٢٤﴾:

إشادة بهم، وأنهم مقرَّبون، فضلًا من الله، لكن بسبب أعمالهم الصالحة وأخلاقهم الجميلة واحتسابهم لما عند الله.

وفيه دعوة إلى العمل؛ فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وهذا الجزاء بسبب عملهم.

* ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ٢٥﴾:

اللَّغو هو: الكلام الذي لا فائدة فيه[(٤)]، وكثير من الكلام لغو، وكذلك اللَّغو فيه السَّب والشتم والقيل والقال وغيره مما يُنزَّه عنه أهل الجنة.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٦٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٠٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٣٨)، و«روح البيان» (٩/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٦).

وأما التأثيم فهو: نسبتهم إلى الإثم[1]، أي: لا يسمعون من ينسبهم إلى الإثم أو ينتقصهم، أو يثيرهم ليقعوا في المآثم، فالجنة منزَّهةٌ عن ذلك، ولكنه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا كذلك، كانوا يتجنَّبون اللَّغو: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، ولا يردُّون اللَّغو بمثله، فهم قد أمسكوا ألسنتهم عن مثل هذا، يختارون أطيب الكلام، كما يختار آكلُ الطعام أطيبه، فلا يتكلَّمون إلا بخير، وإذا زلَّ واحد منهم بكلمة أسرع في الاعتذار.

وخص «السماع»؛ لأن تمكين أذنك من سماع اللَّغو تشجيع عليه، والذي لغا أو اغتاب أو سبَّ أو شتم، لو لم يجد مَن ينصت إليه لما تكلَّم، وهم لا يقولونه أيضًا، فما ثَمَّ في الجنة إلا صالحون لا يقولون اللَّغو، ولذا لا يسمعونه، بخلاف الدنيا، ففيها الصالحون عفيفو الألسن، وفيها الهجَّاؤون والشتَّامون والعيَّابون وأهل اللَّغو.

وفي ذلك تذكير بخطر اللِّسان، كما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أخذَ بلسانه: «**كُفَّ عليكَ هذا**». قال: يا نبيَّ الله، وإِنَّا لَمُؤاخذُونَ بما نتكلَّمُ به؟ فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم- أو: على مناخرهم- إِلَّا حصائِدُ ألسنتهم!**»[2].

* ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾:

لا يسمعون في الجنة ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولًا ﴿سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾، وهنا جعل ﴿سَلَـٰمًا﴾ منصوبة مع أن السلام بالرفع أبلغ وأقوى، كما في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [الذاريات:٢٥]، وإنما نُصبت ﴿سَلَـٰمًا﴾ هنا؛ لأنها بدل من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٢)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٧٩)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦)، وابن حبان (٢١٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣١- ٣٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

«قيل»، وهي في مقام مفعول به منصوب[1].

وهذا التكرار ليس للتوكيد، وإنما هو للإعادة مرة بعد مرة، مثلما تقول: قرأتُ القرآن سورةً سورةً، وقرأت الكتاب بابًا بابًا، وهذا الشهر قضيته في المدينة يومًا يومًا. فالمعنى: سلام بعد سلام، مرة بعد مرة[2].

* ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٧﴾﴾:

سماهم مرةً: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾، ثم نوَّع وتفنَّن، فسماهم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٧﴾﴾، وسماهم مرةً: ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان:٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار:١٣]، ولكن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أوسع؛ فهو يشمل «الظالم لنفسه»، ومَن له ذنوب وكبائر استوجب بها النار ثم أُخرج منها وطُهِّر، فهؤلاء معدودون من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ لأنه ليس ثمة إلا ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، وهم مؤمنون، فليسوا من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿١٤﴾﴾.

كما يشمل «المقتصد»، ويشمل «السابق بالخيرات»؛ إذا لم يُذكر منفردًا، كما ذُكر في هذه السورة المباركة.

* ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿سِدْرٍ﴾ جمع: سِدْرة، وهو شجر معروف من شجر الحجاز، وليس بالكبير[3].

وقد ورد أن أصحابَ رسول الله ﷺ كانوا يقولون: إن اللهَ ينفعُنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابيٌّ يومًا فقال: يا رسولَ الله، لقد ذكرَ اللهُ في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنتُ أَرَى أن في الجنة شجرةً تُؤذِي صاحبها! فقال رسولُ الله ﷺ: «وما هي؟». قال: السِّدْرُ؛ فإن لها شوكًا. فقال رسولُ الله ﷺ: «﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٠)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٢٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٦٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٨).

يَخْضِدُ اللهُ شوكَه، فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكة ثمرةً، فإنها تُنْبِتُ ثمرًا تُفْتَقُ الثمرةُ معها عن اثنين وسبعينَ لونًا، ما منها لونٌ يُشبهُ الآخرَ»[1].

والمَخْضود هو: الذي نُزع شوكه، فليس كسِدر الدنيا، وإنما الاسم للتقريب فحسب، إذ هو من جنس السِّدر، وبدل كل شوكة ثمرة؛ فهو سِدر قد خُضِدَ شوكه وكثر طلعه[2].

* ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: بعضه بجنب بعض، وهو منضود بكثرة الثَّمَر[3].

والطَّلْح هو: شجر ضخم من شجر البوادي، عريض، كثير الورق، شديد الخُضرة[4]، فكأنه ذكر الشجر الصغير وإلى جواره الشجر الكبير، وهي ألوان من التفنُّن بالنعيم، ولا يعني حرمان هؤلاء مما عند الأولين، ولا أن ما عند هؤلاء ليس عند السابقين، وإنما المقصود الإشارة إلى أن منزلتهم أقل من منزلة الذين من قبلهم، كما في «سورة الرحمن»[5].

وقيل: الطَّلْح هو: شجر المَوْز، رُوي هذا عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]. وهو كذلك بلغة

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٧٦)، والمقدسي في «صفة الجنة» للمقدسي (٧٣) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٤٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٨)، و«إيجاز البيان» (٢/ ٧٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٠٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٩٩).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٥)، و«اللباب» (١٨/ ٣٩٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ١٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٦).

اليمن، حيث يسمون المَوْز: الطَّلْح، أو: الطَّلْع[1].

والنص يشمل الطَّلْح المعروف، ويشمل شجر الموز، وهو غالبًا لا ينبت في بلاد العرب؛ لكون المناخ فيها لا يوائمه.

* ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾:

أي: طويل[2]، وفي الحديث يقول النبيُّ ﷺ: «**إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المُضَمَّرَ السريعَ مائةَ عامٍ ما يقطعها**». ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]، فلو أن إنسانًا يركب جَوَادًا مُضَمَّرًا وسريعًا فيسير به مائة عام لم يقطع ظل شجرة واحدة من هذا الطَّلْح.

وهذا الحديث حكم جماعة من أهل العلم بأنه متواتر؛ لوروده عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[4].

* ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾:

أي: يجري على ظهر الأرض أنهارًا لا تحتاج إلى حواف حتى تحفظ الماء[5]؛ لأن النظام في الجنة ليس كالناموس في الدنيا، فالماء مسكوب يجري للمؤمنين

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٦).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص١٩١)، و«لسان العرب» (٢/ ٥٣٣)، و«تاج العروس» (٦/ ٥٨٠) «ط ل ح».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٢، ٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٣٢٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٨).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٢٩)، و«روح البيان» (٩/ ٣٢٥).

ويجري من تحتهم دون حاجة إلى مجرى.

* ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾:

ليست مثل فاكهة الدنيا تأتي في موسم ثم تنقطع بقية العام، أو تكون خاصة ببلد دون آخر، وإنما هي كثيرة متنوِّعة، وليست في وقت دون وقت، ولا ممنوعة عنهم[1].

وقد يرى المرء الفاكهة في الدنيا ثم تُمنع عنه؛ لندرتها أو غلائها أو لأسباب صحية، كما يترك التمر خوف ارتفاع السكر مثلًا.

* ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾:

فهم على فُرُش و﴿سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ [الغاشية: ١٣]، والرفع هنا بقدر ما بين السماء والأرض[2].

إنك في هذا المشهد الأخروي الغيبي أمام عالم آخر مختلف، والسياق فقط للتقريب، وإلا فالأمر مما لا يمكن تخيله! ورفعها بنقائها، بطهارتها، بطيبها.

* ولما ذكر الفُرُش ذكر النساء، بقرينة التلازم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾﴾:

وهذا يشمل نساء الدنيا، كما قال جمهور المفسرين[3]، وورد في آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ، ولا تصح.

وقد أتت عجوزٌ من الأنصار إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يُدخلَني الجنةَ. فقال نبيُّ الله ﷺ: **«إن الجنةَ لا يدخلُها عجوزٌ»**. فأُخبرَ النبي ﷺ أنها لَقِيَتْ من كلامه مشقةً وشدةً! فقال نبيُّ الله ﷺ: **«إنَّ ذلك كذلك؛ إنَّ الله إذا أدخلَهنَّ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣١٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠١)، والمصادر السابقة.

الجنةَ حَوَّلَهن أبكارًا»[1].

* ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾:

هنا البكارة دائمة مستمرة، ومثلما قلنا في الوِلدان: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ فكذلك نساء الجنة أبكار دائمًا وأبدًا في الجسد والسِّنِّ والروح والجمال، لا يؤثِّر فيها الزمن، ولا يغيِّر حالها إلا إلى الأطيب والأفضل.

* ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿عُرُبًا﴾ جمع: عَرُوبة[2]، والعَرُوبة قل فيها ما شئتَ من معاني الكمال والجمال والزينة، العَرُوبة هي: المتحبِّبة لزوجها، تتغزَّل به، وتعرب عن مشاعرها وعن حبِّها، هي العاشقة لزوجها[3].

و﴿أَتْرَابًا﴾: الأَتْراب: المتساويات في السِّنِّ- وغالبًا ما تُوصف به النساء- أما الرجال فيقال عنهم: أقران- كما قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ:٣٣]، يعني في سِنٍّ واحد[4]، ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

* ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

وهذا يقال فيه ما قلنا سابقًا في الخلاف في المقصود بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾، هل هم الأمم السابقة وهذه الأمة، أو أول هذه الأمة وآخرها؟

والأقرب أن ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هم: الصحابة رضوان الله عليهم، و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾ هم:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (١٨٥)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٩١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٧٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٤١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٨٢) عن الحسن مرسلًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٨٧).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٥٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٣٨- ٣٩)، و«لسان العرب» (١/ ٥٩١)، و«تاج العروس» (٣/ ٣٣٨) «ع ر ب».

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٧٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٣- ٥٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٢).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ».

آخر هذه الأمة[1].

* ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾:

والسَّموم: الرِّيح الحارة الشديدة[2]، قيل: مأخوذة من السُّم؛ لأنها كالسُّم ينغرس في جسد الإنسان لشدة حرارتها وما تورثه من العطش، ولذلك جمع الله بينهما فقال: ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾.

والحَمِيم هو: الماء الحار الذي بلغ النهاية في الحرارة[3]، فإذا جاءتهم السَّمُوم ولَّدت عندهم العطش، طلبوا الماء فسُقوا هذا الماء الحَمِيم.

* ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾:

والذي يسير في الصحراء فتهب عليه السَّموم يهرب إلى الظلِّ يأوي إليه، أما أهل النار فهو ظلٌّ يزيدهم عذابًا فوق عذابهم، هو ظلٌّ من دخان، مأخوذ من الحُمَم، وهو الفحم، فهو ظل من دخان جهنم شديد الحرارة[4]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]، هو ليس ظلًّا ظليلًا كظل أهل الجنة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، ولا يغنيهم من اللَّهب، بل هو من اللَّهب، وهو عذاب لهم أيضًا[5].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٢)، وما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٤).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٤).

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

* ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾:

ليس الظل باردًا يُطلب لاتقاء الشمس، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ يُطلب لتقدير الإنسان وكرامته[1].

* ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هل كان ترفهم في الدنيا موجبًا للعقوبة؟ هل الترف كله حرام يستوجب ذلك؟

من أجود الأجوبة عندي في ذلك أن يقال: ليس قوله: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ بيانًا لسبب عقوبتهم، وإنما مقارنة بين حالهم الآن في النار، وبين حالهم في الدنيا، فهم الآن ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، وقد كانوا كلهم أو بعضهم ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ في ترف ونعيم في الدنيا، لم يتعوَّدوا على تحمل الشدائد والصِّعاب، والتعرُّض للرِّياح السَّموم والشمس والرَّمْضاء، وهذا على سبيل الأغلب؛ لأن الغالب ممن يعادون الرُّسل والأنبياء يكونون متمسكين بمصالحهم الدنيوية ورياساتهم وأموالهم، وقد يكون فيهم مَن كانوا في الدنيا فقراء لم يستمتعوا بشيء من طيباتها، ثم كانوا في عذاب من جنسه في الآخرة بسبب كفرهم وجحودهم للحق واتِّباعهم لساداتهم وكبرائهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مُتْرَفِينَ﴾ ترفًا متجاوزًا للحدود، مضيِّعين للحقوق، مغترِّين بما هم فيه، زاعمين أنهم إن رُدُّوا إلى ربهم وجدوا منقلبًا حسنًا ومردًّا فاضلًا، دون أن يعملوا صالحًا أو يتَّقوا النار بإحسان في عبادة الله أو إحسان إلى عباده[2]!

* ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

وليس المقصود- والله أعلم- مجرد الحِنْث باليمين؛ لأن مثل هذا يوجد فيمَن هم من ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ من الظالمين لأنفسهم، بل المقصود: أَيْمانهم الكاذبة

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤١٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٥)، و«مراح لبيد» (٢/ ٤٨٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٦)، والمصادر السابقة.

على مخالفة الدين[1]، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، فهذا من ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾، وكذلك حلفهم ألَّا يُصاب المؤمنون بخير، قال سبحانه: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، فكانوا في حالة من الترف والاستكبار والإصرار على اعتقاداتهم الباطلة، إلى حد أن يحلفوا عليها، ثم يصرُّون دون مراجعة أو توبة، فهذا معنى ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾.

وقيل: المقصود بـ﴿الْحِنثِ﴾: اليمين الغموس[2]، وهي اليمين التي يحلف صاحبها على أمر يقتطع به مال امرئ مسلم، وسُمِّيت: غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها، ولو أطعم ألف مسكين؛ لأن فيها اقتطاع مال امرئ مسلم، وفي الحديث «مَن حلفَ على يمين صَبْرٍ، يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»[3].

وفي الحديث دليل على تعظيم حقوق الناس، ليس فقط المال، بل العرض والمال والنفس وكل حق وإن دق.

والصواب أن ﴿الْحِنثِ﴾ هو: الإثم، يقال: بلغ الغلام الحِنْث، إذا صار مكلَّفًا محاسبًا على أعماله، وكان النبيُّ ﷺ يتحنَّث في غار حراء، أو يتحنَّف، أي: يتعبَّد، كأنه يتخلَّص من الحِنْث، أي: من الإثم، وإن كان غلب على اللفظ اتصاله بالحِنْث في اليمين، أي: الإثم بقطعها، والحِنْث بالعهد والوعد، أي: إخلافه، ولكن أصل الكلمة هو: الإثم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٦)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٧٦)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٤٩٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٨).

* ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾:

على سبيل الاستبعاد والنفي، ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ هل سيبعثون معنا أيضًا؟ وقد كانوا يقولون: إن الرسل يَعِدُوننا بالبعث، ونحن لم نر أحدًا بُعث، آباؤنا وأجدادنا ماتوا، وما رأينا أحدًا منهم عاد إلى الدنيا، هكذا بسذاجة واستعجال(١).

* ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾:

أنتم وآباؤكم الأولون ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾، فالبعث ليس تدريجًا أو تقسيطًا أو جيل يُبعث وجيل يموت، كلا! بل البعث للناس كلهم في لحظة واحدة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾، أخبر أنها واقعة ووقعة واحدة للناس كلهم جميعًا وللأجيال كلها جميعًا، وفي الوقت الذي يريده الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تنتظروا أن يُبعث أجدادكم أو آباؤكم قبل قيام الساعة، وإنما ستبعثون أنتم وآباؤكم وأجدادكم وغيركم عند ميقات محدَّد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ولم يقل: «لمجموعون لميقات»؛ لأن ﴿إِلَىٰ ﴾ تدل على الإمهال والتأجيل، كأنه قال: أنتم جميعًا مُنْظَرُون أو مؤجَّلون إلى ذلك الميقات الذي جعله تعالى لقيام الأرواح والأجساد(٢).

وفي وصفه باليوم المعلوم نسبة لهم إلى الجهل فهو ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾، معلوم عند الرسل والأنبياء، ومعلوم في الكتب السماوية، ويكاد أن يُجمع البشر عليه، والعقول والفطر السليمة تدل عليه؛ لأن الذي خلق هذه الحياة بكل ما فيها من الحكمة والرحمة من كمال حكمته سبحانه أن يكون لها بقية، فهي فصل قصير عابر، يكون فيه المظلومون والظالمون، ثم يموتون دون أن يقتص لبعضهم من بعض، ولا بد من فصل آخر يعود فيه الأمر إلى نصابه، وينتصر المظلوم من الظالم، ويأخذ كل ذي حق حقه، وتبين من ورائه الحكمة في خلق الناس وامتحانهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٨- ٣٠٩).

* ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قدَّم وصف ﴿الضَّالُّونَ﴾ على وصف ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾، عكس ما سيأتي في قوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾﴾؛ مراعاة لترتيب الحصول؛ لأنهم ضلُّوا عن الحق، فكذَّبوا بالبعث، ليحذروا من الضلال ويتدبَّروا في دلائل البعث، وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقَّع(١).

وشجر الزَّقُّوم هو: من شجر النار، يتزقَّمونه، وهو شديد المرارة، كثير الشوك، عظيم الضر(٢)، ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.

* وكما كانوا منعَّمين مترفين في الدنيا يتَّخمون من الأكل، ثم يميلون إلى الشراب، فهم كذلك في النار يأكلون من شجر الزُّقُّوم، حتى يملئوا منه بطونهم، ثم يشربون عليه من الحَميم، قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

وفي قوله: ﴿لَآكِلُونَ﴾، ﴿فَشَارِبُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا حال دائم لهم أصبح جزءًا من حياتهم، وليس شيئًا عارضًا أو عابرًا.

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾، والهِيم عند الجمهور هي: الإبل العِطاش، والإبل يصيبها داء يُسَمَّى: داء الهُيام، فتشرب دائمًا ولا تُروى(٣).

وقيل: إن المقصود بها الرمال الممتدة التي تشرب كل ماء يُصب عليها(٤).

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٢)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ١٩٣)، و«روح البيان» (٧/ ٤٦٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٤)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٢- ٣٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٤- ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٨)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٥٢١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٦).

* ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾:

ليس هذا هو كل ما هنالك، بل هذا النُّزل فحسب، والنُّزل: الضيافة الأولية التي تُقدَّم للزائر[1] قبل أن يُقدَّم له الطعام، فهو كالمقبِّلات والمشهِّيات، وإلا فإن ما ينتظرهم من النَّكال والعقاب أشد من ذلك[2].

* ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾:

وكان أكثر ما يكذِّب به المشركون هو أمر البعث والنشور، ولذا بدأ في المجادلة معهم بتقرير الخلق، فنحن أنشأناكم من العدم[3]، فلم لا تصدِّقون بذلك، ألَا يحملكم هذا على الإيمان بأن نشأة الآخرة هي أهون عليه؟! والأمر بالنسبة له عَزَّوَجَلَّ هيِّن، ولا يختلف، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وهو في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، ولكن على سبيل الحساب والنظر العقلي أن الإعادة في العادة وعند الناس أهون من الابتداء.

* ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾:

وهم يعرفون أن الإنسان تخلَّق بسبب تلاقح ماء الرجل وماء المرأة، وهم كذلك خُلقوا من ذلك، خُلقوا من هذا الماء وعرفوه، فهو يسألهم: هل أنتم الذين تخلقون هذا الماء؟ ثم تخلقون منه إنسانًا سويًّا؟ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟

هم يعرفون أنه لا يد لهم في ذلك، وإنما هي قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم أدوات بيد القدرة الباهرة التي تختار من مئات الملايين من الحيوانات المندفعة واحدًا يفوز بالسَّبْق ويلقِّح البُويضة، حتى حين يكون المرء غافلًا، أو جاهلًا أو مجنونًا، فالعمل يتم وفق آلية إلهية دقيقة محكمة.

---

(١) ينظر: «العين» (٧/ ٣٦٧)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٧٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٢٩٨)، و«لسان العرب» (١١/ ٦٥٨) «ن ز ل»، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٤١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١١)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٣٩)، و«البحر المديد» (٧/ ٢٩٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٢٥).

* ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

كما قدَّرنا الحياة والخلق، ولم يقل: «قدَّرنا عليكم»؛ لأن الموت موزَّع بين الناس، كلٌّ له منه نصيبه، فنحن قدَّرناه بينكم في وقت معين، وكما أنه مقسوم مقدَّر بين الناس لكل واحد منهم أجله الذي لا يتخطَّاه إلى غيره، بل يتخطَّى غيره إليه، فهو الفاصل والحاجز الذي يحول بين بعضهم وبعض، ويمنع الأحفاد من رؤية الأجداد، ويفرِّق الأحبة، فهو هاذم اللَّذَّات.

والمقصود: نحن قادرون على أن نميتكم، ونأتي بأجيال بعدكم تخلفكم في هذه الأرض وتعيش كما عشتم(١)، ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أنتم أيها المخاطبون ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: في حياة أخرى بعد الموت في البَرْزَخ ثم القيامة ثم الحشر ثم الجنة أو النار، فهذه مراحل لا تعلمونها، ولهذا جمع سبحانه بين وصفه بـ﴿مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ووصفه بـ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهو معلوم إجمالًا من حيث ضرورة الوقوع، وغير معلوم من حيث الماهية؛ لأنكم لم تروه ولم تعيشوه، وهو معلوم إجمالًا لدى المؤمنين الذين أُوتوا العلم، وغير معلوم لدى أولئك المكذِّبين المجادلين.

* ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لقد علمتم أن نشأتكم الأولى كانت من العدم، ثم من ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فهلَّا تذكَّرتم، فحملكم ذلك على الاعتبار بأن الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم وبعثكم، على أن تتذكَّروا أن الشيء الذي خُلقتم منه لا يصلح أن يكون سببًا في التعاظم والكِبْر والعُجب، وإنما كمال الإنسان في إيمانه وأخلاقه وسلوكه؛ ولهذا مدح السابقين بقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولما ذكر أصحاب المشأمة قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، فالعبرة بفعل الإنسان لا بأصله.

وعلمكم بالنشأة الأولى يرشدكم إلى أن وراء الأمر خالقًا مدبِّرًا قديرًا عليمًا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٧)، و«فتح القدير» (٥/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣١٧).

حكيمًا رحيمًا، فليس للإنسان استقلال بذاته، ولا قوة ولا تحكُّم في نفسه أو فيما حوله، بل هو مربوب مدبَّر مخلوق ضعيف، فإذا اتَّصل بربه وعَبَده وأحبَّه استمد منه القوة والعزة والسعادة والأمل.

* ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فهم يضعون الحَب في الأرض، لكن الله هو الذي خلق في الحَبِّ الحياة، وجعل الحبة مثل الحيوان المنوي للإنسان، تتخلَّق منها الزروع والشجر، سُنَّة وضعها تعالى في الزرع كما وضعها في الإنسان، والزارع الحقيقي في الحالين هو الله تعالى، وإن كان هذا لا يمنع أن يسمى الإنسان: فلَّاحًا أو زارعًا، كما قال سبحانه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمقصود الإشارة إلى أنه تعالى هو الزارع الحقيقي الذي قدَّر لهذه الأشياء مقاديرها.

* ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: أرسلنا عليه ريحًا أو مطرًا أو بَرَدًا فحطَّم هذا الزرع قبل أوان الانتفاع به وحصاده[١]، ولو حدث هذا وجُعل الزرع ﴿حُطَٰمًا﴾ فماذا تستطيعون وكيف تتصرَّفون ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: بقيتم تفكَّهون، وأصل التفكُّه هو: الشيء الذي يتمتع به الإنسان[٢]، ومنه الفكاهة المضحكة، ومنه الفاكهة، والمعنى: لو جعلناه هَشِيمًا يابسًا وحُطامًا فإنكم تتحوَّلون إلى محلِّلين ومتكلِّمين تبحثون عن أعذار لما جرى، وتتفنَّنون في تصريف الكلمات والعبارات والأسباب[٣]، والمقام مقام غم وهم وحزن على فوات ما عولوا عليه وأمّلوا من الرزق والثمرة، ولكنه عبَّر بالتفكُّه، إما على معنى التفنُّن في القول ومذاهبه، أو على معنى الندم، كما ذكر بعض أهل اللغة.

وقيل: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تتناولون الفاكهة بدل الحَب[٤]، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦) «ف ك هـ»، و«شمس العلوم» (٨/ ٥٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٩)، و«لسان العرب» (١٣/ ٥٢٤) «ف ك هـ»، و«روح المعاني» (١٤/ ١٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٠).

(٤) ينظر: «التفسير المظهري» (٩/ ١٧٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٧٧٨)، و«التفسير الواضح» (٣/ ٦٠١)، و«الموسوعة القرآنية» (٨/ ٤٣٣).

* ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾:

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لمعذَّبون، والغَرام: العذاب[1]، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، يصرفون الرأي عن احتمال الغَرام، ويقولون: ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: غير محظوظين[2].

وهذا تقريع لهم على صدودهم عن معرفة الأسباب الصحيحة لما وقع لهم، كما جرى لأصحاب الجنة في «سورة القلم»، وكما جرى لصاحب الجنتين في «سورة الكهف»، فما الذي ذهب بعقولكم وصرفكم عن معرفة السبب الأكبر، وهو الجحود وحبس حقوق الفقراء وكفر النعمة؟

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾:

وهو دليل ثالث على البعث مثل الحياة والنبات، وكثيرًا ما يأتي الاستدلال على البعث بإحياء الأرض: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، ولما ذكر تعالى نبات الأرض وخروج الثمر فيها قرن ذلك بمسألة البعث، كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: ٦- ٧]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٩]، وهنا انتقل إلى نزول الماء وحياة الناس والأرض به.

والماء أصل الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولهذا امتن به تعالى فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾، والمُزْن هو: السَّحاب[3]،

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٤٣٦)، و«تاج العروس» (٣٣/ ١٧٠) «غ ر م».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٨٩)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٧٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٤).

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، فالله تعالى هو الذي يجري السَّحاب، فتمطر الغيث الذي به حياة الأرض.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: فلو شاء سبحانه لجعل الماء العذب الحلو الذي يشربونه أُجاجًا، ولهذا ذكَّرهم به ووجوب الشكر لله عليه.

وهنا سؤال: لماذا قال في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ بدون اللام، واللام للتوكيد؟

وقد قرأتُ في كتب التفسير، ولم أهتد إلى شيء واضح في الفرق بينهما، وخطر في بالي معنى محتمل، وهو أنه بالنسبة للأول جاء باللام في شأن الزرع؛ لأنه أمر كثير الحدوث متكرِّر أن المزارع إذا اكتمل زرعه أنزل الله تعالى عليه بَرْدًا أو مطرًا أو ريحًا فحطَّمته، ومن ذلك ما ذكره تعالى في «سورة القلم»: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: ١٧ - ١٨]، في حين لما كان الأمر يتعلَّق بالماء المشروب لم يذكر لام التوكيد؛ لأن المقصود الإشارة إلى القدرة والإمكانية مع قلة حدوث ذلك أو ندرته، والله أعلم؛ لأن الماء من ضروريات الحياة الإنسانية خاصة ماء الشرب العذب.

ولذا يموت مَن يتيه في الصحراء عطشًا أكثر مما يموت جوعًا، فكان من فضل الله ورحمته مع قدرته على ذلك، ومع عدم شكركم، أن مَنَّ عليكم بالماء العذب الفرات السائغ الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ومع هذا فهو للعطشان ولغيره ألذ شراب وأطيبه وأسوغه.

والأُجاج هو: المر أو المالح، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، فالأُجاج هو: الملح شديد الملوحة[١].

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

وهذا دليل رابع على البعث من وجه لطيف؛ فهو لم يشر إلى النار كلها، بل

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٠).

أشار إلى ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تستخرجونها بالقَدْح من الشجر[1]، فثمة أنواع من الشجر له خاصية الاشتعال إذا قُدح غصن منها بالآخر اشتعل، فهذه النار الكامنة داخل الغصن الأخضر من آيات الله العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

وهنا يسألهم: هل أنتم خلقتم هذا الشجر؟ هل أنتم وضعتم النار في جوف الغصن الأخضر؟ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ بل هو المنشئ سبحانه.

ولعل في ذلك إشارة إلى قضية الروح، ووجودها في جسد الإنسان، مثل وجود النار الكامنة في الغصن، فإذا قدحته ظهرت النار فيه، فكذلك جسد الإنسان الميت هو خاوٍ ثاوٍ، ليس فيه روح، ولكن يأتي يوم ويُؤمر المَلَك فيصيح تلك الصيحة وينادي المنادي فتذهب الأرواح إلى أجسادها، فيكون ذلك بمثابة قدح الزِّناد واستخراج الروح من داخل هذا الجسد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: تُذكِّر بنار الآخرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإن الإنسان الذي يكون في قلبه بعض الحياة يلتقط الذِّكرى من أي شيء؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ يعظ بنار الدنيا للتخويف من نار الآخرة، فيقول: «نارُكم هذه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعينَ جزءًا من حَرِّ جهنمَ». قالوا: والله، إن كانت لكافيةً يا رسولَ الله. قال: «فإنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستِّينَ جزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها»[2].

والمُقْوِي هو: المسافر[3]؛ لأنه دخل في القَوَاء، وهو البَر، يُسمَّى: قوًّا؛ لأنه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٦)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢١- ٢٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٢).

فارغ، تقول: أَقْوَتِ الدار، إذا رحل عنها أهلها[١].

وقال كعب بن زُهير[٢]:

أَمِنْ دِمْنَةِ الدَّارِ أَقْوَتْ سِنِينا   بَكَيْتَ فظَلْتَ كئيبًا حزينًا

بها جَرَّت الريحُ أذيالَها   فلم تُبْقِ من رسمِها مُسْتَبِينًا

وذكر المسافر؛ لأنه يحتاج النار أكثر من المقيم، فهو يوقد النار ليستدفئ بها، حيث لا يجد ما يُكِنُّه ويُظِلُّه، ويهتدي بها في الطريق، أو يتعرف على ما حوله، أو ليراه أحد فيأتي إليه، أو ليطرد عنه الهوام، إلى غير ذلك من الفوائد.

وفي الآية الكريمة إلهام البحث عن فوائد النار في رُقِيِّ الحضارة وفي حياة الناس الآن، وهي ضلع المثلث المشهور: الماء والهواء والنار، كما تلهم آية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ...﴾ [طه: ١٨]، البحث عن فوائد العصا، وقد كتب في ذلك طائفة من العلماء[٣].

وقيل: المراد بالمُقْوِين: كل مَن احتاج إلى النار من مسافر ومقيم[٤].

* ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

الذي هذا خَلْقُه، وهذا كونه، وهذه مخلوقاته، وهذا وعده، وهذا وعيده، وهذا كلامه.

فسبِّح باسمه تعالى، أي: نزِّه اللهَ عن كل ما لا يليق به، من العبث أن يخلق الخلق من غير شيء: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، أو أن يخلق الخلق ولا يعيد بعثهم إليه، أو أن يعد عباده ويوعدهم ثم لا يكون هذا الذي وعدهم به.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٤٥١)، و«لسان العرب» (١٥/ ٢١١)، و«تاج العروس» (٣٩/ ٣٦٥) «ق و ي».

(٢) ينظر: «ديوان كعب بن زهير» (ص٩٣).

(٣) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٨٧- ١٨٩)، و«العصا» لأسامة بن منقذ، كما في «نوادر المخطوطات» لعبد السلام هارون (١/ ١٧٥-٢١٥).

(٤) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٨)، والمصادر السابقة.

ونزِّهه سبحانه عن الأوثان التي عبدوها من دونه، واشتقُّوا لها أسماءً من أسمائه؛ تشبيهًا وتلبيسًا على الجاهلين والمغفَّلين؛ اللَّات والعزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: و«اسم» هنا قد تكون للتوكيد والتفخيم، أي: سبِّح ربَّك العظيم، وسبِّح باسمه، يعني: انطق باسمه[1].

و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ من أسمائه تعالى؛ ولذلك جعل هذا التسبيح للركوع: «سبحان ربي العظيم»؛ تعظيمًا وإجلالًا لله عَزَّوَجَلَّ، وتمهيدًا للسجود الذي هو قمة العبادة ونهاية الخضوع وذِروة النُّسك[2]، وقد روى أحمد، وأبو داود، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[3].

ويشهد للحديث فعل النبي ﷺ في صلاته، حيث كان يفعل ذلك، كما في حديث حُذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وغيره[4].

ليس ثمة عبادة أعظم من أن تسجد لله، وتقول: «سبحان ربي الأعلى»، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاءَ»[5].

وتأمَّل كلمة «أقربُ» اقرنها بالآية الآمرة بالتسبيح، ثم ضم إليها قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، فالسجود قُرب من الله؛ ولذلك «إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقولُ: يا وَيْلَهُ- وفي رواية:

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٢٤)، و«التفسير القيم» (ص٥٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٢٨).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾. و«سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾.

(٣) أخرجه الطيالسي (١٠٩٣)، وأحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن خزيمة (٦٠٠، ٦٧٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٨٤)، والحاكم (١/ ٢٢٥)، (٢/ ٤٧٧)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٢٧). وينظر: «إرواء الغليل» (٣٣٤)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٨٧).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يا وَيْلي- أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجدَ فلهُ الجنةُ، وأُمرتُ بالسجود فأَبيتُ فلي النارُ»[1].

والسجود الخاشع هو سر التواضع لله، وكمال التواضع هو كمال العبودية، والسابقون هم الفائزون في سباق الذُّلِّ لله والتواضع لعظمته والخضوع بين يديه.

إن المؤمن المصلِّي حين ينخرط في تسبيح واعٍ صادق يشاركه الكون كله في السجود: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٦]، فإذا سجد فثَمَّ نهاية الخضوع حينها يقول: «سبحان ربي الأعلى»؛ إشارة إلى كمال العلو لله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾:

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي[2]، كما في نظائره في مواضع عديدة في الكتاب الكريم[3]، وبعضهم قال: لا أقسم أي: الأمر لا يحتاج إلى قسم[4]؛ والأقرب أن هذا قَسَم، وأصله عند العرب أنه كان يقول الواحد منهم: لا أقسم على هذا الشيء، يعني كأنه يقول: إن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قَسَم، ثم جرت وأصبحت هذه كلمة دارجة على ألسنتهم على معنى القَسَم، فإذا قال: «لا أقسم» فهو حلف ويمين، ولذلك قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، فأثبت أنه قَسَم، وإن كان لفظه النفي؛ لأن «لا» هنا أشبه ما تكون بالتوكيد، أو بأنها جارية مجرى الإثبات[5].

ومواقع النجوم هي: مساقط النجوم، أي: أماكن مغيبها[6].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٠).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٣).

وقد ذكر تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وهو قَسَم أيضًا، فيكون قَسَمَه بمواقع النجوم مثل قسمه بالنجم إذا هَوَى، أي: أقسم بأماكن النجوم التي تختفي فيها، وكما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير:١٥- ١٦]، و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾ هي: الظِّباء التي تختفي في الكِناس، وهو بيت الظَّبي، فكذلك النَّجم كأن له بيتًا مثل الظَّبي يختفي فيه، يُقسم تعالى بالنجم إذا هَوَى، أي: إذا غاب[١].

أو يكون المقصود: القَسَم بالشُّهاب الذي يسقط، أو القَسَم بمحل النجوم، سواء كان ظاهرًا أو غير ظاهر.

وقد اكتشف علماء الفضاء أن ثمة نجومًا خُلقت ولا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في طريقه إلينا، وأن ثمة نجومًا احترقت منذ آماد طويلة ونحن لا نزال نرى ضوءها الذي وصل إلينا بعد مسافة طويلة قطعها بين مصدر الضوء الذي قد احترق، وسوف يتوقف الضوء عنا بعد آماد طويلة الله تعالى أعلم بها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: إشارة إلى أن عالم الكواكب والفضاء والنجوم واسع لا يحيط به البشر، وكل الذي نراه أو نقرؤه ليس إلا شيئًا يسيرًا بالقياس إلى ما لم تره، والأفلاك والكواكب والمجرَّات التي لم يكتشفها علم الإنسان أكثر مما اكتشفه بكثير، فلا زال العلم قاصرًا جدًّا.

وثَمَّ معنى لطيف، وهو أن السابقين من هذه الأمة ربما كانت معلوماتهم عن الفضاء والكواكب والمجرَّات محدودة، ولكن كان إيمانهم قويًّا، والقدر المحدود من علمهم أورثهم يقينًا وصدقًا وإخلاصًا، بخلاف حال أكثر الناس اليوم!

ورُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المقصود ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: مواقع نزول الآيات من القرآن الكريم[٢]؛ فإن القرآن نزل مُنَجَّمًا على ثلاث وعشرين سنة،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٧)، وما تقدم في «سورة النجم»، وما سيأتي في «سورة التكوير».

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٥٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢١٩).

بحسب الوقائع والأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، ولكن القول الأول أقوى.

* ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

هذا الذي تقرؤونه وتسمعونه وتخاطبون به هو قرآن مقروء يُتلو بالألسن، وهو مكتوب مسطور، ولذلك سماه كتابًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، و﴿كَرِيمٌ﴾ عظيم من الله سبحانه.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: وهذه من الآيات التي أَشْكَلت على بعض المفسرين، هل المقصود بـ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: المصحف الذي كُتب فيه القرآن، ولم يكن موجودًا آنذاك؛ لأن النبي ﷺ مات والقرآن لم يُجمع في كتاب واحد، ولكن الإشارة إليه باعتبار علم الله سبحانه بأن ذلك سيحدث(١).

فعلى هذا يكون المعنى: في كتاب محفوظ من الزيادة والنقصان، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وعليه يكون قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ دليل على أنه لا يجوز أن يلمس المصحف إلا إنسان متطهِّر من الحدثين الأصغر والأكبر.

وقد ضعَّف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول في تفسير الآية من عشرة أوجه(٢)، وذكر أن الآية مكية، لم يكن ينزل كثير من تفصيل الأحكام بمكة، ولم يكن القرآن مجموعًا في كتاب آنذاك، ثم إن المصحف قد يلمسه غير المسلم.

أما القول الثاني في المقصود: بـ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: فهو إنه اللَّوح المحفوظ(٣): ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١- ٢٢]، المحفوظ عند الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٣).

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٢٦- ٢٢٩). وينظر أيضًا: «فقه العبادة» (١/ ٤٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٤).

السماء السابعة[1].

والقول الثالث: أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة[2]؛ ولذلك قال مالك: «أحسن ما سمعتُ في هذه الآية: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إنما هي بمنزلة هذه الآية التي في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[3] [عبس: ١١- ١٦]. فأصح ما تُفسَّر به الآية: قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾.

فهذا يدل على أن المقصود: كتاب في أيدي الملائكة، وعليه يكون المقصود بالمطهَّرين: الملائكة.

وهذا القول فيه وجاهة، فالله تعالى طهَّرهم مثلما وصفهم بأنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وأنهم ﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾، والمؤمن طاهر، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إن المؤمنَ لا يَنْجُسُ**»[4].

* ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

فيه إثبات علو الله سبحانه، ولهذا نقول: «سبحان ربي الأعلى»، وأنه أنزل الكتاب على نبيِّه ﷺ.

* ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

سماه: حديثًا؛ لأنه كلام الله الذي ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

و﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: شاكُّون.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو: أنكم مجاملون لغيركم، أو مداهنون لهم[5].

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج».

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٣٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/ ٣٨٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «موطأ مالك» (٢/ ٢٧٩) (٦٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٣٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٣٨- ٣٣٩).

وكأن السياق عتاب لبعض المشركين الذين كان في قلوبهم ميل إلى الإيمان، ولكنهم يجاملون كبراءهم وجلساءهم، فلا يظهرون إيمانهم، بل يكتمونه، ويتظاهرون بالكفر، وهم بذلك كفار قطعًا، فيوافقون جماعتهم على أن هذا سحر أو شعر أو كهانة، وربما في داخلهم اعتقاد آخر، فالله تعالى يعاتبهم ويقول: أنتم أمام حديث واضح البيان قوي الحجة، فلماذا تكتمون الحقَّ، وتجاملون غيركم بالباطل؟

وفيه دعوة إلى أن ينفكَّ المسلم عن التفكير على طريقة «العقل الجمعي»؛ لأن الإنسان حين يكون منتظمًا في مدرسة أو جماعة أو طائفة بينه وبينهم علاقة، فهو يوافقهم على ما يقولون وينتحلون ويختارون من الآراء والاجتهادات والأقوال الفقهية والسياسية؛ لأنه لو خالفهم ربما سبُّوه أو آذوه أو اتهموه أو عيَّروه أو انتقدوه أو نفوه من بينهم، فأصبح خليعًا منبوذًا من جماعته أو عشيرته، حتى أولاده وبناته ينظر إليهم بريبة ويحاذرهم الناس لئلا يُقال عنهم ما يُقال، والفرد عادة حريص على التواصل مع نظرائه، وألا يتعرَّض لتأثيم أو تعيير أو عيب.

وهذا مدعاة أن يهز رأسه بالموافقة على الخطأ المشهور، والإعراض عن الحق المهجور، وبهذا يتميز المصلحون والقادة والمجدِّدون بأنهم يشقون طريقًا مختلفًا، ويصبرون ويتحملون، ويكون لديهم من سعة المعرفة وقوة الحجة، وسلامة المنطق واللسان، وعظمة الأخلاق ما يحفرون به مجرى جديدًا وتصحيحًا وتصويبًا، يحاربه الناس أول الأمر، ثم يتقبَّلونه، ثم يتعصَّبون له على غير وعي، فيحتاجون إلى مجدِّد آخر يزيل عنهم الغشاوة، والله المستعان.

ولذلك قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، فإذا عزلتَ إنسانًا عن مجموعته المؤثِّرة وجعلته في جو انفرادي، بدأ يفكِّر باستقلاله بعيدًا عن المؤثرات الخارجية، فيستخدم عقله وخبراته ونفسيته وروحانيته ويتضرَّع إلى الله سبحانه، فيصل إلى نتائج مختلفة فيها كثير من التجرُّد، ولهذا قال هنا: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والمعنى: أنكم تكذِّبون بهذا الحديث، وتُداهنون من أجل الحفاظ على مصالحكم، وتظنون أن رزقكم لا يتم إلا بهذا، كمثل موظف يوافق مَن حوله على ما يقولون؛ لأنه لو خالفهم يخسر وظيفته، فيكذب من أجل الوظيفة أو المنزلة أو المكانة أو العطاء، فهذا عتاب لمَن يفعل هذا.

وهذا قول ليس بالمشهور، لكن له وجاهة وسلاسة وترابط مع السياق.

والقول المشهور عند جماهير المفسرين: أنكم تجعلون بدلًا من شكركم لربكم أن تكذِّبوا[١]، فتقابلون نعمه التي لا تُحصى بالتكذيب؛ ولذلك قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لا على سبيل القراءة ولكن على سبيل التفسير-: «وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون»[٢]. ورُوي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا[٣].

الرزق يأتي في اللغة بمعنى: الشكر[٤]، وفي الحديث عن زيد بنِ خالد الجُهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: صَلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصبح بالحُدَيْبِيَة على إِثْرِ سماء كانت من الليلة، فلما انصرفَ النبيُّ ﷺ أقبلَ على الناس فقال: «**هل تدرونَ ماذا قال رَبُّكُمْ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما مَن قال: بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**»[٥]. وذلك لأن العرب في الجاهلية

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧١)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٢٢).

وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «فضائل القرآن» للقاسم بن سلَّام (ص٢١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٠).

وينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٦٥)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣١٠).

(٤) ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٧٠٧)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٣٨٨) «ر ز ق».

(٥) أخرجه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

كانوا يعتقدون أن النجوم تأتي بالمطر ويعتقدون أن الشِّعْرى أو الزُّهَرة لهما تأثير في الأنواء ونزول الأمطار، فنفى تعالى ذلك وبيَّن أن الأمر من عنده فكيف تشكُّون وتجعلون شكركم لنعمة الله تعالى بالمطر أو غيره ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؟ وتنسبونه إلى النجم أو الوثن، فهذا هو المعنى.

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال الشافعي وغيره من العلماء: إن من قال: «مُطرنا بنَوْء كذا»، وهو يقصد أن النجم هو الذي يُحدث المطر، أن ذلك من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن قالها وهو يقصد أن هذا هو موسمه وحينه المعتاد فلا بأس بذلك، وهو كقوله: مُطرنا في شهر كذا، أو يوم كذا، وإن كان تجنبه أفضل(١).

ولذلك لما استسقوا في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال عمر للعباس: «يا عباسُ، يا عمَّ رسول الله، كم بقي من نَوْءِ الثُّرَيَّا؟». فقال العباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العلماء بها يزعمون أنها تعترض بعد سقوطها في الأُفق سبعًا». قال: فما مضت سابعةٌ حتى مُطرنا(٢).

فعلى هذا فقد علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نَوْء الثُّرَيَّا وقت يُرجى فيه المطر، ولذا سأل العباس، والثُّرَيَّا- كما ذكر ابن عبد البر والبيهقي وابن حجر وغيرهم من أهل العلم-: نجم يطلع صباحًا في أول فصل الصيف عند اشتداد الحر في بلاد الحجاز.

* ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾:

إذا كان الأمر عندكم على هذا التكذيب والإصرار، فهلا أعدتم الرُّوح إذا بلغت الحُلقوم عند النزع والاحتضار؟(٣).

ولم يذكر ما هي التي بلغت الحُلقوم؛ لأن أمرها معلوم، والمعلوم قد يُستغنى

---

(١) ينظر: «الاستذكار» (٢/ ٤٣٧- ٤٣٨)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٦٠- ٦١)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٣٩٤- ٣٩٥)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/ ٣١).

(٢) ينظر: «مسند الحميدي» (١٠٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٠- ٣٧١)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٥٠٠-٥٠١)، و«الاستذكار» (٢/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٧- ٥٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤).

عن ذكره عند العلم به، وخاصة أن الروح أمر خفي، فأخفاها تعالى في السياق ولم يذكرها، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وللإشارة إلى عظمة الأمر، وفيه تحدٍّ مناسب للمقام؛ لأنه سيقول: أعيدوا الرُّوح، فإذا كان الناس لا يعرفون ماهية الروح ولا أين تسكن، ولا شيئًا من نواميسها، فكيف لهم أن يعيدوها إلى الجسد؟!

* ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

تنظرون إلى المحتضَر الذي بلغت روحه الحُلقوم، ليس بيدكم شيء غير النظر بعيونكم، تجعلونها يمنة ويسرة، ولم يذكر متعلّق النظر؛ ليبقى متعدِّدًا، تنظرون إلى المحتضَر مشفقين حزينين، وينظر بعضُكم إلى بعض نظر المتحيِّر العاجز، وينظرون إلى الطبيب، وينظرون إلى الأطفال الصغار[1].

* ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَنَحْنُ﴾: فيه تضخيم وتفخيم وتعظيم، وأنتم أقرب الناس إليه في رأي العين، ولكن الله تعالى بسلطانه وبعلمه وقدرته وبملائكته الذين نزلوا لقبض الروح ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أيها الأقربون[2].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: تأمَّل كيف قال في الآية الأولى: ﴿تَنظُرُونَ﴾، وهنا قال: ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾، وهذا عجيب؛ فهم ينظرون وعيونهم مفتوحة يشاهدون هذا المحتضَر؛ لكن لا يبصرون الرُّوح ولا الملائكة.

* ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أعادها مرة أخرى بسبب طول الفاصل، فأعاد الاقتراح عليهم والتحدِّي، فإذا كنتم تقولون: لا موت، ولا بعث، ولا جزاء، ولا حساب، وتزعمون أنكم

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٣)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٤)، والمصادر السابقة.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مجزيين[1]، فالدِّين هو: الجزاء[2]، وإذا كنتم مصرِّين على الكفر والتكذيب بالبعث، فارجعوا الروح إلى الجسد! وهو عالَم ليس لهم عليه سلطان.

وهذا التحدِّي أقوى وأوضح في عصر تقدمت فيه علوم الطب والعمليات المعقَّدة وزراعة القلب ومراكز الأبحاث المتقدِّمة التي لا سقف لها في نظر القائمين عليها، ومع هذا كله يظل الطب عاجزًا عن رد الموت إذا حان حينه، أو تأخير وقوعه ولو لحظة.

* ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

في نهاية السورة أعاد ما فصَّله في أولها بإجمال واختصار، كما هي العادة في سائر سور القرآن الكريم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا المحتضَر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾: والروح: الراحة[3]، ولذلك قال ﷺ: «مُسْتَرِيحٌ، ومُسْتَرَاحٌ منه». قالوا: يا رسولَ الله، ما المُسْتَرِيحُ والمُسْتَرَاحُ منه؟ قال: «العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدَّوابُّ»[4].

فهنا مستَرِيح، وقوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: راحة بعد الموت[5]، الإيمان بهذا يجعل

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣١)، و«اللباب» (١٨/ ٤٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٥).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٢٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٨)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥١٢)، ومسلم (٩٥٠) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٢٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٢٧)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢).

للحياة معنى مضاعفًا، وحتى الموت يستقبله المؤمن بطُمأنينة ورضا، وإن كان يكره الموت، كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ولكن إذا بُشِّر برضوان الله تعالى ورَوْح ورَيْحان أحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللهُ لقاءه[1].

والرَّيْحان هي: الرِّيح الطيبة، ومنه: الورد المعروف ذو الرائحة الزكية[2].

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ تنتظره عند الله تعالى.

* ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾: وهم الفئة الثانية ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي: تسلِّم عليه الملائكة وتبشِّره أنه ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي سلام لك فأنت ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[3].

ويحتمل السياق معنى آخر، وهو أن ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يسلِّمون على المحتضَر الذي هو من إخوانهم، ويقولون له: سلام لك. والملائكة تقول له: لك سلام نبلِّغه إليك من إخوانك ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ في الجنة الذين يستبشرون بمقدمك عليهم[4]، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

* ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وأما إن كان المحتضَر ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهُدى.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٦٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٠)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٥٠).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٩٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٤٩).

وقدَّم هنا وصف ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ على وصف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، عكس ما تقدَّم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾؛ لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب، وهو التكذيب؛ لأن الكلام هنا على عذاب قد حان حينه، وفات وقت الحذر منه، فبيَّن سبب عذابهم، وذُكِّروا بالذي أوقعهم فيه؛ ليحصل لهم ألم التندُّم.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: النُّزُل هو: الضيافة التي تقدَّم للضيف من القِرَى.

وإطلاقه هنا تهكُّم، كما تقدَّم قريبًا في هذه السورة: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

والحَمِيم هو: الماء الذي أُغلي حتى انتهى حرُّه، فإذا سُقُوه غلت منه بطونهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ التَّصْلِية: الإحراق والشَّوْي، يُقال: صَلَى اللحم، إذا شواه.

والجحيم يُطلق على النار المؤجَّجة، ويُطلق على جهنم، دار العذاب في الآخرة.

* ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾:

ليس هو ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ فحسب، بل هو ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا مرية فيه ولا جدل(١)؛ لأنه علم ضروري قطعي لا ريب فيه.

* ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

فسبحان ربنا العظيم وبحمده، ونسأله أن يلهمنا ذكره وشكره وحسن عبادته.

○○○

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٥١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٤).

سُورَةُ الحَدِيدِ

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الحديد**»، ولا يُعرف لها اسم إلا هذا، وهكذا جاءت في عدد من الأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة، وهو اسمها في كتب التفسير، وفي المصحف، وفي كتب الحديث[1]، وذلك لقوله فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٦].

*** عدد آياتها:** تسع وعشرون آية، وقيل: ثمان وعشرون[2].

***** وهي مدنية في قول الجمهور، وحُكي إجماعًا.

وفيها شيء من الطول، خلافًا للسور التي قبلها وبعدها، ولذلك قيل: إنها مدنيَّة[3].

والصواب أن غالبها مدني، وفيها بعض الآيات المكية، ومطلع السورة مكيٌّ في بضع آيات من أولها.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٢٢٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٠٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٢٨٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٤)، و«المستدرك» (٢/ ٤٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥)، وو«روح المعاني» (١٤/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) وقد اختلفوا في قوله: ﴿مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ⑬﴾، وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٤١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٤٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٤٥٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٢)، و«الإتقان» (١/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

وموضوعها هو موضوع القرآن المكي من الحديث عن البعث والألوهية وما يتعلق بقضايا العقيدة الكبرى.

وفي أثناء السورة حديث عن الإنفاق وحديث عن الشهادة ومناظرة مع أهل الكتاب، وحديث عن المنافقين، وهذه كلها من موضوعات القرآن المدني.

ولكن نظام السورة واحد مما يبيِّن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يحجب صدرًا من السورة أو جزءًا منها ثم ينزله وقتما يشاء، فيلحقه النبيُّ ﷺ بموضعه من السورة.

* ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾:

التسبيح هو: التنزيه[1]، وإثبات صفات الكمال له سبحانه، ونفي صفات النقص.

وقد ورد الاستفتاح بالتسبيح في صدر العديد من السور التي تسمَّى: «المسبِّحات»، كـ«سورة الجمعة»، و«سورة التغابن»، و«سورة الأعلى»، كما ورد في طي كثير من السور، كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وفي بعض السور استفتح بالتسبيح بلفظ الماضي، ومنه هذه السورة، وهي أول المسبِّحات، حيث قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، فهو خبر عن الماضي.

وفي بعضها استفتحه بالمضارع، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، وفي مواضع ذكر التسبيح بلفظ الأمر للمستقبل، كما في «سورة الأعلى»: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، والمقصود التنويع، ثم الإشارة إلى أن التسبيح لله كان منذ الأزل، فكل هذه المخلوقات منذ أن خُلقت وهي تسبِّح، فهي قد سبَّحت في الماضي، والآن تسبِّح، فليس تسبيحًا مضى وانتهى، وإنما هو تسبيح دائم مستمر، والأمر يدل على

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٢)، و«تاج العروس» (٦/ ٤٤٧) «س ب ح»، وما سيأتي في أول «سورة الحشر»، وأول «سورة التغابن».

التسبيح في المستقبل، كما يدل على التسبيح الاختياري التعبدي الذي كُلِّف به الإنسان خاصة، حيث أُمر بذلك أمرًا شرعيًّا تعبديًّا، بخلاف المخلوقات الأخرى التي أُمرت به أمرًا تكوينيًّا قدريًّا(١).

وتأمَّل كيف قال هنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يقل: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٤١]؛ لأنه لو قال: ﴿مَن﴾ لكان المقصود به البشر العقلاء، فلما عبر بـ﴿مَا﴾ دلَّ على أن المقصود المخلوقات كلها، لا سيما من غير البشر، فيشمل ذلك الحيوانات والنباتات وغيرها، كما يشمل الجماد؛ لأنها مخلوقات كغيرها(٢).

أما كُنْه تسبيح هذه المخلوقات، فقد قال بعضهم: إن تسبيحها هو كونها مخلوقة له سبحانه، فهو الذي خلقها، فهي تدل عليه وترشد إليه(٣)، كما قال الشاعر(٤):

فَيا عَجَبًا كَيفَ يُعصى الإلَـ ... ـهُ أم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ؟
ولله فـي كُـلِّ تَـحـريـكَـةٍ ... وتَـسـكـيـنَـةٍ أبـدًا شـاهِـدُ
وَفـي كُـلِّ شَـيءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلـى أَنَّـهُ واحِـدُ

فقالوا: تسبيحها هو إشارتها بالاعتراف والتعظيم لله الخالق الواحد سبحانه.

وقال آخرون: تسبيحها: انضباطها بمقتضى السُّنن والنواميس التي وضعها الله سبحانه(٥)، كما قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥]، فقالوا هذا الحسبان هو التسبيح، أنها منضبطة مأمورة في جميع حركاتها وسكناتها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤١- ٤٤٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، و«روح البيان» (٩/ ٣٤٤- ٣٤٥)، و«التفسير المظهري» (٩/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «ديوان أبي العتاهية» (ص١٢٢)، و«طبقات الشعراء» لابن المعتز (ص٢٠٧)، و«أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص٨)، و«شعب الإيمان» (١٠٤، ١٠٥)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٣).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤٢- ٤٤٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٥)، والمصادر السابقة.

وقال آخرون: التسبيح يشمل هذا وغيره(١)؛ بدليل قوله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إذًا ثمة تسبيح نفقهه، وهو إشارتها إلى خالقها، أو انضباطها بأوامره وسننه ونواميسه، وثمة تسبيح لا نفقهه، وهو نوع من التسبيح والعبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الكائنات، لا نستطيع أن نحيط به علمًا، فنقر أن الكون كله منخرط في حالة من التسبيح لله تعالى، والمؤمن منسجم مع هذا الكون، يشعر بأن الكون صديق له، ولهذا لما رقى النبيُّ ﷺ على جبل أُحدٍ قال: «أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ»(٢).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: فهذا اسمان من أسمائه سبحانه، و﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي عزَّ فغلب وقهر، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

و﴿الْحَكِيمُ﴾: الحاكم الذي يحكم ما يريد(٣).

ومن معانيها: الذي له الحكمة، فهو يضع الأشياء مواضعها، ويأمر بحكمة، وينهى بحكمة، ويضع السُّنن والنواميس وَفْق حكمة لا تُخطئ(٤) ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

* ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾:

استفتح بالتسبيح، ثم عقَّب ببيان ملكية المخلوقات له تعالى، فهو مالكها،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨١، ٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حُميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٢٨٨٩، ٢٨٩٣، ٤٠٨٣)، ومسلم (١٣٦٥، ١٣٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «مع الله» (ص٨٣، ٨٤، ١٩٧)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾، و«سورة التغابن»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾، و«سورة الملك»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

والمُلك- بضم الميم- معناه: أنه خالق السماوات والأرض، ورب السماوات والأرض، ومدبِّر السماوات والأرض[1]، فهي له ومنه وإليه، أما مِلك الناس إنما يسمى: «مِلكًا» بكسر الميم، وهو مِلك طارئ عابر ورثها من أبيه، وسوف يورِّثها لابنه، أو اشتراها وسوف يبيعها، وقد تُؤخذ منه بحق أو بباطل، أو يُنزع منها بالموت، فهو تسلُّط عابر محدود.

وكذلك الملوك ملكهم على أشياء دون أشياء، وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم العجز ولا الضعف ولا الموت.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: فكما أنه خالق السماوات والأرض، كذلك له الإحياء والإماتة، فكل حيٍّ فالله الذي منحه الحياة، وهو الذي يسلبه الموت متى شاء، فهو حيٌّ لا يموت، ولا ينام، ولا يغفل ولا يخطئ ولا يضل ولا ينسى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليست مقصورة على الحياة والموت فحسب، وإنما له القدرة التامة في كل شيء.

ويشبه هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

* ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ في الأصل تُطلق على الشيء الذي يأتي أولًا، لكن في السياق الرَّبَّاني يعني: السابق، الذي ليس له ابتداء، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «**اللهمَّ أنت الأولُ، فليس قبلكَ شيءٌ**»[2]. فهو الأول أولية أزليَّة بلا ابتداء، والعقل البشري غير قادر على أن يستوعب هذا المعنى بجماله، لكنه قادر على أن يؤمن به وألَّا يَزُجَّ بنفسه في مضايق يعلم أنه إن دخلها لن يخرج منها، فأجمل وأحسن ما يكون الإيمان أن يتلقَّاه الإنسان ببصيرة ويتلقَّاه من مصدره الأصلي الذي هو كتاب الله الكريم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ أي بعد كل شيء، فهو الآخر بلا انتهاء، ولهذا قال ﷺ: «وأنت الآخرُ، فليسَ بعدكَ شيءٌ»[1]. وهو الذي يمنح الخلود الأبدي لمَن شاء من عباده، تفضُّلًا ومنًّا، كما قدَّر سبحانه خلود الملائكة بعد القيامة، وأهل الجنة والجنة والأشياء التي أذن الله تعالى أن يكون لها بقاء سَرْمَدي، فهذه لها آخرية، ولكنها ليست من ذاتها، وإنما هي منٌّ منه سبحانه، فهو الذي منحها الخلود والبقاء والدَّوام.

و﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾: اسمان متقابلان من أسمائه تعالى، وهما متعلِّقان بالزمان، وبعضهم يعبِّر بـ«القديم» أو «الأزلي»، و﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ أولى[2].

والبعض قد يُطلقون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسم: (القديم)، وهذا قد يُطْلَق على سبيل الخبر، لكنه ليس من أسماء الله تعالى الحسنى، وإن كان جاء في دعاء النبي ﷺ، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ كان إذا دخل المسجدَ قال: «أعوذُ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم».

لكن هذا من باب الخبر عن الله تعالى، واستخدامُ اللفظ القرآنيِّ الربانيِّ الثابت في النصوص الكثيرة وهو «الأول» أولى وأفضل.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾: اسمان متقابلان متعلِّقان بالمكان.

فالظاهر هو: الذي ليس فوقه شيء، وهو يدل على العلو؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، فله علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة.

ومن معاني الظاهر: القوي الغالب أيضًا: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، أي: منتصرين[3]، فهو الغالب الذي يعطي النصر والقوة

---

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٩- ٦٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٠٤)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٤٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٨/ ٢٠٣).

والغلبة والعاقبة لمَن يشاء.

ومن معاني الظاهر: البيِّن الواضح الذي تقوم الحجج والبينات عليه؛ فإن الحجج شديدة الظهور على وجوده وألوهيته وربوبيته(١).

﴿وَالْبَاطِنُ﴾: فسَّره ﷺ بقوله: «وأنت الباطنُ، فليس دُونكَ شيءٌ»(٢). فهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء، وليس دونه شيء، وكل شيء فهو في علمه وسمعه وبصره وسلطانه.

ومن معاني الباطن: الخفي من حيث أن البشر لا يحيطون به علمًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأن العقول لا تستطيع أن تصل إلى كُنْه ذاته ولا صفاته(٣)، وفي هذا يقول الأول(٤):

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ ... والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّرِّ إشراكُ

فهو الإله الذي تتأله فيه العقول وتتحير، كما قيل(٥):

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ ... نِ غدا الفِكْرُ كليلا
أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ ... ـبِ وبلبلتَ العقولا
كلما أَقْدَمَ فكري ... فيك شبرًا فرَّ ميلا
ناكصًا يخبط في عَمْـ ... ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا

وهو الخفي الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللَّطيف الخبير.

---

(١) ينظر: «مع الله» (ص٢٥٩).

(٢) جزء من الحديث المتقدم.

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٦٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٢٠٨)، و«مع الله» (ص٢٥٩- ٢٦٢).

(٤) نُسب إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «ديوانه» (ص١٤٢).

ونُسب أول هذا البيت إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في «روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار» (ص٣٨٦)، و«الأشباه والنظائر» (٢/ ٢٠٣)، وقد ضعَّف ابن تيمية نسبته إليه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٦).

(٥) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (١٣/ ٥١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٠- ١٣).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: تأكيد لما سبق، وتمهيد لما يلحق؛ لأن المقصود من إظهار هذه الأسماء والصفات التأكيد على الربوبية التي هي الخلق والتدبير والمُلك، ثم الإلزام بالألوهية والطاعة والعبادة لله وحده لا شريك له.

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

انتقل السياق هنا إلى شأن ألصق بالإنسان؛ لأن ذكر السماوات والأرض يمهِّد لذكر ساكنيها، والأيام الستة هي من أيام الله، وليست من أيام الدنيا؛ لأنه قبل خلق السماوات والأرض لم يكن ثمة شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار، وإنما هي أيام الله تعالى أعلم بطولها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: إشارة إلى علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستواء: صفة نؤمن بها كما أخبر سبحانه، ونمرها كما جاءت، ونقرها من غير تأويل، نؤمن بأنه تعالى له عرش، لا نُدْرك كيفيته، ولا ينبغي أن نقول بغير علم، وإنما نَدَعُ اللفظ على جلالته وهيبته وعظمته، كما قال إمام دار الهجرة مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سأله سائلٌ عن ذلك، فقال: «الاستواءُ غير مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة»[1]؛ لأنه دخول في مضايق لا تزيد الإنسان إلا حيرة.

والأجدر بالمؤمن حين يقرأ هذا النص الإلهي أن ينشغل بتدبره تدبرًا يورث الحب والتعظيم والهيبة والوقار للواحد القهار، دون تقبل أي صورة في الذهن يمليها الخيال المحدود، ودون تشاغل بالتأويل وصرف النص عن سياقه.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل في باطنها، و﴿مَا﴾ عمومٌ يشمل كل شيء

---

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَّالَكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

يدخل في الأرض من المياه أو البذور أو البشر، مما يعلم الناس ومما لا يعلمون.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلمه قبل أن يخرج يوم كان في باطن الأرض، ويعلمه بعد خروجه، مثل خروج النبات والمعادن والبشر حين ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]، والماء والهواء والبراكين وما كان وجهه الرحمة، أو ما كان وجهه العذاب[١].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من الوحي، ومن الملائكة، ومن المطر، وغير ذلك مما يحيط علمه تعالى به.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد إلى السماء، كالملائكة والأرواح والأعمال[٢].

والمقصود التأكيد على عظمة علم الله وإحاطته بخلقه، وأنه لا مفرَّ منه إلا إليه، وهو علمٌ يملأ قلب المؤمن شعورًا برقابة الله له: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: وهذه أيضًا آية عظيمة، فهو معكم بعلمه[٣]، كما يقتضيه السياق، فلا تخفى عليه خافية: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بسلطانه[٤]، فإن الإنسان لا يخرج من سلطانه تعالى ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٩)، و«روح البيان» (٩/ ٣٥١).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٩٩).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بحفظه وكَلاءته[1]، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، فإذا جاء القدر خَلَّوْا بينه وبين الأمر الذي ينزل به، فإذا كانت عين الله تراقبكم وترعاكم، وعلمه معكم وسلطانه عليكم وحفظه وكَلاءته لكم، أفيجرؤا أحد أن يكون غافلًا عن ذلك صادًّا معرضًا عنه؟ وهو مع المؤمنين برحمته وعطفه ولطفه ونصرته وحمايته، خاصة حين يواجهون الأَذَى والعدوان، والظلم والطغيان، ولا يقدرون على دفعه عن أنفسهم ولا عن غيرهم، فيقاسون الغربة والسجن والتشريد والفقر والاضطهاد وتنكُّر الصديق، ولا يكون لديهم ملجأ إلا كنف الله اللطيف الخبير الحفيظ الذي يسكب في قلوبهم الصبر والرضا واليقين، ويطمئنهم بمثل هذه الآيات الكريمات.

ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأثبت لله تعالى صفة البصر، وفيه إشعار بمراقبته سبحانه لما يبدر من المرء من قول أو عمل.

* ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾:

أعاد التذكير بأن له ملك السماوات والأرض؛ من أجل أن يبني عليها حقيقة أخرى، هي الرجوع إليه يوم الدِّين، فالخلق منه وإليه، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ جمع: أمر، وأول ما يشمله ذلك البشر أن رجوعهم إليه تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]، وكما قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. فأثبت البعث بعد الموت، وحقَّق أن الرجوع إلى الله لا إلى غيره، فهو الحقيق بأن يحب ويخاف ويُرجى.

* ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾:

أي: يُدخل الليلَ في النهار، ويُدخل النهارَ في الليل.

ويحتمل المعنى: أن الليل يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، فهذا يطول وهذا يقصر بتعاقب الفصول الأربعة، وفي كل يوم يتغير الليل عن النهار بالزيادة والنقصان، يأخذ هذا من ذاك وذاك من هذا.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٤٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤٦).

وأجود منه أن يكون المعنى: أن النهار يحل محل الليل، والليل يحل محل النهار[1]، وذاك حين نرى الإسفار يبدِّد ظلمة الليل شيئًا فشيئًا، ثم غسق الليل حين تغيب الشمس، فتغطِّي ظلمة الليل ضوء النهار شيئًا فشيئًا.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: تأكيد على العلم، وإشارة إلى أن علمه بالمكنون كعلمه بما ظهر وجهر به الخلق، لا يَعْزُب عن علمه شيء؛ فعلمه شامل حتى لذات الصدور، وهي: ما يسرُّه المرء في صدره مما لم يتحدَّث به لأحد[2]، بل ربما يوجد في قلبك سرٌّ كنتَ في غفلة منه، وهو ما يُسمى: العقل الباطن، أو اللَّاوعي، مما يؤثِّر على سلوكه وتصرفاته وانطباعاته وأحاسيسه، وهو في غفلة منها، فالله يعلم ذلك كله.

وسمَّاها: «ذات الصدور»؛ لأنها لا زالت ملازمة للصدر لم تخرج منه بعد، ولم يعلم بها أقرب الناس إلى صاحبها، وربما كان صاحبها عنها في غفلة.

وهذا القدر من السورة- والله أعلم- نزل بمكة، نحو ست آيات، وعدَّ فيه بعضهم ستة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى: الله، العزيز، الحَكِيم، المَلِك، الخالق، القَدِير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، البَصِير، المُحْيي، المُميت، السُّبُّوح، العَلي، وفيها ما لا يثبت كونه من الأسماء الحسنى، ومنها ما يقع التردد في وجود دلالته في الآيات.

ولذلك قيل: إن اسم الله الأعظم في صدر «سورة الحديد». ورد ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن جُبير، وغيرهما[3].

وجعله آخرون صباحًا ومساءً من الورد الذي يقرؤه المسلم؛ لأنه جامع، بل إن بعض المعاني فيه، كـ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٨٧- ٣٨٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٦٧)، والمصادر السابقة والآتية.

* ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾:

هنا بداية ما نزل بالمدينة من السورة، وفيه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، لمَن لم يؤمن بعد، ودعوة لتجديد الإيمان وتفقده لمَن آمن واتَّبع الرسول ﷺ، كما يعني ترجمة الإيمان إلى أفعال تصدقه بالإنفاق في سبيل الله، فالإنفاق هو البرهان عليه، وفي الحديث: «الصدقةُ برهانٌ»(1).

دعاهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ المبلِّغ عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ، والذي أوحي إليه القرآن(2).

وعبَّر عن المال بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾، وفي بعض المواضع يذكر الله تعالى المال وينسبه إلى الإنسان، كما في قوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات:19]، ومرة ينسبه لنفسه سبحانه، كما في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: 33].

والذي يظهر أنه إذا كان المقام مقام مدحٍ وثناءٍ على بذلهم، نسب المال إليهم فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: هم يعتقدون أن في أموالهم حقًّا للسائل والمَحْروم؛ إشادة بكرمهم.

وفي نسبة المال لهم ثناءٌ عليهم؛ لسعيهم في كسبه بالحلال، ولتخلُّصهم من الشُّحِّ في تملكه مع كونه لهم من حيث الملكية الشرعية.

أما إذا كان المقام مقام دعوةٍ إلى الإنفاق وحَفزٍ وحَثٍّ، فإنه ينسب المال إلى الله، كما هنا؛ تذكيرًا لمَن يبخل، أو تحدِّثه نفسه بالبخل بأنه يبخل عن نفسه، ويبخل بما ليس له، وإنما حقيقته لله، وهو صائر عنه إلى غيره(3)، ولذلك قال ﷺ: «يقولُ

---

(1) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 389)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 402)، و«الوجيز» للواحدي (ص1067)، و«زاد المسير» (4/ 232)، و«لباب التأويل» (4/ 247)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 11).

وقيل: إن الخطاب هنا للمشركين. ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 368).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 369).

ابنُ آدمَ: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابنَ آدَمَ من مالكَ إِلَّا ما أكلتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟»[1]. وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على إنفاقهم.

* ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾:

فهذا رسول الله ﷺ حاضر بين أظهركم ويدعوكم للإيمان وأنتم ترونه وتسمعونه[2]، وحجج الله تجري على يديه، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان؟ ولا شك أن مَن عاصر الرسالة ورأى شخص الرسول ﷺ أَحْرَى بالتصديق والإيمان.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والذي أخذ ميثاقكم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[3]، وهذا إشارة إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي إحالة إلى ما يعلمه الإنسان في نفسه من أن الفطرة تدل على الله تعالى، وأن الإنسان لو استسلم لفطرته ولم يعاندها فإنها تدله على الله وتهديه إليه بإذنه تعالى وفضله؛ فإن الآيات المبثوثة في الكون وفي النفس، وكذلك العقل وهو من الفطرة التي فطر الإنسان عليها ترشد إلى الله وتدل عليه، وكذلك النفس فإن فيها فقرًا وعطشًا وجوعًا واضطرارًا لا يسدُّه إلا الإيمان بالخالق؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فلا تتحقَّق إنسانية الإنسان إلا بالإيمان بالله الخالق عَزَّوَجَلَّ، ثم إن الرسل والأنبياء جاؤوا بالوحي

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١١)، و«تفسير المراغي» (٢٧/ ١٦٤)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٧٠).

والإعجاز والدلائل الباهرات القاهرات على وجود الله وكمال أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة.

والعرب يتداولون قصة حي بن يقظان، ومغزاها: أن الإنسان لو عاش منذ طفولته بين بهائم وحيوانات أو في غابة، فإنه يهتدي إلى الإيمان بالله الخالق المبدع بفطرته، ولكنه لا يستطيع أن يهتدي إلى تفاصيل صفات الله(1)، ولذلك تاه الفلاسفة الذين دخلوا في أبواب الصفات والأسماء، وخبطوا خبط عشواء، وذهب جهدهم في غير طائل، وقال قائلهم(2):

نهايةُ إقدام العُقول عِقالُ ... وأكثرُ سعي العالمينَ ضلالُ
وأرواحُنا في وَحْشة من جسومنا ... وحاصلُ دُنيانا أذًى ووَبالُ
ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑨﴾:

فهذا من رحمته سبحانه أنه لم يكل الناس إلى أنفسهم، وإنما أنزل على رسله الآيات البينات التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وسماه: ﴿عَبْدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «**قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار**»(3).

---

(1) ينظر: «الموسوعة العربية العالمية» (9/ 591- 592).

(2) ينظر: «معجم الأدباء» (6/ 2590)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص468)، و«وفيات الأعيان» (4/ 250)، و«تاريخ الإسلام» (43/ 217)، و«البداية والنهاية» (17/ 13) منسوبًا إلى الفخر الرازي.

(3) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ㉓﴾.

والعبد هنا هو: الرسول ﷺ، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيِّد العابدين، وفي ذلك تشريف لمقام النبي ﷺ وثناءٌ عليه بالعبودية؛ فإن نسبته ﷺ إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، ولما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولا[(١)]، فمقام العبودية أشرف المقامات التي وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا ﷺ[(٢)].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: وهذه من أسمائه الحسنى، والفرق بينهما أن «الرؤوف»: صفة في دفع المضرة عن العباد، و«الرَّحيم» صفة في تحصيل المصلحة لهم[(٣)]، ولهذا قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، فالرَّأفة هي في منع الضرر، فلا يترك تعذيبهم وجلدهم رأفة بهم.

والرحمة تقتضي إيصال البر والخير والجود إليهم؛ ولذا فـ«الرَّحيم» أعم وأوسع، والله تعالى أعلم.

* ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾:

دعاهم إلى الإيمان، ثم دعاهم إلى الإنفاق، ثم عاتبهم عل التباطؤ في الاستجابة للإيمان مع توفر أدلته وقيام براهينه، ثم عاتبهم على التباطؤ في الإنفاق

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٠٨)، والمصادر السابقة، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، و«سورة العلق»: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٦٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٨٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٨٣).

في سبيل الله وهو لهم في عاقبته، فهو قرض حسن مضاعف، ولذا وصفه بأنه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وعقَّب بأن ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو لله، وليس لكم، فأنتم راحلون وتاركوا ما وراءكم لغيركم، وإنما مالكم ما قدَّمتم ومال وارثكم ما أخَّرتم، ولو فقهتم هذا لبادرتم بالإنفاق؛ لأنكم تنفقون لأنفسكم لا لغيركم.

وفي الآية التذكير بغنى الله عنكم إذ له ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ [محمد: ٣٨].

وفيها الإشعار بأنه سبحانه يخلف على المنفقين، كما قال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾: فيه دليل صريح على أن الآية مدنية؛ لأن المقصود: فتح مكة[1]، فهي متأخِّرة النزول إذن.

وقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾ دليل على أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وفي أعمالهم الصالحة، وهذا تأصيل مهم؛ فالله خلق الناس متفاوتين وفضَّل بعضهم على بعض، حتى الرسل فضَّل بعضهم على بعض، وليست العبرة بالأشياء التي لا يد للإنسان فيها، وإنما بالعمل والإنجاز والفعل، فهي دعوة إلى التنافس والتسابق في الخير، والمبادرة واغتنام الفرص التي تسنح ثم تذهب، ويكون الفضل لمغتنميها، ويبقى لغيرهم الأسف والندم والحسرة على الفوات.

و﴿ٱلۡفَتۡحِ﴾ المذكور هو: فتح مكة، عند جمهور المفسرين، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وقيل: هو صلح الحُدَيْبِيَة، وهو فتح بحق، وقد سماه تعالى فتحًا، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح:١]، ونُقل هذا عن أبي سعيد الخُدْري، ورجَّحه الطبري

---

(١) على خلاف في ذلك، كما سيأتي.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٦)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠١).

وجماعة[1]، والأمر واسع.

والآية تفضيل في المقام والأجر لأولئك الذين أنفقوا من قبل فتح مكة وأيام شَظَف العيش والفقر والمَسْغَبة، وكانوا ينفقون من قوتهم وقوت أولادهم، وأنهم لا يستوون مع الذين تحرَّكت هممهم للإنفاق بعدما رَأَوْا بوادر الفتح والنصر، لا يستوي هؤلاء وأولئك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدَّم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا؛ لأنهم السابقون المبادرون، الأصلح نية، والأكثر عطاء، والأقدم إسلامًا.

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾: لدفع التوهم أن يكون هؤلاء الذين أنفقوا من بعد لم يُقبل منهم، فالله تعالى وعدهم جميعًا بالحسنى.

وهذا تشجيع للمسلمين على المبادرة والمسارعة والمسابقة في الخير: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة:١٠- ١١]، المبادرة في البذل، والإنجاز، والتغيير الإيجابي، حتى حينما يكون الناس مستوحشين منه، هذا له مزية، والله تعالى أشاد بأصحابها.

والمبادرة هي السنة الحسنة التي تفتح ذرائع الخير، وتسهِّل أسبابه، وتذلِّل صعابه، وأكثر الناس أَتْباع لا قادة؛ ولذا يحتاجون إلى مَن يشق لهم الطريق، ويبدأ التجربة، فيكتشفون من بعده قدراتهم الشخصية، ويعرفون مواطن الخير والبذل.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾: فكأن هؤلاء جميعًا من المحسنين السابقين واللَّاحقين، وفي ذلك إشادة بالجيل الأول، أصحاب النبي ﷺ، سواء الذين أسلموا وجاهدوا وأنفقوا قبل الفتح أو بعده، المهاجرين منهم والأنصار، والذين أسلموا قبل فتح مكة، والذين أسلموا بعده.

وفي بعض كتب التاريخ وبعض ما يُطرح اليوم في الإعلام انتقاص وازدراء للذين أسلموا بعد فتح مكة ممن يسمُّوهم: «الطلقاء»؛ لأن النبيَّ ﷺ قال لهم:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١٠٣)، والمصادر السابقة.

«اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»[1]، فحين يقولون: فلان كان من الطُّلَقاء، في معرض اللَّمْز والطعن، والله تعالى وعدهم الحسنى؛ مما يدل على أنهم محسنون في الجملة، نعم يوجد آحاد فيهم ضعف ونقص، ولكن في الجملة كانوا مسلمين صادقي الإسلام، لم يكن فيهم منافق ولا مُدَّعٍ، وكانوا أهل صلابة في شخصياتهم، ولو أرادوا النفاق لعرفوا سبيله، بل فيهم مَن قاتل في صفِّ الباطل والشرك الممثَّل في كيان سياسي واجتماعي له جذور تاريخية، وحين تهاوى البناء انكشف لهم الأمر، وحانت فرصة أن ينتصروا على أنفسهم ويلحقوا بالرَّكْب ولو متأخرين.

* ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾:

دعوة مؤكّدة إلى الإنفاق، والإقراض هو: أن تعطي إنسانًا مالًا ليرد إليك بدله بعد حين من غير زيادة[2]، ولهذا قال هنا: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، فهو من غير ربا ولا زيادة؛ لأن القرض هنا إرفاق بهذا المحتاج، فالله سبحانه عبَّر عما يبذله المؤمن في سبيله بأنه: «قرض حسن»، كأنَّ المؤمن يقرضه ربَّه.

ومعنى كونه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: أنه لوجه الله، لا رياء ولا سُمعة، وباذله لا يتبع قرضه وإنفاقه منًّا ولا أذًى، ولا يطلب منه مصلحة أو زيادة أو غرضًا من أغراض الدنيا، وهو يبذله من طيب ماله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ولذلك لما نزلت هذه الآية- كما ذكر ابن كثير، وغيره[3]- قال أبو الدَّحْداح الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، وإن اللهَ ليريدُ منا القرضَ؟ قال: «نعم، يا أبا

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢- ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠- ٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٩٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧- ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧- ٥٦٨)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٥٩).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٥٨٢)، و«النكت في القرآن الكريم» (ص٤٨٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٢٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٤٨٢).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (٣/ ١١٠٢)، و«لسان العرب» (٧/ ٢١٧) «ق ر ض».

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤- ١٥).

الدَّحْداح». قال: أَرِني يدكَ يا رسولَ الله. فناوله يدَه، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي. وله حائطٌ فيه سِتمائة نخلة، وأم الدَّحْداح فيه وعيالُها، فجاء أبو الدَّحْداح فناداها: يا أم الدَّحْداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي؛ فقد أقرضتُه ربي عَزَّوَجَلَّ(1).

وفي رواية أنها قالت له: رَبح بيعُك يا أبا الدَّحْداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسولَ الله ﷺ قال: «كم من عِذْقٍ رَداحٍ لأبي الدَّحْداحِ في الجنة»(2).

إن الارتباط بالحقل ليس مجرد حب مادي، بل هو اتصال عاطفي، فتحت كل شجرة ذكرى، وفي كل بقعة تاريخ؛ هذه الشجرة زُرعت يوم ميلاد فلان، وتلك يوم أَثْغَر، وهذا الجدول حُفر يوم زواج فلانة.. علاقة حميمية إنسانية تمثِّل جمال الحياة وروحها، يرضى المؤمن طائعًا مختارًا أن ينفصل عنها، كما رضي المؤمنون المهاجرون أن يخرجوا من ديارهم وبيوتهم في سبيل الله إلى أرض لم يعرفوها وبلاد لم يألفوها.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾: هذا الوعد الإلهي يبيِّن أن لفظ القرض استعير لتشجيع النفوس على البذل، وإلا فالمال كله لله، والله هو الغني، لا يحتاج لأحد، ولذا ذكر معنى آخر يشجِّع على البذل والإنفاق، وهو خلاف ما يجب في أمر القرض الدنيوي وهو مضاعفة القرض الذي دفعه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ومع هذا ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فالأجر عطاء من الله وقد يكون هو المغفرة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، فثَمَّ ترابط بين المغفرة والصدقة والإنفاق، ولذلك فالمبتلَى بذنب أو عيب عليه أن يكثر من الصدقة؛ فـ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (٤١٧ - تفسير)، و«مسند البزار» (٢٠٣٣)، و«مسند أبي يعلى» (٤٩٨٦)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٦٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ ٣٠١) (٧٦٤)، و«شعب الإيمان» (٣١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٨٢)، وعبد بن حميد (١٣٣٤)، وابن حبان (٧١٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٠٠) (٧٦٣)، والحاكم (٢/ ٢٠)، والضياء (٥/ ٥٩) (١٦٧٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بدون ذكر سبب النزول.

وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٩٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٦٤).

ولأن القرض كرم من المُقرِض وصف الأجر الموعود بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾، ولكن الله أكرم منه، حيث ضاعف له ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

* ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

لما ذكر القرض والسَّداد والمضاعفة تشوَّفت النفوس لمعرفة وقت الوفاء والرد، فجاءت هذه الآية الكريمة، و﴿تَرَى﴾ هنا هي للنبي ﷺ ولكل أحد يصلح له الخطاب يوم القيامة، وفي ذلك تأكيد على أن المرأة كالرجل في الأعمال الصالحة، هي كالرجل في الإيمان الذي هو أصل العبوديات كلها، وفي الإنفاق، كما في قصة أم الدَّحْداح؛ حيث المرأة تحفِّز الرجل على البذل أو تصدُّه تحججًا بالحاجة والخوف من العَوَز والتذكير بالصبية وخطر الجوع والفقر.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: هو يوم ونهار، ولكن الجو ظلام، والشمس يوم القيامة تدنو من الخلائق، حتى يلجمهم العرق إلجامًا(١)، فهذا وقت وهذا وقت، فيأتي عليهم وقت يكون الناس فيه في ظلام دامس، لا شيء حولهم ولا يرون شيئًا، هذا جزء من مشاهد ذلك اليوم، وهذا منصوص عن جماعة من السلف في معنى الآية(٢).

والآية تتحدَّث عن حالة خاصة يسير فيها الناس صَوْب شيء أمامهم، ولذا عبَّر بالسَّعي، وهو المشي الشديد(٣)، ويقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا! فهي مرحلة

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ، فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إلْجامًا». وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فِيهِ. وينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٣٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤١١)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٨٥) «س ع ا»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٢٢٢).

اجتياز لمكان مظلم، وإن كانت ضمن أحداث ذلك ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، الذي هو يوم القيامة.

فالله تعالى يعطي كل أحد نورًا، المؤمن والمنافق في بداية الأمر:

أما المؤمنون فـ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وقد يكون النور الذي بأيمانهم هو نور الكتاب، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩].

ويمكن أن يكون هذا باعتبار أن المؤمنين والمؤمنات قسمان؛ منهم مَن يسعى نوره بين يديه، وهم السابقون، ومنهم مَن يكون نوره يسعى بيمينه، وهم أصحاب اليمين.

ويمكن أن يكون للمؤمن نوران: نور بين يديه، ونور عن يمينه، فهم يمشون والنور يمشي معهم يضيء لهم الطريق.

وهذا المعنى ورد في «سورة التحريم» في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾، ويقال لهم وهم كذلك: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيُبشَّرون بالجنة[1].

وعبَّر بالسَّعي؛ دلالة على سرعة المشي هناك، كما كانوا سراعًا إلى الخير في الدنيا، وفيه إشادة خفية بالذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وكونه بين أيديهم، يعني أنه أمامهم، ولكنه قريب منهم غير بعيد.

* ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾:

المنافقون والمنافقات كان معهم نور ثم انطفأ في وسط الطريق، فالتفتوا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقولون لهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: انتظرونا، اصبروا قليلًا، ولا تسرعوا حتى نصحبكم ونقتبس من نوركم، ونتعرف به على الطريق.

وإما أن تكون القراءة: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ بهمزة الوصل، وإما أن تكون: ﴿أَنظِرُونَا﴾

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

بهمزة القطع، من الإنظار، وهذه قراءة سبعية[(١)]، والمعنى واحد: انتظرونا[(٢)].

ولا يصح أن يكون المعنى: انظرونا بعيونكم، وإن كان الفعل هو نفسه، لكن إذا كان النظر بالعين فإنه يُعدَّى بحرف الجر «إلى» ولذا لا يصح أن تقول: «انظرني»، وإنما تقول «انظر إلي»، ﴿انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وأما ﴿انظُرُونَا﴾ فمعناه: انتظرونا توقَّفوا قليلًا[(٣)]؛ ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نأخذ من نوركم قبسًا يضيء لنا[(٤)].

﴿قِيلَ ارْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾: يحتمل أن يكون قائل هذا: المؤمنين، والأرجح أنه من قول الملائكة، أي: ابحثوا عن نور هناك خلفكم[(٥)].

وقوله: ﴿ارْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ تعريض بحالهم في الدنيا، وأن النور كان معهم، فربما حمل أحدهم المصحف، وربما صلَّى أو زكَّى أو صام تظاهرًا من دون إيمان، وربما قاربت قلوبهم أن تضيء، ولكنهم أعرضوا عنها، فهذا يشبه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾: يرجع المنافقون والمنافقات إلى المكان الذي كانوا فيه يلتمسون النور، فإذا رجعوا ضُرِبَ بينهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٤)، و«معجم القراءات» (٩/ ٣٣٤).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٦٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٩٩- ٧٠١).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٢).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٣٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٥)، و«فتح البيان» (١٣/ ٤٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٢).

بسُور، أي: جدار مما يعلم الله من الغيب[1]، بعضهم يقول: إنه سُور بيت المقدس، وجاء في ذلك روايات وأساطير لا تثبت عن كعب الأحبار امتلأت بها كتب التفسير أنه سُور بيت المقدس[2]، والباب: باب الرحمة، وعندهم وادٍ اسمه: وادي جهنم، ويظنون هذا الفاصل ما بين الرحمة وما بين العذاب..

وهذا كله مما ينبغي تنزيه كتاب الله عنه، فالشأن شأن الدار الآخرة، ولا علاقة له بما في بيت المقدس من هذه المسميات التي سماها الناس؛ اعتمادًا على حكايات إسرائيلية لا تثبت[3].

والضَّرب بالسُّور، يعني: وضعه، فأُقيم بينهم وبين المؤمنين سُور حاجز، وهو يدل على أن المنافقين أرادوا أن يلحقوا بالمؤمنين مرة ثانية ثم وجدوا السُّور مضروبًا أمامهم، ولم يقدروا على تجاوزه.

وهذا السُّور: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾، يعني: سُور فيه المؤمنون، وفيه الجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ يعني: الوجه الثاني الذي إلى جهة المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ يعني: فيه العذاب، فالمؤمنون في العناية والرِّعاية، والمنافقون في الطرد والإبعاد: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ: ٢٦].

* ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾:

في خطابهم الأول للمؤمنين عبَّر بـ﴿يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾؛ لأنهم كانوا معًا بلا حاجز، أما الآن فقد فُصل بينهم بفصل سرمديٍّ ﴿بِسُورٖ﴾، وابتعد بعضهم عن بعض، ولذا استخدم لفظ النداء: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، وهو استفهام تقرير، أي: كنا معكم في الدنيا، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم، ويعيشون معهم،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧)، و«تفسير السعدي» (ص٨٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٨)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨).

ويصلُّون، ويجاهدون، فيأتيهم الرد من المؤمنين والمؤمنات: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، فربما وجد أحدُكم في قلبه ميلًا للإيمان أو رغبة في التوبة فلا يستجيب له، بل يكتمه ويمضي قُدُمًا لا يَلْوي على شيء، طمعًا في مال أو دنيا أو سلطان أو شيء من هذا القَبِيل، وهذه فتنة للنفس.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: فكانوا يتربَّصون بالمؤمنين الدوائر(١)، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فهم يتربَّصون بالمؤمنين أن يأتيهم عذابٌ أو يرجعوا عن دينهم أو ينتصر عليهم عدوُّهم أو يحصل بينهم شقاق وافتراق.. وكانوا ينتظرون غفلة أو ضعفًا أو تكالبًا من عدو، لينضمُّوا إليه ويُجْهِزُوا على المؤمنين، ولذا لم يستجيبوا للحق.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾: وقع في قلوبكم رَيْب لم تحاولوا معالجته(٢)، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، ﴿وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: التمنيات(٣)؛ أنهم كانوا يتمنون أشياء في الدنيا ويواعدون أنفسهم بها ويتحرَّونها ويوهمون أنفسهم بها من عاجل الحياة الدنيا ومن سوء مصير المؤمنين، فهذه الأماني غرَّتهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ والمقصود هنا: الموت(٤).

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٦)، و«اللباب» (١٨/ ٤٧٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٨٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٦)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣١٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٦).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٤٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٤٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٧).

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: و﴿ٱلْغَرُورُ﴾: اسم من أسماء الشيطان الرَّجيم[1]،

* ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

لقد كانوا يُسألون في الدنيا القرض الحسن- ولو بالقليل من المال- فيبخلون، ويموتون والأموال مكدَّسة عندهم لم يبذلوها ولم يُقْرِضوها، فهل كانوا يدَّخرونها لتكون فِدْية تنجيهم من عذاب الله يوم القيامة؟

ففي ذلك الموقف مهما بذل الإنسان وأعطى، فإنه لن يُقبل، على أنه لا يوجد عنده شيء يمكن أن يفتدي به: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦] ولكن ليس لهم شيء يوم القيامة حتى يفتدوا به، وإذن لا يُقبل منكم أيها ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، و﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مصيركم النار، فهي أولى بكم وأجدر[2]؛ بحكم ما كنتم عليه من النفاق والتلون والخداع والتضليل وسوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

هذه الآية قيل: إنها مكية؛ حيث ورد أن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية، إِلَّا أربعُ سنينَ»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٨٧).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص٢٢٥)، و«لسان العرب» (٥/ ١٢)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢١٥) (غ ر ر).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٥)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

وجاء عن جمع من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- منهم ابن عباس- أنهم قالوا: إنهم خُوطبوا بالآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من إيمانهم[1].

وفي ذلك آثار عديدة؛ فالأقرب أن الآية مدنية، والله أعلم، والسياق مدني.

وأما قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية إلَّا أربعُ سنينَ». فلعل هذا محمول على ملأ من الصحابة ممن تأخَّر إسلامهم، وليس على خصوص ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي القصة معنى لطيف، وهو أن الإنسان يكون خشوع قلبه وحضوره في أول إيمانه أكثر؛ لأنه حديث عهد بالجاهلية والمعاصي، فإذا سمع القرآن أو صلَّى أو دعا أو سمع موعظة، أجهش وتأثَّر؛ لطراوة إيمانه وحماسه وحضور قلبه، فإذا مضى عليه وقت هدأت نفسه، وتحوَّلت بعض العبادات إلى شيء من المألوف، وعافس الأزواج والأولاد والضَّيْعات والأموال، ونسي ولابسته غفلة.

ولذلك رُوي أنه لمَّا قدم أهلُ اليمن في زمن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هكذا كنا، ثم قستِ القلوب»[2].

يعني إنه في فترة مضت كان أكثر رقة، وهذا نوع من عتاب النفس[3].

فلذلك خاطبهم سبحانه وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، وهو مأخوذ من «الإنى» بالألف المقصورة، وهو الوقت[4]، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٤٩)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٠٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٢٥٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٨٠).

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٢٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٣-٣٤).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥٣)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«الوجيز» للواحدي (ص١٠٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٠).

﴿نَظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي: غير منتظرين وقت نضجه[١]، أي: ألم يحن؟ وهذا استفهام المقصود منه التقرير والاستدعاء والطلب[٢]، أي: قد آن لكم أن تخشع قلوبكم بعد أن آمنتم وأن يتحوَّل الإيمان إلى حركة في الرُّوح ويقظة في الضمير[٣].

فالخشوع هو: الإخبات والانكسار له سبحانه، وأن يكون في القلب يقظة للآيات والذِّكر، وقد دعاهم إلى الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق، والذِّكر في الأصل شامل للقرآن وغيره، أما وقد عطف عليه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ - وهو القرآن- فيكون المقصود بالذِّكر: التسبيح، وعموم الذكر والدعاء ونحوه[٤].

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾: وهم اليهود والنصارى[٥]، فهم أُوتوا الكتابَ، وحصل لأولهم إيمان وخشوع، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: طال عليهم الزمن[٦]، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يحذِّر المؤمنين أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فيطول عليهم الزمن، وتقسو قلوبهم، كما قال لليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ

---

(١) ينظر: «إيجاز البيان» (٢/ ٦٧٥)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٢٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٢٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ١٥٧)، و«التفسير المظهري» (٧/ ٣٧١).

(٢) ينظر: «العين» (٨/ ٤٠٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٩٠)، و«مقاييس اللغة» (١/ ١٤٣) «أ ن ى».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٢)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٢٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٠-٧٣٢١)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٠).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦١)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩١)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥٤٧).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠).

(٦) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٧).

لِلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهنا سؤال: هل طول الأَمَد يسبِّب قوة الإيمان ورسوخه، أم يسبِّب ضعفه وقسوة قلب العبد؟

على الصعيد الفردي يعتمد الأمر على المجاهدة والعمل، فالزمن عنصر محايد يمكن توظيفه في ترسيخ الإيمان وحشد دلائله، وفي العبادة والخير وطلب العلم وصحبة الصالحين، فيكون طول العمر سببًا للقرب من الله.

ويحدث غالبًا أن يقع المَلَل والتثاقل والميل للشهوات وترك الجِد والحزم، فيكون الزمن سببًا للغفلة وضعف الإيمان.

والآية تشير إلى سُنَّة إلهية غالبة، في أن الأمم والدول تبدأ قوية، وفيها اندفاع واهتمام، ثم يدخلها الضعف والترهُّل والرُّكون إلى الدنيا والفساد والأَثَرة، ثم تحق عليهم السنة ويعم الضعف: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وفي هذا الخطاب الربَّاني اللَّطيف دعوة إلى الوعي واليقظة؛ لأن الزمن ليس في صالحك دائمًا، فإذا لم توظِّف الزمن توظيفًا إيجابيًّا، فستكون سريع الانهيار، وهكذا الدول والقوى المختلفة.

ولذلك كان أفضل هذه الأمة: الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وهذا شاهد على السُّنَّة الإلهية على أن الأمة لا تخلو من خير حتى في آخرها، ولكن الكلام عن المجموع[1].

وبعض الناس يغلبهم التشاؤم فلا يرى الناس إلا في هلاك وفساد، وأن العصر عصر انحلال، وبعضهم- مع هذا- يتخيل أن دولة الخلافة الراشدة على الأبواب.

---

(١) وفي الحديث: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...». أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث آخر: «مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدرَى أوَّله خيرٌ أم آخرُهُ»، وقد تقدم تخريجه، وينظر للتوفيق بينهما ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، و«سورة الجمعة»: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾.

وهذا توقع مجافٍ للسياق التاريخي، وليس له ما يسنده من سُنَّة ولا من واقع، والمطلوب الاعتدال والتوازن، فلا يأس ولا قنوط ولا تشاؤم، ولا تواكل ولا غفلة ولا مبالغة.

* ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾:

هذا مَثَل ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الخشوع والإيمان(١)، فيا مَن تشعرون بقسوة في قلوبكم لا تيأسوا، و﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾، فكما أن الأرض الميتة تحيا بالمطر فتصبح خاشعة: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت: ٣٩]، كذلك أنتم أيها المؤمنون إن شعرتم بقسوة في قلوبكم فتذكَّروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي: فيحيي قلوبكم بالإيمان كما أحيا الأرض بالمطر؛ ولهذا شبَّه النبيُّ ﷺ الوحي بالمطر، فقال: «**مَثَلُ ما بعثني اللهُ به من الهُدَى والعلم، كمَثَل الغَيْث الكثير أصابَ أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أَجَادِبُ، أمسكت الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابتْ منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مثلُ مَن فَقُهَ في دين الله، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثلُ مَن لم يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولم يَقْبَلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْت به**»(٢).

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: فالقرآن الكريم يبعث على الخشوع، فهو ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو أهم سبب للإيمان ويقظة القلب؛ لأنه آيات الله البينات، وحججه الواضحة، وحديثه وكلامه إلى خلقه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]!

واختار كلمة: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ قصدًا؛ فالخشوع ليس نقيضًا للعقل، وليس هو حالة خاصة البسطاء السُّذَّج الذين ليس لديهم عقل يفكِّرون به، أو ليس لديهم قدرات

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذهنية على التحصيل، فالإيمان دعوة إلى عقول نيِّرة تعقل وتتفكَّر، والعقل هو من أعظم الأدلة والشواهد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، على وجوده وعلى أسمائه وصفاته، ومن غير عقل لا يوجد تكليف أصلًا، والخشوع ليس نقيضًا لوجود العقل الرشيد الذي يهتدي به المؤمن في مصالح دنياه وأسرته ووظيفته ودراسته وأمته ومشاريعها في النهضة والتنمية والتقدُّم، فهما قرينان لا ينفصلان، وإذا انفصلا وقع في الأمة انحراف؛ إما إلى الغلو أو التفريط، فيكون السلوك التعبُّدي منفصلًا عن العقل، ومنفصلًا عن الفقه والشريعة، أو يتجَّه العقل المجرَّد المغرور للاتجاهات المادية.

إن الضعف حالة إنسانية أصيلة، وأعتى الناس وأطغاهم وأقساهم إذا مرض أو هَرِم أو يئس أو تعرَّض لأزمة ما.. انكشفت بشريته المخبوءة تحت ستار الوهم والتعاظم والكبرياء الكاذب!

* ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

في قراءة سبعية: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَٰتِ﴾، بتخفيف الصاد[1]، من الصدق، فعلى هذه القراءة تكون الآية ثناءً على المؤمنين والمؤمنات.

وفي القراءة الأخرى بالتشديد، يعني المتصدِّقين، وأدغمت التاء في الصاد[2].

فيكون الله تعالى أثنى على النساء والرجال بالإيمان والصدقة، كما قال سبحانه: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد:١٥- ١٨]، وقال هنا: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

وأثنى على النساء في الصدقة كما أثنى على الرجال، وفيه إشارة صريحة إلى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤١١- ٤١٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٢٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٠٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٨٤).

(٢) ينظر: «معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٥٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٤٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٢٧٤- ٢٧٥)، و«حجة القراءات» (ص٧٠١).

حق المرأة في التملك؛ لأنها إنما تتصدَّق من مالها، وفي العالم الغربي قبل مائة وخمسين سنة لم تكن المرأة قادرة على التملُّك، في حين جاءت آيات تحثها على الصدقة، وهي لن تتصدَّق إلا من مال لا يتسلط عليه أبوها، كما يفعل بعض الآباء الجشعين الذين لا يخافون الله، فيتسلَّطون على رواتب بناتهم، وربما يحرمها من الزواج من أجل مالها، أو يسخط عليها إذا لم تعطه، ويحرجها من باب الأُبوة، وقد يعيِّرها أو يسبها، ولا يتسلط عليها الأزواج الذين يبحثون عن امرأة ذات غنى ومال، مع أن النبيَّ ﷺ قال: «فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يداكَ»(1).

* ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾:

أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المؤمنين بالله والرسل بأنهم ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، و﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هم: السابقون، أو من السابقين، وقد ذكر سبحانه في القرآن ألوانًا من الصِّدِّيقين، كما ذكر عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، وكما قال عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥]، ومن هذه الأمة أفضلها بعد نبيها: أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو وُزن إيمانه بالأمة لوزنها ورجح بها(2)، فالصِّدِّيقية ليست شيئًا مستحيلًا، وهي أعلى درجات الإحسان، وهي الرتبة الرفيعة النادرة التي يصطفي لها الخلاصة والخاصة من عباده السابقين، وحين جعل الله درجات الإيمان والإحسان والإسلام كان ذلك لتحفيز الناس إلى أن يترقوا في درجات الإيمان والإحسان، ويتنافسوا فيها، ويتسابقوا إليها، كما يتسابق أهل الدنيا إلى مقاماتها ومنازلها.

والصِّدِّيقية تعني سرعة التصديق، ولذلك سُمِّي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصِّدِّيق؛ لأنه

(1) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ورد ذلك من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (٦٥٣)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (٨٢١)، و«السنة» للخلال (١١٣٤)، و«الإبانة الكبرى» (١١٦١)، و«شعب الإيمان» (٣٥)، و«تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢٦- ١٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٥)، و«الفوائد المجموعة» (ص٣٣٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٣٤٣).

أول مَن صدَّق وأسرع مَن صدَّق، ولم يُقل له عن الرسول ﷺ في شيء إلا قال: «صدق صدق»(١).

لكن حذار أن يفهم أحدٌ أن معنى التصديق أن يكون عقل الإنسان قابلًا لأن يصدِّق كل خبر دون نظر وتفكُّر، مستَقَرًّا للخرافات والأساطير، وإنما يُصدِّق بما هو مُتعبَّد بالتصديق به من قول الله سبحانه وقول رسوله ﷺ الثابت بالإسناد الصحيح، ويصدِّق الحقائق العلمية النافعة في الدنيا أو في الآخرة، أما ما وراء ذلك فينبغي أن يكون تصديقه عن تعقل وتثبت وحسن نظر.

ومن معاني الصِّدِّيقية: أن يكون صادقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، والصدق هنا خُلق عظيم، يشمل الصدق بالكلام فلا يكذب مهما كلَّفه الأمر، إلا فيما جاءت الرخصة فيه مما رُوعيت فيه المصلحة الغالبة، دون توسع في التأويل، أو وقوع في التدليس(٢).

كما يشمل الصدق في الأفعال والإيمان، فلا يكون متلوِّنًا يدور حيث تدور به مصلحته، ولا يدعو إلى شيء ويكون أول مَن يسارع إلى مخالفته.

ومن أعظم ألوان الصدق: الصدق في القلب، صفاء القلب، صفاء النية، حسن المقصد، إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أن يسلم الإنسان في داخله من الغل والحقد والحسد على الناس، بل يفرح لهم، وأن يجاهد نفسه في دفع الغل والحسد

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) كما جاء في «صحيح البخاري» (٢٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين الناس، ويقولُ خيرًا ويَنْمِي خيرًا».

قال ابن شِهاب- الرواي عن حُميد بن عبد الرحمن، عن أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «ولم أسمعْ يُرَخَّصُ في شيءٍ مما يقولُ الناسُ كَذِبٌ إلَّا في ثلاثٍ: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، وحديثُ الرجل امرأتَهُ، وحديثُ المرأة زوجَها».

ورُويت الزيادة في آخره مدرجة في الحديث. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٤٥).

والغيرة، فإن «الحِلم بالتحلُّم، والعلم بالتعلُّم»[(١)]، والصبر بالتصبُّر، ومن أسباب تحقيق ذلك أن يدعو للناس بخير في سجوده ولا يستثني أحدًا، فيدعو لنفسه ووالديه وزوجه وذريته والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، والمؤمن في كل حالاته يتمثَّل قوله ﷺ: **«عليكم بالصِّدق؛ فإن الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يَهدي إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدُقُ ويتَحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صدِّيقًا»**[(٢)].

ثم وصفهم بأنهم: شهداء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه الأمة هي بالجملة أمة الشُّهداء على الناس، وهم شهداء على أنفسهم قبل ذلك، بالعدل والإنصاف والتحرِّي والنزاهة، فمؤمنو هذه الأمة مثل شهداء الأمم السابقة، وهم بمنزلة الشُّهداء عند الله، ولو ماتوا على فرشهم، ﴿وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، فلهم أجر الصِّدِّيقية، ولهم النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم[(٣)].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استئنافًا لكلام جديد، فتكون الواو للاستئناف، أي: أن الشهداء الذين بذلوا أرواحهم وقُتلوا في سبيل الله لهم أجر عظيم[(٤)].

وقد ورد: **«للشَّهيد ستُّ خصال: يُغفرُ له في أول دَفْعة، ويَرَى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعينَ زوجةً من الحُور العين،**

---

(١) كما قال أبو الدَّرْداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١١٤)، وهناد في «الزهد» (١٢٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الحلم» (٤٧)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٢١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٥٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٦١٧، ٩٠٣).

ورُوي مرفوعًا، والموقوف أصح. ينظر: علل الدارقطني (٦/ ٢١٨ - ٢٢٠)، و«العلل المتناهية» (١/ ٧٦)، (٢/ ٢٢٢- ٢٢٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤١٢- ٤١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٦- ١٢٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٣٩٧- ٣٩٨).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢)، والمصادر السابقة.

ويشفع في سبعينَ من أقاربه»[١].

وفي الحديث: «إن في الجنة مائةَ درجة، أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: عادة القرآن في المقابلة بين هؤلاء وهؤلاء؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء.

* ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾:

إذا وجدت الآية تُستفتح بهذا الأمر: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾، فثمة أمر جَلَلٌ مهمٌّ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وهي دعوة إلى التيقظ والمعرفة القلبية التي تتجاوز الكلام اللساني، والنظر العقلي، والقناعة الجافة، إلى ملامسة القلب والوجدان وصبغ الشخصية الإنسانية بصبغة الربانية الصادقة.

والحديث عن الدنيا ليس على سبيل الذم المطلق للحياة الدنيا، ولكنه وصف يهيِّئ المسلم إلى أن يقف موقف الاعتدال والاتزان، فيأخذ منها نصيبًا لا يشغله عن طلب الآخرة، ووصفها بأنها ﴿لَعِبٌ﴾، واللَّعب ليس كله حرامًا ولا كله مذمومًا، والنبيُّ ﷺ كان يلاعب أهله، ويلاعب الصبيان ويمازحهم[٣]، وإنما المذموم ما تعدَّى إلى أن ينقلب أذى للآخرين أو عدوانًا على الممتلكات، أو انشغالًا عن الفرائض.

واللَّهو يكون عادة للمراهقين والشباب، وكذلك النساء فيهن ميل للهو.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨٢)، والترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (١٨٨٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، بنحوه، وينظر ما سيأتي في «سورة الغاشية»: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النبيُّ ﷺ ليخالطُنا، حتى يقولَ لأخٍ لي صغير: «يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير».

وليس كل اللَّهو مذمومًا، و«الأنصارُ يعجبهم اللَّهو»[1]، ويُثْنَى عليه في الأفراح والأعياد والمناسبات المشروعة، والمذموم منه ما تعدَّى الحدود، أو خالف الأمر، أو كان سببًا في تفويت فريضة، أو أشغل عن ذكر الله.

والزِّينة مطلوبة، والله تعالى خلق النجوم زِينة، والمال زِينة، والخضرة زِينة، وما على الأرض زِينة، والحيوانات زِينة، فهذا من بديع حكمته وصنعه، والمذموم منها ما بلغ حد السَّرَف والتَّرَف، مثل أن يتزيَّن الإنسان بالذهب أو بالحرير، أو تتزيَّن المرأة بما لا يجوز، أو يكون المقصود به الفتنة والإثارة والإغراء، كما قال ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرهما». وذكر منهما: «ونساءٌ كاسياتٌ عاريَاتٌ مُمِيلَاتٌ مائلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائلة، لا يدخلنَ الجنةَ، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحَها ليُوجدُ من مسيرة كذا وكذا»[2]. فهذه زينة مبذولة لغير الزوج، بل للفتنة والإثارة والإغراء، ومعظم ما وردت فيه النصوص من النهي عن ألوان من الزِّينة، فإنما النهي عنها لأنها تفضي إلى ما لا يحل، أو كانت ذريعة موصلة للمنكر والمفسدة، أو كانت غشًّا وخداعًا وتلبيسًا.

ثم ذكر التفاخر، وهو غالبًا للكهول ومَن هم أكبر منهم[3]، فهم عادةً يتفاخرون بما هو لهم مجد زاهر، ومال وافر، وولد حاضر.

والتكاثُر في الأموال والأولاد في الغالب للكهول ومَن فوقهم في العمر، كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يزالُ قلبُ الكبير شابًّا في اثنتين: في حُبِّ الدنيا، وطول الأمل»[4]. فهذا الشيخ الهَرِم يحب التكاثر في الأموال والأولاد، كما قال سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هنا يشمل معنيين:

الأول: منافسة الآخرين.

والثاني: الحرص على الكثرة[5].

---

(١) كما جاء في «صحيح البخاري» (٥١٦٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٣)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

والمذموم منه هو المبالغة، وأن يكون مصدره حرامًا، أو أن يتحول إلى مفاخرة ومباهاة، أو حجب الحق عن المستحقين.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾: مثَّل تعالى الدنيا بالمطر الذي يعجب نباته الزُّرَّاع، والزَّارع يسمى: كافرًا، والقرية تسمى: كَفْرًا، وتشتهر هذه التسمية في مصر، وفي اختيار لفظ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ تعريض بالكفار الذين كفروا بالله ورسله وغرَّتهم الحياة الدنيا، وغرَّهم بالله الغرور(١).

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: فهذا هياج يمثِّل مرحلة الشباب والكُهولة؛ لأن الزرع هنا قد اكتمل ونضج، ثم سَرْعان ما يصفر ويبدأ في الذُّبول(٢)، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾: وهو تعبير عن النهاية والموت، فانظر إلى تناسب مراحل الحياة الدنيا مع مراحل الزرع في هذا المثل القرآني العظيم.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾: فالحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: أنها تغر صاحبها(٣).

* ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾:

ليس المقصود بالعَرْض هنا العَرْض المقابل للطول، وإنما المقصود بعرضها: سعتها(٤)؛ إذ لا معنى من تخصيص العرض دون الطول، فالمقصود سعتها وهذا

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٤)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤-٢٥)، و«تفسير أبي السعود» (٨/ ٢١١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٢٧)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٨).

معروف عند العرب، كما قال قائلهم[1]:

ودونَ يدِ الحجّاجِ من أن تَنالَني   بَساطٌ لأَيدي الناعجات عَريضُ

وفي قوله: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تشبيه يقصد به أنها شديدة السعة، ولذلك لا يقال كما يقول بعضهم إذا كانت الجنة عرضها السماء والأرض، فأين النار؟ ولا يقول هذا إلا جاهل يظن أن الكون ليس فيه إلا ما يعرفه من السماوات والأرض.

﴿أُعِدَّتْ﴾: فيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن، كما قال الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[2]. فالجنة موجودة، والأدلة على ذلك عديدة، منها هذه الآية[3].

* ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾:

ما مناسبة الكلام عن المصيبة في السياق؟

قال بعضهم: لما جرى الحديث عن الجهاد والشهادة ناسب أن يذكر المصيبة[4].

والأقرب أنه لما ذكر الحياة الدنيا وما فيها والأموال والأولاد، عُرف أن الحياة الدنيا مبناها على الخطر، وحال الإنسان فيها الشقاء والمكابدة، وأنها لا تسلم من العوارض، فلا أحد بمنجاة من مرض أو نكسة في ماله أو نفسه أو أهله أو ولده،

---

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ٣٠٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٠١)، و«شرح ديوان الحماسة» (١/ ٣٠٣)، و«لسان العرب» (٧/ ٢٥٩) منسوبًا إلى العُديل بن الفَرْخ العجلي.

(٢) ينظر: «شرح الطحاوية» (ص٤٢٠)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «الفقه الأكبر» (ص٦٣)، و«أصول السنة» لأحمد بن حنبل (ص٥٩)، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للمقدسي (ص١٧٦)، و«معالم أصول الدين» (ص١٢٧)، و«شرح الطحاوية» (ص٤٢٠)، و«أعلام السنة المنشورة» (ص٧٠-٧١)، و«شرح العقيدة الواسطية» للهراس (ص٢٩٧-٢٩٨).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ٤٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٠٩).

وما من أحد قط إلا وحاول شيئًا في الدنيا ثم لم يحصل عليه أو حُرم من أمر كان يتمنَّاه أيًا كان ذلك الشيء، فالحياة لا تخلو من مصائب؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد تكون المصيبة في النفس مرضًا أو همًّا أو غمًّا أو كآبة، وبعض الناس قد يسلم من الإعاقة والعجز البدني؛ ولكن في داخله من الاكتئاب والأحزان والقلق ما يعيقه عن تحقيق سعادته وراحته واستقرار نفسه واطمئنان قلبه.

على أن تخفيف ذلك أو إزالته ممكن بالقرآن واتِّباع هَدْي الرسول ﷺ، وأن يخالط الناس السُّعداء الذين يعيشون التفاؤل، فإن هذا يُعدي.

وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: إشارة إلى نوع آخر من المصائب، وهي المصائب العامة، مثل الطوفان، والزلازل، والبراكين، وحالات الفقر والجوع، والأمراض المعدية التي تنتشر بين الناس.. ونحوها من المصائب العامة التي تقع للأمم، فهذه كلها مكتوبة عند الله، وقد علمها وقدَّرها، وهذا من معاني الكتاب، فعلمه كتاب سبحانه، والقدر مدوَّن في اللَّوح المحفوظ، وهو كتاب عند الله لا يضل ولا يتغيَّر.

ومن معاني الكتاب: إذن الله بوقوعها، ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1] [التغابن: ١١].

ونصَّ على المصيبة، مع أن الحوادث كلها- خيرها وشرها، كبيرها وصغيرها- لا تقع إلا بقَدَر، لكنه خصَّ المصيبة؛ ليؤكِّد أن الاحتجاج بالقدر في المصائب لا في المعايب[2]، والاحتجاج بالقدر هنا يعطيك قوة ويمنحك إيمانًا، فبدلًا من أن تذهب نفسك حسرات في أمر لا يد لك فيه تركن إلى تقدير الله: «قَدَرُ الله، وما شاءَ فعل»[3]، فيكون الأمر بَرْدًا وسلامًا على قلبك، ويذهب ما تجد من الإحساس

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٥٠٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٠).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾.

(٣) كما في «صحيح مسلم» (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله، وما شاء فعلَ». وتُروى: «قَدَّر اللهُ».

بالألم أو الفقد أو الخسارة أو ضياع الأحلام، وتتهيأ الروح للبدء من جديد.

وثَمَّ فرقٌ ما بين المصيبة الفردية، والمصيبة الجماعية: فالمصائب العامة هي بما كسبت أيدي الناس: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولا يتعيَّن أن تكون مسؤولية فرد، وينزل البلاء عليهم جميعًا؛ لأنه لا يمكن إلا هذا، ثم يُبعثون على نياتهم.

ولا يحسن حينئذ أن نقول عن كارثة ما إنها مسؤولية قبيلة بعينها، أو أسرة بعينها، أو بلد بعينه؛ بحيث إذا نزل البلاء في بلد نتَّهم ذلك البلد تهمة عامة.

هذا ليس بسائغ شرعًا ولا عقلًا، فإذا وقع في بلد أمطار وأصيب الفقراء والمساكين والضعفاء، لم يحسن أن نقول: أنتم يا أهل البلد أهل معاصٍ وفجور.. فهذا توبيخ وتحكُّم، والمصيبة لا يلزم أن تكون عقوبة للأشخاص الذين نزلت بهم خاصة، وإنما هي عقاب عام، ودعوة إلى الاعتبار والتصحيح.

وكون المصيبة بسبب ذنب لا يمنع أن يكون ثمة آيات تُرسل للناس على سبيل الرحمة، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم تَعُدُّونَ الآيات عذابًا، وإنَّا كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ بَرَكَةً»(١).

ونظر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى معنى الاعتبار، فالله تعالى قد يعاقب أُناسًا ويترك مَن هم أشد منهم، حتى يذرهم في طغيانهم يعمهون: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢،١٨٣]، وقد تكون المصيبة تخويفًا وتنبيهًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، فتكون خيرًا من جهة أنها لو تأخرت لكانت أهول وأطول وأعظم، ومن علم أن التدبير بيد الحكيم الخبير رضي وآمن وسلَّم، وأدار البحث الرشيد في معرفة مصدر البلاء، وكيف يمكن للمكلَّف تداركه أو تلافيه.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: الضمير هنا يعود على المصيبة، أو يعود على النفس، أو

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٧٩)، و«جامع الترمذي» (٣٦٣٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٠٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢٨٥٤)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص٢٧٢).

يعود على الأرض، وكلها مما سبق في الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: ضبط ذلك وحفظه[1].

* ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾:

من مصالح حُرِمتم منها، لا تحزنوا عليها؛ لأن فواتها قدر مكتوب، ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾، فرحًا طاغيًا يخرجكم عن التوازن والاعتدال إلى الأَشَر والبَطَر والطغيان الذي يكون سببًا في زوال النعمة وحلول النقمة.

وهل يلومنا الله تعالى إذا حَزِنَّا؟ كلا؛ فقد قال ﷺ: «تدمعُ العينُ، ويَحزَنُ القلبُ، ولا نقولُ إِلَّا ما يَرْضَي ربُّنا»[2]. بل المقصود بالأَسَى هنا: الحزن المفرط الذي يُقعد الإنسان عن العمل، أو يحمله على التسخُّط على القضاء والقدر، والكلام بما لا يجوز من هجر القول وفحشه والكفر بالله، فالقرآن يدعونا أَلَّا نستسلم للحزن واليأس.

وثمة آداب وأخلاق من شأنها أن تربِّي المسلم على مدافعة الحزن، وفي المجتمعات ثقافة عامة تقوم على تكريس الحزن وتعظيم مناسباته، كما يقيم الرافضة مناحات لذكرى وفيات مرَّت عليها مئات السنين، وبطريقة تُجَدِّد الحزن وتعذِّب النفس والجسد، وإنما يُثنَى على المرء إذا كان يقاوم الحزن ويسارع إلى تناسيه ومعالجته بالإقبال إلى تجديد حياته والتخطيط لمستقبله، اعتبارًا بما وقع له وتحرزًا من أسبابه؛ ولذا مدح عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرومَ، وأثنى عليهم بأنهم: «أسرعُ الناس إفاقةً بعد مصيبة»[3].

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٥)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١١٨٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ١١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

هذا أمر حسن أن يقاوم الإنسان الحزن ويتحرَّر من أغلاله، ولا يجعل نفسه مأسورة له، أن يحاول تجاوز الأزمة العارضة.

ولعل مقصود عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المصيبة العامة، كالهزيمة العسكرية أو النكبة أو الحرب الأهلية، وهذا مشاهد مقروء في التاريخ الأوربي الحديث والقديم، وكذلك الأزمة الخاصة من مرض أو فقد قريب على المؤمن أن يتذكَّر أن الأولاد عارية، كما قال لَبيد:

وما المالُ والأَهلونَ إِلَّا وَديعَةٌ ولا بُدَّ يومًا أن تُـرَدَّ الوَدائعُ[1]

فما أعطاك الله تعالى في هذه الدنيا فهو عارية مسترجعة، وهي راحلة عنك أو أنت راحل عنها.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: وهذا ليس نهيًا عن الفرح؛ فالفرح مباح في الأصل، وقد يكون مستحبًّا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، والله تعالى قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ومن الحياة الطيبة السرور والرضا وقرة العين، لكن المنهي عنه فرح البَطَر والأَشَر، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، فالمذموم الفرح الذي يؤدِّي إلى أذى الناس، والعدوان، والطغيان، والبَطَر، وتجاوز الحدود، والنسيان وكفر النعمة ونسيان الشكر، كما حدث لقارون، إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، أما ما دون ذلك من الفرح فهو مأذون فيه، وهو من طبيعة الجِبِلَّة، والله قد أثنى على المؤمنين بالإنفاق وبالصدقة؛ مما يدل على أنهم ضربوا في هذه الأرض وكسبوا واتَّجروا وحصَّلوا مصالح، وبقدر مكانة الإنسان يكون تأثيره، فإذا كان له وظيفة كبيرة أو صوت مسموع أو مال أو جاه، كان أكثر تأثيرًا وأقدر على إيصال النفع والخير للخلق، وهذا مما يُفرح به أن يُدخل السرور على الناس، أو يساعدهم في حل مشكلة، أو يكون مستشارًا لهم في خير، أو يدفع عنهم ضرًّا أو يدعو لهم.

---

(١) ينظر: «ديوان لَبيد بن رَبيعة» (ص٨٩).

* ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾:

لما ذكر تعالى الدنيا ودعا إلى الإنفاق وجعل في الدنيا ميزانًا معتدلًا لا يزيد ولا ينقص، ختم بذم ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ لأن المصيبة قد تكون في المال، فهؤلاء يبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، ويريدون أن يكون الناس مثلهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والله ليس بحاجة إلى أحد، وإنما المقصود ابتلاؤهم، و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ تشمل معنيين[1]:

الأول: المحمود، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المحمود على إفضاله وإنعامه وعطاياه.

الثاني: الحامد، فإن الله تعالى يحمد عباده على الخير والبر والإيمان، وعلى ما قدَّموا من خير، فهو حامد ومحمود[2].

* ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾:

أما البينات فهي: الحجج الظاهرة[3]، ومنها: القرآن، وورثة الرسل والأنبياء هم العلماء يوضِّحون هذه البيِّنات، ويُقِيمُون الحُجج على العباد، مما يدل على أن أصل المهمة الرسالية هو البيان وإقامة الحجة، ودعوة الناس إلى الخير.

ولم يقل: «بعثنا رسلَنا بالسيف»، وإن كان ثمة حديث مروي عن النبي ﷺ: **«بُعثتُ بين يَدَي الساعة بالسَّيْف، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وجُعل رزقي**

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٥)، و«مع الله» (ص٢٢٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٦١٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٣٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧)، والمصادر السابقة.

تحت ظِلِّ رُمحي...»[1].

وفي بعض ألفاظه نكارة، وفي سنده ضعف واضطراب[2]، وهو بظاهره يتعارض مع العديد من نصوص القرآن والسنة، ومنها هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن كان من العلماء مَن حسَّنه[3].

فقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قضية قطعية حاسمة، ومهمة الرسل هي البيان.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾: أنزل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ لإقامة الحجة، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لإقامة العدل[4]، وبالعدل قامت السماوات والأرض، ومما اشتهر: مقولة ابن تيمية في شأن العدل: «يُروى: اللهُ ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة». ويقول أيضًا: «العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، في جميع الأحوال، والظلم لا يُباح شيء منه بحال»[5].

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى إنزال الحديد أنه كان في السماء ونزل في الأرض، وليس هذا ببعيد[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٤٠١)، وأحمد (٥١١٥، ٥٦٦٧)، والبخاري (٤/ ٤٠) معلَّقًا ببعضه بصيغة التمريض، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وأبو داود (٤٠٣١)- ببعضه- والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٣١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١١٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣١٧) (١٤١٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٥٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٤٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٧٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر تفصيل الضعف في تخريج «مسند أحمد»، (طبعة الرسالة).

(٣) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٩)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٢٩)، و«فتح الباري» (٦/ ٩٨)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٤٥- ٤٤٦)، و«إرواء الغليل» (١٢٦٩)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (٧/ ٤٩٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٢٨٧).

(٥) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣)، (٣٠/ ٣٣٩).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٧)، والمصادر الآتية.

والمعنى الآخر: أن الله تعالى أنزل سُنَّة هذا الأمر، فالأمر بخلقه هو من عند الله تعالى من السماء، والسنة في التعامل معه هي من عند الله، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فيكون المقصود: خلقها وتشريع التعامل معها، رعاية وتملكًا وغير ذلك[1].

والبأس الشديد: وصف حيادي يدل على القوة التي قد تضر الناس وقد تنفعهم؛ وقد امتن الله على نبيِّه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فهؤلاء الأنبياء علَّمهم ربهم صنعة تقيهم بأس المعتدين، وهو القتال بالحديد، كالدُّروع والتُّروس، كما في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، فهذه الدُّروع عُلِّمها داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لحماية الناس من البأس؛ مما يدل على أن الشريعة جاءت لحفظ حياة الناس، وهم خلق الله مؤمنهم وكافرهم برِّهم وفاجرهم، والله امتحنهم على الأرض ووضعها لهم، وابتلاهم بالدعوة والأمر والنهي والتكليف، ورزقهم كلهم من فضله.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: فالبأس الشديد ليس نفعًا محضًا، بل الغالب عليه الضرر، وكثير من الحروب تأتي بمضار عظيمة، وقد يتحقق المقصود بدونها، إلا أنها تكون في حالات كثيرة ردعًا ودفعًا لعدو مغرور مستكبر مخمور بالقوة والسلاح، فأشار هنا إلى منافع الحديد بالوقاية من السلاح أو بالمنافع التي أصبحنا نراها اليوم، من الصناعات المتقدِّمة التي صارت جزءًا جوهريًّا في حياة الناس اليوم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾: فهذا الذي أنزله الله تعالى من الكتب والميزان والحديد مقصودها أن يعلم الله علم وجود وتحقق في واقع الحياة مَن ينصرُه ورسلَه ومَن يبغي ويتعدَّى ويظلم[2]، وعلمه تعالى قبل حصول

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٧)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٥٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٢١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤١٨).

الشيء هو علم آخر، فهو تعالى يعلم الشيء قبل حدوثه، ويعلم أنه حدث فعلًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو ﴿قَوِيٌّ﴾ لا يُعجِزه شيء وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب.

* ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

وخص نوحًا وإبراهيم؛ لأنهما آباء الأنبياء، ولذلك قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، فالأنبياء الذين جاؤوا بعدهم هم من صلبهم ومن ذريتهم، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: من ذريتهم مهتد، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: أن الأكثرين من ذرية نوح وإبراهيم فاسقون، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ[1].

* ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ومعنى ﴿قَفَّيْنَا﴾ أي: أتينا من بعدهم برسل، مأخوذة من «القفا»[2]، أي: أرسلنا من بعدهم برسل منهم، ومن هؤلاء الرسل: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، وهو كتابه المنزَّل عليه، كما نزلت التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ أي: لينًا، ﴿وَرَحْمَةً﴾، وذلك أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعث ليُلطِّف من القسوة والغلظة والمادية التي غلبت على اليهود، وكان في رسالته السماحة والرأفة والرحمة، ولذلك يتداولون في كتبهم الكلمة المروية عنه: «مَن ضربك على خدِّك الأيمن، فأدِرْ له خدَّك الأيسر، ومَن

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٤٢)، و«البحر المديد» (٧/ ٣٢٩)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٧٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٠)، و«معترك الأقرآن» (٣/ ١٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٠).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٥٤٠)، و«مقاييس اللغة» (٥/ ١١٢) «ق ف ي»، و«مختار الصحاح» (ص٢٥٨)، و«لسان العرب» (١٥/ ١٩٤) «ق ف ا».

نازعكَ ثوبك، فزده رداءَكَ»[1]. فبُعث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحمة؛ ليُخفِّف من غلواء اليهود وقسوتهم، ولذلك جعل تعالى ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ بالناس وتواضعًا وسكينة، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، ويمكن أن يكون هذا عطفًا على قوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ على أن الرَّهبانيَّة ليست مثل الرأفة والرحمة، فالرأفة والرحمة مطلوبة مطلقًا، أما الرَّهبانيَّة ففيها نظر؛ لأنها تطوَّرت إلى ما لا تُحمد عقباه، ولذا أشار هنا إلى بدعيتها.

وفي الآية احتمال أن يكون قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ مفعولًا لفعل يدل عليه ما بعده، فيكون تقدير الآية: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وابتدعوا رَهبانِيَّة أي: أنشؤوا واخترعوا من قِبل أنفسهم رهبانية[2]، ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أن الله تعالى لم يوجبها عليهم، قال سبحانه: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

وهذا فيه احتمال أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم هذه الرَّهبانيَّة، لكن هم عملوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾[3]، فالأولون منهم اتَّجهوا إلى الرَّهبانيَّة، والرَّهبانيَّة مأخوذة من الرَّهْب، وهو الخوف[4]، والغالب أن المقصود: الخوف من الله، فبسبب الخوف من الله كان المتقدِّمون من عُبَّاد النصارى يعتزلون الناس

---

(١) ينظر: «المِلَل والنِّحَل» للشهرستاني (٢/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٢٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٣٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٢).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (١/ ١٤٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٦٦)، و«لسان العرب» (١/ ٤٣٦) «ر هـ ب»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ١٠٠).

ويقيمون في الصوامع والدِّيارات في القُرى والصحراء، ولا يدخلون على أحد، ولا يدخل عليهم أحدٌ، ويتفرَّغون للعبادة.

وكان من جرَّاء هذه الرَّهبانيَّة أن تركوا الزواج زهدًا وتفرغًا للعبادة، فتخفَّفوا من ذلك، حتى تحول هذا إلى دين عندهم، وبسبب العزوف عن الزواج شاعت الخيانات والتحرش الجنسي والعدوان، وكم خرج للناس من تسجيلات وثائقية تفضح قساوسة يتحرَّشون بالأطفال أو بالنساء أو بالراهبات؛ لأن هذا التشريع معاندة للفطرة البشرية في ميل الأنثى للذكر والذكر للأنثى.

فهم في الأصل فعلوها خوفًا من الله، ويمكن أن يكونوا فعلوها خوفًا من طغيان المتسلِّطين عليهم من اليهود والروم وغيرهم، فإن أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرَّضوا لحملات شديدة وأُحرقوا وقُتلوا وأُوذوا، ومن ذلك ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، فآل الأمر إلى التخفِّي والانعزال في الصوامع، علمًا أن الرَّهبانيَّة الصحيحة هي أن يُخالط الإنسان الناس ويصبر على أذاهم، كما قال النبيُّ ﷺ: **«المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبرُ على أذاهم»**(١).

وكما قيل: «ليس الناسك ناسك الصومعة، وإنما ناسك المدينة». أي: أن الرَّاهب الحقيقي هو الذي يختلط بالناس ويصبر عليهم ويدفع بالتي هي أحسن ويجتهد وسعه ما استطاع.

فالمعنى هنا أن الرَّهبانيَّة لم تُكتب عليهم، ولكن هم فعلوها ابتغاء رضوان الله، فكأن الله تعالى قَبِلها منهم أول الأمر وأذن لهم فيها، ولكنهم طوَّروها بعد ذلك إلى ما لا يجوز.

ويمكن أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم ذلك، إلا أن يريدوا به رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٧١)، والبيهقي (١٠/ ١٥٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

والأقرب أن الله تعالى لم يكتب عليهم الرَّهبانيَّة، ولكن هم فعلوها[1].

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: فهم ابتدعوها، وما استطاعوا أن يقوموا بحقوقها[2]، وهذا أصل في عدم تكليف الإنسان نفسه ما لا يطيق.

وربما الرَّهبانيَّة في بني إسرائيل مثل النذر في هذه الأمة، فالنذر ليس مشروعًا، ولا يأتي بخير- كما قال ﷺ- وإنما يُستخرجُ به من البَخِيل[3]، وامتدح اللهُ الموفون بنذورهم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وسأل عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ: إني نذرتُ في الجاهلية أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام. فقال: «أَوْفِ بنذركَ»[4]. بشرط أن يكون النذر في شيء مشروع أو مباح، وفي الحديث: بينا النبيُّ ﷺ يخطبُ، إذا هو برجل قائمٌ، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيلَ، نَذَرَ أن يقومَ ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكلمَ، ويصومَ. فقال النبيُّ ﷺ: «مُرْهُ فليتكلمْ وليستظلْ وليقعدْ، وليتمَّ صومَه»[5]. وفي الحديث الآخر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ رأى شيخًا يُهَادَى بين ابنيه، فقال: «ما بَالُ هذا؟». قالوا: نَذَرَ أن يمشيَ. قال: «إن اللهَ عن تعذيب هذا نفسَهُ لغنيٌّ». وأمره أن يركَبَ[6].

فنذر الإنسان طاعة من الطاعات إن حقَّق الله مراده يلزم الوفاء به عند القدرة، كقول أحدهم: نذرتُ لله إن شفى اللهُ مريضي أن أتصدَّق بكذا. هذا يجب عليه الوفاء.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣٠)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ٣١٥- ٣١٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٢)، ومسلم (١٦٥٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٠٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).

وثَمَّ نوع آخر يسمَّى: نذر اللَّجاج، وهو أن يريد الإنسان تَرْكَ شيء فيرغم نفسه على تركه بالنذر لئن فعله ليصومن كذا وكذا أو ليتصدقن بكذا وكذا، فيجب عليه أن يوفِ بنذره لو فعل ذلك الشيء الذي علَّق عليه النذر، فإن لم يوفِ بنذره فعليه أن يكفِّر كفارة يمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ لأنه قصد بهذا النذر ما يقصد باليمين من فعل الشيء أو تركه(١).

ولهذا قال هنا: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما حفظوها حقَّ حفظها، وقوله: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ما رعوها رعايتها الحقة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل من أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: كافرون(٢)، مثل الذين قالوا من أتباع عيسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، أو الذين قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، أو الذين افتروا على الله الكذب، فهم في مقابل الذين آمنوا، والفسق يُطلق على الكفر، كما في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٨ - ١٩].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

قدَّم الأمر بالتقوى استدراكًا على رهبانية بني إسرائيل، وإلفاتًا للبصائر إلى الحق المتعيَّن، وهو التقوى، وترك المفضول الذي لا يغني من الحق شيئًا، وهو الرَّهبانيَّة التي ابتدعها بنوا إسرائيل.

---

(١) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٠/ ٤٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٣٩)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٢).

والتقوى: حال في القلب يحمل على فعل الطاعة وترك المعصية، أَلَّا يجدك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك(١).

وكما يقول ابن المعتز(٢):

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقرنَ صغيرةً إن الجبالَ من الحَصَى

والمقصود بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: المسلمون من هذه الأمة(٣)، وهذا محتمل وظاهر.

وقد يكون المقصود: الذين آمنوا من بني إسرائيل من أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ(٤)؛ الذين أشار إليهم بقوله: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾.

والأولى شمول الخطاب لهذه الأمة ولبني إسرائيل الذين كانوا مؤمنين بعيسى، فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، النبي الخاتم، ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: ضعفين، والكِفل هو: المقدار العظيم(٥).

وإذا كان الخطاب لبني إسرائيل، فقد شهد بمثل هذا شواهد من القرآن، كما

---

(١) ينظر: «موسوعة فقه القلوب» (٢/ ١٨٨٨).

(٢) ينظر: «ديوان ابن المعتز» (ص٢٩)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٩)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٤١١)، و«الكشكول» (٢/ ٢٧٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٤١١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٣٤)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٦)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «العين» (٥/ ٣٧٣) «ك ف ل»، و«معاني القرآن» للفراء (ص٢٨٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٥٥)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٩٦٩) «ك ف ل»، و«الصحاح» (٥/ ١٨١٠) «ك ف ل»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٧)، و«شمس العلوم» (٩/ ٥٨٥٩) «ك ف ل»، و«لسان العرب» (١١/ ٥٨٩) «ك ف ل»، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ٤٢٨).

في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص:٥٢- ٥٤]، هؤلاء الرهبان من بني إسرائيل الذين سمعوا القرآن فآمنوا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣]، فجعل لهم الأمر ضعفين، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدركَ النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبَعهُ وصدَّقَهُ، فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أَدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ سيِّده، فله أجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ، فَغَذَاها فأحسنَ غِذَاءَهَا، ثم أَدَّبَها فأحسنَ أَدَبَهَا، ثم أعتقها وتزَوَّجها، فله أجران»[1].

وإذا كان الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، فهو تشريف لهم أن الله تعالى يُضاعف لهم الأجر أكثر مما كان يعطى مَن كان قبلهم من أهل الكتاب.

وهذا معنى مستقل صحيح؛ يشهد له حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُكم ومَثَلُ أهل الكتابين، كمَثَل رجل استأجرَ أُجراءَ، فقال: مَن يعملُ لي من غُدْوَةَ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعملُ لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعملُ لي من العصر إلى أن تغيبَ الشمسُ على قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهودُ والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرَ عملًا، وأقلَّ عطاءً؟! قال: هل نقصتُكُم من حقِّكُم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أُوتيه مَن أشاءُ»[2]. فهذا فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾: غير النور الذي في الآخرة، هذا نور في الدنيا؛ أي: نورًا في الدنيا[3]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وهذا من فضله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٤١-٥٤٢)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٥٠)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠).

سبحانه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وذكر النور الدنيوي هنا مناسب لما أخبر عنه في ثنايا السورة من أن المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم[1].

* ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩﴾:

أي: ليعلم أهل الكتاب، وهكذا كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرؤها: (لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ)[2]، وهذه قراءة تفسيرية ليست وحيًا، وإنما يقرؤها ليُعلِّم طلابه أن هذا هو المقصود، وأن «لا» هنا صلة أو زائدة في سياق الكلام[3].

والمعنى: حتى يعلمَ أهلُ الكتاب، أي: ليعلم ويدرك من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، فالفضل لله سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

وكأن أهل الكتاب كانوا يزدرون العرب ويتوعَّدونهم بنبي يُبعث، فيقتلونهم به قتل عاد وإرَم[4]: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، فلما وجدوا أن هذا الرسول ﷺ هو من العرب من ذرية إسماعيل منعهم الحسد أن يؤمنوا، وقالوا: «هؤلاء أبناء أَمَة»[5]. يعنون: هاجَرَ، واستكبروا عن الرسالة،

(1) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢﴾.

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 271)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 350)، و«البرهان في علوم القرآن» (3/ 79)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 395)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 251)، و«تفسير الماوردي» (5/ 486)، و«تفسير البغوي» (5/ 36)، و«تفسير الرازي» (29/ 475)، و«تفسير القرطبي» (17/ 267).

(4) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 211، 429)، و«تاريخ الطبري» (2/ 354)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص298)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 76، 434)، و«البداية والنهاية» (3/ 502)، (4/ 371)، وما سيأتي في «سورة البينة»: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 241)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 509)، و«تفسير السمرقندي» (1/ 72)، و«تفسير البغوي» (1/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 325).

ونسوا أن الفضل بيد الله، وأن السابق يدرك أحيانًا أكثر مما أدرك اللَّاحق.

وهذا يُقوِّي أن المقصود بقوله سبحانه في «سورة الواقعة»: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أنه في هذه الأمة؛ حيث كتب اللهُ لهم من الفضل ما لم يكتبه لسابقيهم[1]، والله أعلم.

○○○

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الواقعة».

فهرس المحتويات

مقدمة.. ٥
سورة الفاتحة.................................... ١١
سورة الحجرات................................... ٢٩
سورة ﴿قٓ﴾....................................... ٦٧
سورة الذاريات.................................... ١٠٩
سورة الطور...................................... ١٥١
سورة النجم...................................... ١٨٥
سورة القمر...................................... ٢٢١
سورة الرحمن..................................... ٢٥٧
سورة الواقعة..................................... ٢٨٩
سورة الحديد..................................... ٣٣٩
فهرس المحتويات.................................. ٣٩٣

○○○